خواطري عن القرآن

المفكر الاسلامي

آية الله الشهيد السيد حسن الشيرازي

المجلد الثالث

(٤١)

سورة فصلت = السجدة

مكية

هي أربعة وخمسون آية

القضاء والقدر

وقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها ١

مبحث (القضاء والقدر) من المباحث المقفلة التي أحكم الحصار حولها، وعدّ من المناطق المحرمة التي منع التجول فيها على العقل البشري، باعتباره من القضايا التابعة لذات الله وصفاته، التي لا يحاول العقل البشري استيعابها إلا ويحترق قبل أن ينتقل من مرحلة الباطل إلى مرحلة الحق.

ورغم ذلك الاعتبار، كان العقل البشري يقتحم هذا المبحث ـ ولو بأسلوب السؤال ـ متجاوزاً المنع الصارم، لسببين:

١ـ إن هذا المبحث مطروح في القرآن الكريم من خلال آيات كثيرة:

(قَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ...)(٢).

(فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ...)(٣).

(...وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ...)(٤)... وطرح هذا المبحث في القرآن ـ ولو بأمثال هذه الصيغ العابرة ـ يعطي الضوء الأخضر للدلالة على سلامة الطريق.

٣ـ إن هذا المبحث ـ ولو في بعض التصورات ـ يسلم الباحث إلى مبحث (الجبر والاختيار). وهو مبحث يؤدي إلى سلسلة من المباحث الشائكة الملحة، كمباحث: (الثواب والعقاب)، و(وجود أو عدم

وجود الجنة النار خارج ضمير الإنسان)، و(جدوى الأعمال وإرسال الرسل وإنزال الكتب)، و(عدالة الله)، و(فلسفة وجود الإنسان)... ورغم أن هذه المباحث نظرية، إلا أنها سرعان ما تنعكس على سلوك الإنسان عملياً وعقيدياً، وتربك كل مفاهيمه ومثله. فلا يصح إهماله، بل لا بد من الاستجابة له، ومعالجته إيجابياً، من أجل الخروج منه بسلام.

ورغم ذلك: نجد مجموعة من الأحاديث تحذر من التورط في هذا المبحث، بأنه (بحر عميق فلا تلجوه)(٥).

ولعل السبب أن مفاهيم: (النسبية)، و(التفاعلات والتولدات الكونية...لم تكن المهمة بالشكل الذي يساعد على فهم معنى القضاء والقدر، لم يكن البحث فيهما ـ بالشكل الصحيح ـ مقبولاً لدى الذهنية المعاصرة لصدور هذه الأحاديث. بينما انفتاح (العلم الحديث) على الدراسات الكونية الدقيقة، هيأ الذهنية المعاصرة لتقبل مبحث (القضاء والقدر) بالشكل الصحيح. فكان فتحه يوم ذاك يؤدي إلى مضاعفات خطيرة، كفلقه هذا اليوم.

القدر

فالقدر هو النسبة، وقدر الشيء: نسبته وحدّه، فمثلاً: الماء قدر من الأوكسجين وقدر من الهيدروجين، نسبة الأوكسجين فيه نصف نسبة الهيدروجين. فنسبة الأوكسجين محددة ومقدرة: ونسبة الأوكسجين في الهواء ٢٢،٥٪ ونسبة الأوكسجين في جسم الإنسان والحيوانات البرية محددة، ونسبته في الحيوانات البحرية محددة، ونسبته في النباتات البرية محددة، ونسبته في النباتات البحرية محددة، وهكذا... في سائر الأشياء التي فيها الأوكسجين، فله نسبة محددة في كل واحدة منها. وكذلك: بقية العناصر، فكل عنصر قدر معين ونسبة محددة في كل شيء يوجد فيه.

فالعناصر التي تتفاعل فتأخذ صورة معينة، لكل واحد منها نسبة محددة، إذا أزاد أو نقص عنها يفسد ذلك الشيء، أي يتحول إلى شيء آخر، فيخلع صورته السابقة، ويتقمص صورة جديدة: كالماء ويتحول هواءً، والهواء يتحول ماءً، والتراب يتحول نباتاً، والنبات يتحول تراباً... فكل التغييرات التي تحدث في الأشياء، إنما تحدث نتيجة لتغير نسبة بعض عناصرها عما يلزم أن يكون عليها في الصورة السابقة إلى نسبة ملائمة للصورة الجديدة.

فمعنى أن الله ـ تعالى ـ جعل لكل شيء قدراً، أنه عين له نسبة محددة، إذا تغيرت تلك النسبة يتغير ذلك الشيء. فأقدار الأشياء، هي مقاديرها الكيماوية التي جعلها الله لها.

فالقــدر ـ في تعبير القضاء والقدر ـ هو بمعناه البســيط المتداول فــي التعبيرات اليومية الدارجة، وهو المقدار: فقدر (زيد) هو مقداره وحجمه، وقدر (الحجر) وزنه وحده...

وربمــا تطلق صفة المولدات على الولائد: فالموت قدر الإنســان، لأن لتركيبته الجســمية قدر معين من القــدرة على البقاء كاملة. والهزيمة قدر الأمة، لأنها ضعيفة محددة القدرات، لا بد لها أن تهزم في المواجهة مع الأقوى منها...

وقدر عليه: زاد عليه قدراً ونسبة، وقادر: ذو نسبة متفوقة، ومقدِّر: من يحدد النسبة اللازمة...

القضاء

والقضاء هو الحكم تشريعيا: أو تنفيذياً: الحكم التشريعي هو ما يأمر به الله ويتركه لإرادة الملك، إن شاء نفذه وإن لم يشأ لم ينفذه، والحكم التنفيذي ما ينفذه الله، شاء غيره أم أبى.

القضاء التشريعي مثل قوله تعالى:

(وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً...)(٦)، فالله أمر بتوحيد العبادة له والإحسان بالوالدين، ترك تنفيذهما لإرادة المكلفين ليمتحنهم.

والقضاء التنفيذي مثل قوله تعالى:

(فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ...)(٧)، أي جعلهن سبع سماوات.

فالقضاء هو مجرد الحكم، ولكنه إذا صدر إلى المكلفين صنف تشــريعياً، وإذا لم يصدر إلى المكلفين صنف تنفيذياً، فصفة التشــريعي أو التنفيذي خارجة من ذات القضاء، أو مقتبســة من مورده. فإذا ورد على أفعال المكلفين كان تشريعيا، وإلى كان تنفيذياً.

فالقضاء ـ في تعبير القضاء والقدر ـ هو بمعناه البسيط المتداول في التعبيرات اليومية الدارجة.ومنه اشتق: القاضي، فهو الحاكم.

وببســاطة: قضاء الله، هو حكم الله الذي قال لك: (كن منســجماً مع الكون الذي أنت جزء منه)، وقال

لكــون: (كــن دقيقاً متوالداً) ـ كما هو الآن ـ وقدر كل أحد وكل شــيء، حجمه وحــدّه اللذين لا يمكنه تجاوزهما.

فالقضاء ليس ـ كما يتصوره البعض ـ ذلك الطوفان المتوحش، الذي يســحق ويكتسح بلا مبالاة. والقدر ليــس ـ كما يتخيله البعــض ـ ذلك الغول الغيبي الأعمى، الذي يمتص محيطات المواهب، ويشــوه الحياة والأحياء.

وأقرن القضاء بالقدر حتى كأنهما كلمتان تفرغان مدلولاً واحداً، لأن القضاء لا يمكن إلا مع اعتبار النسبة: فالقضاء التشريعي تلاحظ فيه النسبة، التي تمكن من إنجاز مفعول القضاء وهو المقضي. والقضاء التنفيذي لا يكون إلا بعد تحديد النسب للعناصر، التي يتألف منها مفعول القضاء وهو المقتضيّ.

وعندما نجد في الحديث القدسي: (قضائي يضحكك من تدبير عبدي)(٨) فمعناه: أن العبد قد يدبر أمراً بملاحظة اعتبارات عرفها فتصرف تجاهها بالشــكل الملائم، ولم يتعــرف ـ أو غفل ـ عن اعتبارات أخرى قائمة بالفعل، فيصطدم بها حين تنفيذ ما دبر، فيفشل فيه.

وعندمــا نجد القول المأثور: (العبد يدبر الله يقدر))(٩))، فمعناه: أن على الله أن يضع الأمور في نصابها، ويعطي مقاييســها لخلقه. ويبقى على العبد أن يتصرف بالأشــياء والاعتبارات القائمة بالشــكل المناسب، ويتحــرك مــن خلالها بمرونة نحو تحقيق حاجاته وواجباته. فللّه دور قــد أداه، وللعبد دور لا بد أن يؤديه، وليس له أن يحمل الله دوره، فينتظر منه كل ما يريد.

أرضية الإيمان، وشرائط الاستقامة

(إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما تَشْــتَهِي أَنْفُسُــكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ ۞ نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)(١٠).

ـ ١ ـ

إذا عرضنــا النــاس على تصاميــم الكون، نجد: بعضهم يمثل فورة النشــاز، كما يجســد بعضهم براءة الانسجام.

ذلك:

إن بعــض الناس يجــد ـ في أرصدته الداخلية ـ نبوغ العقل والنظــام ـ فيأخذ كل ـ من نماذجه ـ حجمه العادل في مكانه المناســب، لإقامة هيكلية متوازنة للمجتمع. وهم العناصــر (الصالحة) التي تمثل الهيكل العظمي للمجتمع، وتدور بهم عجلة الحياة.

وإلــى جانبه بعض آخر، لا يجد ـ فــي أرصدته الداخلية ـ نبوغ العقل والنظام، وإنما يجد ـ في فطرته ـ خليطاً من متكرسات ومتفجرات، تجعله يرتاح إلى الصدام والاشتعال لأنه يعبر بهما عن مركباته. فيأخذ كل ـ من نماذجه ـ غير حجمه العادل وفي غير مكانه المناسب، لإيجاد تناقص مستمر في تركيبة المجتمع. وهم العناصر (الفاسقة) التي تمثل الزوائد، التي تحاول تعطيل دور العناصر الصالحة، فتولد: التدافع الاجتماعي، وتنازع البقاء، وصراع الخير والشر.

❁❁❁

وبما أن العنصر الصالح مطمئن إلى اســتقراره الداخلــي، لا يتهالك لإثبات وجوده وفرض وجوده، فهو ثابت ومروض ـ في مجال الواقع ـ مهما حاول الآخرون هزّه ورفضه. فيشعر بالغنى عن غيره، وبحاجة غيره إليه، فلا يجد مبرراً للتهافت على الأبواب والأقدام. فالآخرون سيضطرون إلى الرجوع إليه ـ مهما طال بهم المطاف ـ فلا مبرر للاستعجال.

بينما العنصر الفاســق قلق من تمزقاته الداخلية، ويشــعر بأنه مهزوز مرفــوض. فالمريض أعرف الناس بآلامه، وبمواضع آلامه فتثيره هواجس الفراغ، ويرى حتفه فوقه، وعوده هشاً خواراً. والفقير إذا ضره الفقر، ويرى حتفه فوقه، وعوده هشــاً خواراً. والفقير إذا ضربه الفقر، يستوحش حتى يضل طريقه إلا إلى الهاوية. والمريض إذا ألحّ به المرض، أرتبك فلم يعرف داءه من دواءه.

ويستطع العنصر الفاسق أن يلجأ إلى ركن وثيق ليهدئ تشنجاته ـ على الأقل ويفهم ذلك جيداً ـ ، ولكن مركــب النقص في يمنعه من العلاج، لأنه يعني الاعتراف بالنقــص، وتعالي المجرم على القبول ينفره من خشوع الاستغفار، والاستسلام للهوى يؤدي إلى التوغل فيه، فلا يلتمس الهدى من مصادره، وإنما يحاول التكفير ـ عن كل تناقضاته وســلبياته ـ بالســيطرة والاستعلاء، وهو يظن أن توســيع رقعة نفوذه، وتجميع الطاقات حوله، يسدان شواغره وفراغاته.

ويتجاهل:

أن تحشـــيد كل ما في الأرض ـ من معادن ومجوهرات ـ حـــول قطعة فحم لا يغير هويتها، وإن وضع جميع الحكماء تحت تصرف مجنون لا يجعل منه عاقلاً، واســـتقطاب شـــيخ لجميع الشـــباب لا يعيد إليه شبابه...، فذاتية الأشياء، بما في داخلها لا بما في خارجها:

(وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ...)(١١).

ولكنه لا يعترف حتى بهذه الحقيقة، لأن مجرد اعترافه بها يساوي انهياره الكامل، لأنه منهار في واقعه، فإذا انهارت دعاواه لم يبق منه حتى الإدعاء.

❁❁❁

والعنصر الصالح، الذي يعتمد على رصيده الداخلي، فيرفض الدعاوى والزيوف، عليه أن يعلم:

١ـ إن مواهبه الذاتية ـ مهما كانت وفيرة ـ فإنها تكون محدودة، لا يمكنه أن يعيش عليها، وأن يســـتهلك منها بلا انقطاع، بل لا بد من تنميتها.

٢ـ إن مواهبه الذاتية ـ مهما كانت صافية ـ فإنها تكون خامات، لا يمكنه الاستفادة منها كما هي، ل لا بد من بلورتها.

فمواهب الإنسان تشبه ـ إلى حد بعيد ـ سائر المواهب، كالثروات المعدنية والزراعية والحيوانية. فكما لا يمكـــن الاعتماد عليها الحجم الموجود والنوعية الموجودة وإنما تحتاج إلى التنمية والبلورة، هكذا... تكون مواهب الإنسان.

فالرصيد الداخلي للعنصر البشـــري الصالح، يحتاج إلى التنمية والبلورة. فالذي يتمتع بفكر واســـع نير، قابل لاستيعاب فلسفة الكون وما وراء الكون، أي قال للتفاعل الإيماني، لا يكفيه الاكتفاء بتلك العقلية، ما لم يترجمها بالصيغ العلمية بمعنى: أن الإيمان الفكري والشفوي لا يغني عن التسربل بالإيمان، بحيث يكون الإيمان ظاهرة تطبع جميع مرافق المؤمن الفكرية والمسلكية.

❁❁❁

ولعل في هذه الشمولية الإيمانية دلالة تسترعي الانتباه، فالله يتعامل مع باطن الإنسان، فيقول القرآن:

(قالَتِ الأَعْرابُ: آمَنَّا، قُلْ: لَمْ تُؤْمِنُوا، وَلكِنْ قُولُوا: أَسْلَمْنا، وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ...)(١٢).

(وَلا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ)(١٣).

(...وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ)(١٤).

وفي الحديث:

(إنما الأعمال بالنيات)(١٥).

(نية المؤمن خير من عمله)(١٦).

(إن الله ينظر إلى قلوبكم، ولا ينظر إلى وجوهكم)(١٧).

ومع ذلك: نجد أن الله ـ تعالى ـ لا يتقبل الإيمان المنطوي في القلب. فالقلب يلزم أن يدعم السلوك حتى لا يكون السلوك كذباً أو نفاقاً، وأما القلب وحده: فلا يكتفى به، إن لم يحرك صاحبه في اتجاهه.

فلــو عرفــت أن ابنك يحبك حباً صادقا، ولكنه لم يتحرك في اتجاهك بشــيء، هــل تقبل محبته؟ ولو أحببت رئيسك حباً جماً، ولم تنفذ شيئاً من أوامره، هل يتقبلك في موظفيه؟...

كلا... فمــا لا نتعامل به لأنه أخف من أن يطــرح في الميزان، لا يقبل الله به: لأنه هو الذي وضع الميزان، ولأنه يريد إيماناً يحرك الحياة نحو الأفضل، ولا يريد إيماناً يهرب من النور إلى ظلمات القلوب.

ثم: إن الإيمان الذي يطرد الخوف والحزن من القلوب، ويصدر إليها البشــائر، هو الإيماني الذي يسيطر على الحياة، فيقضي على أســباب الخوف والحزن ويؤمن عوامل الســعادة، وليس الإيمان الهامس المتردد الذي لا ينعكس حتى على سلوك صاحبه.

ـ ٢ ـ

إن الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللّهُ

القول هو التعبير، والتعبير هو العرض، والعرض لا يمكن إلا لمعروض، فحقيقة القول، هي السيرة الباطنية والسلوك الضميري.

ولذلك: كان قول إسلاماً في قول الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): (من قال: (لا إله إلا الله، محمّد رسول الله)، حقن ماله ودمه)(١٨). فقوله، هو واقعهم.

فـ(الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ) هو الذين يحيون ويعشون ـ بواقعهم، وسلوكهم الضميري، وسيرتهم الباطنية ـ : إن الله مربيهم، وهم مربوبون لله. والمربي لا بد أن يخلع من خُلقه على المربي، والمربى لا بد أن يتخلّق بخلق المربي. فالذي يقول مثل هذا القول، لا بد أن يكون منطبعاً ببعض أخلاق الله، كما في الحديث: (تخلقوا بأخلاق الله)(١٩)..

(ثُمَّ اسْتَقامُوا): ثم استمروا، فلم تزعزهم العصرات (أَلاَّ تَخافُوا): فمعكم الضمير الإنساني العام، ومعكم الرأي العام العالمي، ومعكم كل القوى الخيرة في الوجود، وقبل هذا كله، معكم الله تعالى.

(٤٢)

سورة الشورى = حمعسق

مكية وهي ثلاث وخمسون آية

أصحاب الجنة، وأصحاب النار

فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ٢٠

س: من هم أهل الجنة، ومن هم أهل النار؟

ج: لو استعرضنا البشر ـ من بعد نزول الإسلام حتى الظهور ـ فإن أهل الجنة ينحصرون في: المسلمين الإثني عشريين، العدول، الذين ما حاصوا إلا وغسلوها بالتوبة. وأهل النار هم كل من عدا هؤلاء.

وهذا القول ـ بهذا الشمول ـ ينافي قوله تعالى: (...وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)(٢١). ولعلنا نقسم الناس إلى أربعة أقسام:

١ـ المعاندون، الذين يخالفون الله عن سابق عمد وإصرار. وهم مخلدون في النار.

٢ـ المنحرفون عقيدياً ـ عن قصور. وهم يعرضون للامتحان يوم القيامة: فإن استقاموا دخلوا الجنة. وإن أصروا على انحرافهم، أصبحوا معاندين، فدخلوا النار خالدين.

٣ـ المستقيمون عقيدياً والمنحرفون عملياً، وهم الفساق. إن تابوا، وأصلحوا ما أفسدوه بسلبيات ذنوبهم، فأدوا حقوق الله والناس عليهم، تاب الله عليهم، فدخلوا الجنة. وإلا دخلوا النار حتى تنتهي مدتهم ـ إن لم تشملهم الشفاعة والمغفرة ـ ثم دخلوا الجنة.

٤ـ الصالحون المستقيمون عقيدياً وعملياً. وهم أصحاب الجنة.

س: هل العباقرة والمصلحون غير المسلمون، يدخلون النار؟

والصالحون يدخلون الجنة ـ وإن كانوا عجزة تافهين؟

ج:

١ـ لم يثبت أن العباقرة والمصلحين من غير المسلمين، معاندون. فلعلهم، أو أكثرهم، منحرفون ـ عن قصور، أو تقصير ـ فيعرضون للامتحان يوم القيامة، ولعلهم يكشفون ـ في ذلك الامتحان ـ عن خيار صالحين.

٢ـ إن الصالح العاجز، لا يستحق سوى الجنة، وإن كانت درجته دون درجة الصالح المصلح. بينما العبقرية لا تغفر الأخطاء الدينية، كما أنها لا تغفر الأخطاء الصحية والجنائية. تماماً... كالمواطن العادي البسيط، الذي يستحق حقوق المواطنية، رغم ضعفه وعجزه. والمجرم الذكي الرهيب، الذي يستحق العقاب، رغم مواهبه وقدراته.

إقامة الدين، وعدم التفريق

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ: ما وَصَّى بِهِ نُوحاً، وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ، وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ، وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ. كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ. اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ.

وَما تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ، بَغْياً بَيْنَهُمْ. وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى، لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ. وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ.

فَلِذلِكَ: فَادْعُ، وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ، وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ، وَقُلْ:

آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ، وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ، اللهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ، لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ، لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ، اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ.

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ، وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيد. (٢٢).

(...أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ)، فاعملوا ـ جميعاً ـ لإقامة كيان الدين الحر المستقل، حتى يكون للدين في المجتمع الإسلامي:

أ ـ كيان قائم، يشعر كل من يدخل المجتمع الإسلامي بأن كيان الدين قائم، فأرض هيمنته وسلطانه على المجتمع من القمة إلى القاعدة، وناشر ظله وإرادته على كل منطلقات المجتمع الفكرية ومؤسساته النظامية، وخالع طابعه على جميع الأفراد والأعمال... تماماً... كما يشعر من يدخل المجتمع الاشتراكي بكيان الاشتراكية، وتماماً... كما يشعر من يدخل المجتمع الديمقراطي بالديمقراطية، وتماماً... كما يشعر من يدخل المجتمع الإقطاعي أو الديكتاتوري أو الأرستقراطي... بالمبدء الحاكم فيه. بل بصورة أعمق وأشمل، إذ ليس لسائر المبادئ ما للدين ـ وخاصة: ما للدين الإسلامي ـ من عمق وشمول.

ب ـ حر، لم تكبّله التقاليد والروافد الفكرية والاجتماعية، والوافدة من وراء التاريخ، أو من المجتمعات المتعايشة مع المجتمع الإسلامي، عن إعلان آرائه ومواقفه، بلا تحفظ أو تحذر، وممارسته حق الفرض، والرفض، بلا تقية أو مجاملة.

ج ـ مستقل، عن الآراء والأفكار الشخصية، والتناقضات والتجاذبات التي يجيش بها المجتمع البشري مهما كان مبدأه وطابعه. وهذه العوامل المتفاعلة في المجتمع، من حقها أن تتناول كل شيءٍ في المجتمع بالنقض والتأكيد، ومن حقها أن تطال أصل المبدأ الحاكم ذاته، طالما هو ـ وكل روافده ـ من صنع الفكر البشري، وما دام الفكر البشري فاعلاً ومتقدماً، من الطبيعي أن يفسح المجال أمامه لممارسة التطوير والتقديم، وإلا يعني تحجير المجتمع، وتجميد الفكر. فيما ليس من حق العوامل المتفاعلة في المجتمع

الإســـلامي. أن تتناول أي حكم إســـلامي، أو أن تطال الدين، لأنه ليس من صنع الفكر البشري، وإنما هو من مصدر البشر ذاته، فهو يبقى ـ فوق مسرح البشر ـ مقدساً لا يتناول ولا يطال.

فيلزم إبعاد كل المحركات والمتغيرات عنه، وتفريغ الفكر البشري للإبداع والتطوير في مجالين، يكون في مقدور الفكر البشري الإبداع والتطوير فيهما، وهما:

١ـ مجال التنفيذ، فهو مجال رحب يستحق اهتماماً كبيراً، لأن النظام ـ إذا استتب بأحكام، وشمول ـ ينقذ البشـــر من القلق والاحتيال، ويطمئنه من شرور الآخرين. وتطمين الفرد والمجتمع من شرور غيره، من أهم وسائل السعادة.

٢ـ مجال اســـتيعاب الكون، ابتداءً من الإنســـان نفســـه، وانتهاءً بالطاقات والمجرات، العاملة في الفضاء الرحيب، وهذا... مجال أرحب، يمكّن البشر من الاستفادة من أكبر قدر ممكن من الكون، في سبيل تصعيد نوعيـــة الحياة، وتســـهيل الحياة. وأما إذا حاول الفكر البشـــري أن يتحرك في مجال التشـــريع، فإنه يصاب بنكستين:

الأولى: أنه لا يتقن التشـــريع بحيث يســـتغني عن الســـماء، كما أنه لا يتقن التكوين بحيث يستغني عن السماء. فكما أنه أسلم ـ بعجزه ـ في مجال التكوين، وتفرغ لاستيعاب الكون، عليه أن يسلم ـ بعجزه ـ في مجال التشريع، ويتفرغ للتنفيذ. لأن هذين الأمرين، خارجان عن نطاق قدراته، غير أنه أسلم ـ بعجزه ـ عن التكوين، لأن فشـــله في هذا المجال بيّن، ولم يســـلم ـ بعجزه ـ عن التشريع، لأن فشله في هذا المجال غير بيّن.

الثانية: إن إكثار المجالات أمام الفكر البشـــري، وزجّه في المحاولات الصعبة التي لم يخلق لها، تربكه، وتورطه في أنانية يصعب الخلاص منها. فالإنســـان ـ إذا وقف عند حده ـ ينتج بلا رهق، وإذا حاول اجتياز حـــده، فإنه يرهق بـــلا إنتاج، ويهدر الكثير مـــن مواهبه، وطاقات الكون، في سلســـلة طويلة من التجارب الفاشلة.

فلا بد من إقامة الدين كياناً حراً مســـتقلاً لا يطال، كما لا يطال الإنســـان هكـــذا... اختلفوا حول: الحج، والجهـــاد، والأمر بالمعـــروف، والنهي عن المنكر، والولاء والبراء... وحول كل ما في الإســـلام من: عقيدة، وعبادة، ونظام... رغم أنهم عايشوا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ثلاثة وعشرين عاماً، والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يمارس الإسلام فيهم، ويأمرهم بأخذ مناسكهم وعباداتهم منه، وكتابه حديثه... ثم بعد ذلك كله، بعد أن عايشـــوا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ثلاثة وعشرين عاماً، اختلفوا: هل الرسول

(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يصلي متكتفاً أو مسبلاً؟ وهل كان يتوضأ مرسلاً أو منكوساً؟ وهل كان يأخذ الخمس من غنائم الحرب فقط، أو من أرباح المكاسب أيضاً؟

وحتى القرآن الذي هو دستورهم: رغم أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يرتله عليهم، ويحفظهم إياه، ويأمرهم بكتابته، ويتفاخر الكتبة وأتباعهم ـ إلى اليوم ـ بكتابة الوحي... حتى القرآن لم يحفظوه وإنما الله تعالى هو الذي تولى حفظه حيث قال:

(...إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ)(٢٣).

إن أمة عايشت نبيها ثلاثة وعشرين عاماً، عايشته وهو رسول مطارد، إلى أن أسس دولة استقر على قمتها، ليقيم معالم الحق والإنسانية، ثم لم تعرف هذه الأمة من نبيها شيئاً واحد تجمع عليه، ليست أمة لذلك النبي. وإن أمة لا تجد في دينها شيئاً إلا وتختلف عليه، حرام أن تنتمي إلى ذلك الدين.

لقد وجدوا الدين مادة رائحة رابحة، فاستغلوها: حكاماً، وعلماء، وأفراداً، وجماعات... وتاجر بها كل حسب ظروفه ومؤهلاته وحاجاته، وشوهوه تشويهاً لم ينج منه إلا آثار تصلح للذكرى، ولو لا حفظ الله القرآن، ولو لا استمرار النبي في الأئمة (عليه وعليهم السلام) لما كان الإسلام يختلف عن المسيحية، أو اليهودية، أو البوذية، وسائر الديانات... التي لم يبق منها إلا بمقدار ما يبقى الربيع في الخريف، وإلا بمقدار ما يحكي الرميم صاحبه.

مودة القربى

(...قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى...)(٢٤).

(قُلْ) يا محمّد! هذا القول، قرآناً نزل من عند الله، لا قولاً صادراً منك، حتى يمكن لغبيّ أو متغابي التشكيك فيه، بأنه قول صادر عن فورة عاطفية، مندفعة بالدوافع العائلية.

وثبتت كلمة: (قُلْ) لتثبت ؟أنه تشريع صادر من عند الله، الذي لم يرتبط بأحد ارتباطاً عائلياً أو عاطفياً، وإنما يصدر تشريعاته استناداً إلى الواقع المجرد، حسب تقييماته الدقيقة المجردة. فقل ـ يا محمّد!: (لا أَسْئَلُكُمْ) أيها المسلمون! (عَلَيْهِ): على جهدي الطويل المضني لتوجيهكم، (أَجْراً) مادياً أو معنوياً يرجع إليّ. وإنما أنا رسول، خدمت نفسي في كل ما فعلت لكم أو تحمل عنكم وعن غيركم، فليس لي أجر، ولن يكون لي أجر منكم ولا من غيركم. وإنما أجري الحقيقي على رسالتي، هو المزيد من التمسك برسالتي.

ولا يمكن المزيد من التمسك برسالتي، (إِلاَّ) بشيءٍ واحد فقط، هو: (الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى). فأقربائي: هم فروعي التي تجسدني، وأجري فيها، فأستمر من خلالها، فمودتكم لأقربائي مزيد من تمسككم برسالتي عبرهم:

١ـ فأقربائي: ولدوا مني، فهم أجزاء مني وبمثابة أعضائي، فهم روافدي الطبيعية فيكم، إنهم كأصابع يدي لا يمكن إلا أن يعبروا عني.

٢ـ أقربائي: فتحوا أعينهم على الحياة من خلال قسمات وجهي، ورنّت أصداء الحياة في عروقهم من خلال صوتي، وارتضعوا ألبان الحنان من قبلاتي، وعرفوا رحاب الحياة في أحضاني وعلى مناكبي. أنا ربيتهم على يدي وعلى عيني كما أريد، حتى لا يتحرك فيهم فكر غير فكري، ولا ينبض فيهم هاجس غير هاجسي. فأنا منهم، وهم مني. لا تطفئني ـ فيهم ـ سافيات الزمان، حتى يردوا علي الحوض. فمودتهم مودتي، ومودتي أتباعي، فمودتهم، هي المزيد من التمسك برسالتي.

٣ـ أقربائي: هم الأكثر استيعاباً لرسالتي، وأكثر انسجاماً مع سيرتي، فيستطيعون الاستمرار في: توسيع مفاهيمي، وتعميق رسالتي، فلا بد من دورهم، لإكمال نشر الإسلام في الذهنية العامة، وبيان الدورة الكاملة للعقائد والأحكام، التي لم أستطع بيانها. لأن دوري ـ كمؤسس ـ لم يكن يسمح لي إلا بتركيز الأسس العامة، وترك التفاصيل والتجارب والمحاورات لهمت كما فعلوا بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) بالفعل ـ .

٤ـ أقربائي: باعتبارهم أقرباء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ لا يجدون مبرراً لوجودهم إلا بإرساء رسالتي، ولا يعترفون بمفهوم للحياة إلا من خلالي لأنهم يجدونني وجودهم العام الذي لا بقاء لهم إلا في ظله، فلا تصعب عليهم التضحيات من أجل تمديد حياتي وحياة رسالتي، فهم وقف عليّ وعلي رسالتي من بعدي ـ ما كانوا بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) بالفعل ـ .

وهذه... خصائص لم تتوفر في غيرهم، فالآخرون ـ مهما حسن إسلامهم، وارتفعت درجته ـ لا يزيدون على كونهم مسلمين فحسب، لأن الآخرين ليسوا فصائلي، مثلهم، ولم يتلقوا تربيتهم الكاملة مني مثلهم، ولم يستوعبوا رسالتي مثلهم، ولم يرتبطوا بي وبرسالتي مثلهم، فلا يستطيعون القيام بدورهم، مهما كانوا... ومهما جهدوا...

(وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)(٢٥).

(وما كان)، ولا أمكن أن يكون بالماضي، ولا يمكن أن يكون بالمستقبل، ولا يمكن (لبشر) ـ مهما تعالت معنوياته، وتسامى عن جواذب الأرض، وارتفع على واقعه: (أن يكلمه الله) شفاهةً. فالله منزهٌ عن التركيبة البشرية، التي تؤدي إلى إيجاد الكلام، بضغط الحنجرة على الهواء وتقاطيع الفم، بالشكل المتداول لدى البشر في المقابلة. فلا يمكن أن يتلقى البشر كلام الله (إلا) بإحدى الطرق الثلاث:

١ـ (وحياً) وهو: وجود نوع خاص من اتصال الله ـ سبحانه وتعالى ـ بخلق من خلقه، يحدث ـ هذا الاتصال ـ في ذلك الخلق، حالة هي من ألمع وأذكى درجات الوعي الموجه إلى الله، بينما يتصور الآخرون أن الموحى إليه في حالة شبيهة بالغيبوبة. وهي حالة مرهقة جسدياً: فما كان الوحي ينزل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا ويتغير لونه، ويتصبب عرقاً، ويبدو في ذهول عن كل ما حوله، ويثقل جسده الشريف، حتى لو كان على ظهر دابة لعجزت عن السير. وهذه هي حالة الوحي، التي ما يتم فيها اتصال الهي، إلا ويجد ذلك الخلق الموحى إليه شيئاً معيناً في ذهنه. وذلك الشيء هو نتيجة الوحي: آيةً، أو تعليماً.

أما كيف يتم هذا الاتصال؟ فذلك ما لا نعرفه، ولا تعنينا معرفته.

وقد يكون من أنواع اتصال مولد الكهرباء بالمصباح، أو من نوع اتصال مصدر الإشارات اللاسلكية بمحطة الاستقبال، أو من نوع اتصال محطات البث الإذاعية بأجهزة الراديو... مع فارق: أن اتصال الله بخلقه ليس اتصالاً مادياً، كما نجده في هذه النظائر، وإنما هو اتصال المجرد بالمادة، وليس من اتصال المادة بالمادة.

والوحي لا يختص بالأنبياء، وإنما قد يتم الوحي إلى الملائكة، كما في قوله تعالى:

(إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ...)(٢٦)، وكما في بعض الحديث، من أن الله أوحى إلى جبرائيل، أو إلى ميكائيل، أو إلى غيرهما، بكذا... وكذا...

وقد يتم الوحي إلى غير الأنبياء من البشر، كأم موسى في قوله تعالى:

(وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى...)(٢٧).

وقد يتم الوحي إلى الحيوان، كالنحل في قول الله تعالى:

(وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ...)(٢٨).

وقد يكون الوحي إلى الجماد، كالسماء بقوله تعالى:

(فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها)(٢٩).

وقد يستفاد الوحي إلى السماء والأرض من قوله تعالى:

(...فَقالَ لَها وَلِلأَرْضِ: ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً، قالَتا: أَتَيْنا طائِعِينَ)(٣٠)، وقوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمانَةَ عَلَى: السَّماواتِ، وَالأَرْضِ، وَالْجِبالِ...)(٣١).

وقد يكون من غير الله، الشياطين في قوله تعالى:

(...وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ...)(٣٢).

فالوحي نوع من الاتصال المباشر بين مصدر اتصال ومحطة استقبال، ومصدر الاتصال يلزم أن يكون غيبياً حتى يطلق: (الوحي) على اتصاله. وذلك المصدر قد يكون كـ : (الله) ـ سبحانه وتعالى ـ ، وربما يكون مادياً كـ : (الملاك)، و: (الشيطان)، و: (الجن)، و: (الروح). ومحطة الاتصال ربما تكون غيبياً كـ : (الملاك)، و: (الشيطان)، و: (الجن)، و: (الروح). وقد تكون مادياً كـ : (النبي)، و: (البشر غير النبي)، و: (الحيوان)، و: (الجماد).

وأما حقيقة هذا الاتصال، فقد لا نستطيع هضمه بوضوح، وخاصة: إذا كان من المصدر المجرد ولكن قد يمكن تنظيره بنوع من الاتصال اللاسلكي، فالذي يستقبل الاتصال اللاسلكي، إنما يستقبل اتصالاً شخصياً ومباشراً، مع أنه لم تجر معه مقابلة.

ثم: إن الإنسان قد يتأثر بمصدر مجهول له، فتنفتح في ذهنه فكرة لم تتولد نتيجة إجراء عملية استنتاج، ولم تتوفر لديه أولياته، بينما قد يتهيأ لاستنتاج فكرة، ويستعرض كل مقدماتها، ويعتصر كل مولدات دماغه، فلا يرشح منها شيء. وربما يمضي الشاعر في سوق مزدحم، يعج بالباعة والزبائن، وهو يجهد

للتخلص من جوه، الذي يعكر الفكر والذوق، ويبلد المشـاعر، ثم يجد الكلمات الواعية، متراصفة في ذهنه، أبيات لا أروع، ونفس الشـاعر قد تغمره مناسـبة، تفرض عليه تظهيرها في قطعة شـعرية، فيخلي بمواهبـه، ويسـدد القلم على الورق، ويرقش به خطوطاً بلهاء لاسـتمالته، ويحـرك كل الصور والكلمات المختزنة في ذاكرته، ثم لا يفتح الله عليه حرفاً.

أليس ذلك؟! دليلاً على أن أجهزة الاسـتقبال في دماغ الإنسان، قد تلتقط موجة يتصورها موجة تائهة، ولكنـا إذا عرفنـا أن لا وجود لصدفة واحدة في الكون كله، نعلم: أنها موجة موجهة، من مصدر معين، إلى دماغ معين، نتيجة لعوامل وتفاعلات متوالدة دقيقة، لا نعرفها بالضبط، فنفسـرها صدفة، وليست صدفة، واعتقدها الجاهليون من كلام الجن(٣٣)، وليس كلام الجن.

فالفضـاء العميق، هائج بذبذبات الأمواج الواعية، التي يبثها الملائكة والشـياطين، ويبثها حتى البشـر والحيوان والنبات والجماد. ولكن أدمغة البشـر ليس منفتحة على هذه الأمواج، ولا قادرة على اسـتيعابها. وقد يصبح أحد الأدمغة مهيئاً لاسـتقبال إحدى هذه الأمواج، فيلتقطها بينما بقية الأدمغة منصرفة عنها، أو ليست مهيأة لاستقبالها.

وقد يمكن تنظير هذه الأمواج الإذاعية، التي هي منتشـرة حول الأرض، وليس كل جهاز (ترانزيسـتور) مهيئاً لاسـتقبالها. ويمكن تنظيرها في الماديات بالأمواج (الكهرطيسـية)، التي تبثها أدمغة البشر، واعتمد عليها (الأشراقيون) كأنجح وسيلة لتلقي العلوم، من (إرسطوطاليس) حتى بعد موته(٣٤).

وهذه... قد تكون من الإلهام.

٢ـ (أو) يتكلم الله مع البشـر (مِنْ وَراءِ حِجابٍ)، بأن يخلق الصوت منطلقاً من مصدر معين، كالشـجرة التي كلم الله بها موسـى (عليه السـلام)، وكحجب النور التي كلم الله من وراءها الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ليلة المعراج.

ارتباط الخالق بالمخلوق أيضا

(وما كان)، ولا يكون (لبشـر) ـ مهما ارتفعت إنسـانيته ـ (أن يكلمه الله) كلام المشافهة والمقابلة، كما يكلم بشرٌ بشراً. فذلك محال:

١ـ لأن البشر لا يستطع التكلم مع الله، فله ـ بمقتضى تركيبته البشرية ـ دائرة كمال معينة، فهو يستطيع

أن يتصاعد في الكمال حتى يبلغ قمته، ولكنه لا يستطيع أن يتجاوز قمته، وإلا لم يكن بشراً. كما أن للحيوان ـ بمقتضى تركيبته الحيوانية ـ دائرة كما ل معينة، فهو يستطيع أن يتصاعد في الكمال حتى يبلغ قمته، فيتعلم بعضاً من لغة وينفذ بعضاً من أوامره، ولكنه لا يستطيع أن يتجاوز قمته فيصبح إنساناً، وإلا لم يكن ـ في الأصل ـ حيواناً. وهكذا... الإنسان ـ مهما ارتفع ـ فإنه يرتفع في دائرة الإنسانية، ولا يصبح إلهاً. مع العلم: بأن الفارق بين الإنسان والإله أكثر من الفارق بين الحيوان والإنسان، لأن الحيوان والإنسان نوعان في مجال: (الممكن)، بينما الإنسان والإله ليسا نوعين في مجال واحد، وإنما كل منهما من مجال معين: فالإنسان من مجال: (الممكن)، والإله من مجال: (الواجب)، وإذا لزم المثال، فلا بد أن نقول: كما أن المستحيل لا يصبح: (ممكناً)، كذلك: (الممكن) لا يصبح: (واجباً). وكما أن: (المستحيل) لا يمكن أن يتعاطى مع: (الممكن)، كذلك: (الممكن) لا يمكن أن يتعاطى مع: (الواجب). وتكلم البشر مع الله ـ تكلماً حقيقياً ـ نوع من هذا التعاطي المستحيل بين: (الممكن)، و: (الواجب).

٢ـ لأن التكلم الشفهي ـ بمعناه المعتاد لدى البشر مستحيل بالنسبة إلى الله، فهو يحتاج.

(٤٣)

سورة الزخرف

مكية وهي تسعة وثمانون آية

التفسير المادي للحياة

(وَقالُوا :

لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ؟ !

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ؟ !

نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا .

وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) (٣٥) .

(وقالوا): الماديون الذين تصوروا أن (الاقتصاد) هو العامل الوحيد في تحريك الأحداث، وأن (عنصر المال) هو دينامو (الفعل) في الحياة، وأن بقية الحركات في الحياة هي(ردود الفعل).

قالــوا: إن (البرجوازيين) هم أصحاب الحظوة في الحياة، لأن بأيديهم الطاقة المحركة التي تتولد بفعلها وبــردود فعلها كل مجريات الحيــاة، فـ(لَوْ لا نُزِّلَ هذا الْقُرْآنُ) الذي هو عنصر (فعل) في الحياة (عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ): مكة والطائف (عَظِيمٍ) له مال كثير؟!

كيــف لم ينزل الوحــي على أكبر المثرين في مكة أو في الطائف: هاتيــن المدينتين اللتين كانتا مركزي التجــارة فــي الحجاز، ونزل على رجل لا يملك المال، ولم ينحدر من أســرة برجوازية؟!... فكان الســؤال تكريساً لفلسفة (الاشتراكية)، و(التفسير المادي) للحياة، من جانبتها الإيجابي.

فكان الجواب، رداً على التفسير المادي وفلسفة الاشتراكية:

(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ) يا محمّد؟!

إنهم يســتطيعون التصرف في حركة المال، وعنصر المال ليس دينامو (الفعل) في الحياة، وليســت بقية الحركات (ردود الفعل) في الحياة.

بل العكس من ذلك تماماً، فهنالك ثلاثة عناصر تحرك الحياة:

١ـ عنصر المال.

٢ـ عنصر الإمكانة: المعيشة.

٣ـ عنصر التوجيه: الرحمة: رحمة ربك.

وعنصر المال أضعف العناصر الثلاثــة: فالمال يتحرك بقدرة الإمكانية، والمال والإمكانة يتحركان بقدرة التوجيه.

ذلك: أن عنصر المال يحرك الماديات، فتباع به وتشترى الضروريات، والكماليات المعيشية.

أما الإمكانات الفردية، فإنها لا تعرض بالمال: فرب غني ضحل الإمكانات، ورب فقير وفر الإمكانات. ولكن صاحب الإمكانات، إذا حاول المال كسب الكثير منه. فالمال مسخر للإمكانة.

كما أن رحمة الله: (الوحي) تنزل على القلوب الشـامخة المتفتحة، ولا يمكن كسب تلك القلوب بالمال ولا بالإمكانات البشـرية. ولكن رحمة الله (الوحي): التوجيه السـماوي، يولد الإمكانات المعجزة، ويحرك أصحاب المال وأصحاب الإمكانات. فالمال والإمكانة مسـخران للرحمـة: (الوحي)، كما كان الأنبياء ـ ولا زالوا ـ يحركون أصحاب المال والإمكانة.

والمعيشة: ليست المال، وإنما المال وسيلة لتعاطي المعيشة.

فهي كل ما يعاش به: فالنبات معيشـة، والحيوانات ـ التي يعيش عليها الإنسـان بلحومها وأصوافها... ـ معيشة، والطب معيشة، والهندسة والقضاء معيشة...

والمعيشة ـ التي هي دون الرحمة ـ لا دخل للناس في تقسيمها، فالله تعالى هو الذي يقسمها بين الناس.

وقد وزعها الله تعالى بشكل يحرك الحياة: فلم يهب كل الإمكانات لفرد، ولم يحرم منها فرداً. فلكل فرد إمكانة من هذه الإمكانيات حتى يسخر بها غيره، ولغيره إمكانيات يخسر الآخرين بها:

فالطبيب ـ في طبه ـ سيد مطاع يسخر غيره، فالناس ـ عندما يحتاجون إلى الطب ـ يسعون إلى الطبيب، فيأمرهم، وهم ينفذون أوامره بلا نقاش.

والطبيب ـ نفسـه ـ إذا احتاج إلى بناءِ بيت أو تأسـيس معمل، يسـعى إلى المهندس، فيأمره المهندس، ويطيعه بلا نقاش.

والطبيب والمهندس إذا اختلفا، يسعون إلى القاضي، فيأمرهما، وهما يطيعانه بلا نقاش.

والطبيب والمهندس والقاضي، إذا احتاجوا إلى الزراعة، يسـعون إلـى الخبير الزراعي، فيأمرهم، وهم يطيعونه بلا نقاش.

وهكذا... كل صاحب اختصاص، في حقل اختصاصه سـيد مطاع يسـخّر غيره، وهو ـ بدوره ـ مسـخر لأصحاب الاختصاص الآخرين.

فالمجتمع ليس دائرة قطبها المال.

وإنمـــا المجتمع مجموعة أفراد وإمكانات: كل فـــرد ـ في حقل إمكانية ـ قطب لغيره، وغيره ـ في حقول سائر الإمكانيات ـ أقطاب له.

فالمجتمع كرة متحركة، كل جزء منها قمة ومركز.

فكل فرد ســـيد ومســـود. وبالنظرة الجماعية: لا فضل لأحد على أحد فكل فرد لا يستغني عنه المجتمع، ولا يستغني هو عن المجتمع.

وهكذا... لا يعيش فرد على حساب الآخرين ـ بمقتضى أصل الإمكانات، وإن كان قد يعيش على حساب الآخرين بمقتضى سوء التصرف بتلك الإمكانات ـ .

(نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ) بمقياس جماعي دقيق، يحوج كل فرد إلى الآخرين، ويســـخر كل فرد للآخرين، (لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا)، فلا يستعلي فرد، ولا يذوب فرد. ويوجد المجتمع المنتشر الموحد، من أفراد مختلفي الإمكانات، ومتعاوني الحاجات.

وإذا كان الناس لا يســـتطيعون ـ بالمال ـ أن يكرسوا الإمكانات البشرية في صاحب المال، فكيف يريدون أن يكرســـوا رحمة الله: (الوحي) في صاحب المال، مع أن رحمة الله فوق المال في التأثير، والمال دونها في التأثير؟ (بل الفاصل ـ في الرتبة ـ بين المال والرحمة كثير): فالمال خارج للإنسان، والإنسان يجمعه ويفرقه. والإنسان مسخرة للمعيشة الإمكانية، والإمكانية مخسرة للتوجيه: الرحمة.

ورحمة ربك خير مما يجمعون فكيف يريدون أن يكون المال مقياس الخطوة عند الله؟!

ففلسفة (التقصير المادي) للحياة يصي؟؟ ببعد عن الواقع الحياتي.

الزهد

(وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً، لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ، لِبُيُوتِهِمْ:

سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ،

وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ .

وَلِبُيُوتِهِمْ :

أَبْواباً ،

وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ .

وَزُخْرُفاً .

وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) (٣٦) .

أصحاب النفوس الكبار يزهدون في كل شيء من الحياة، ويزهدون حتى في الحياة ذاتها، زهداً عفوياً لا تكلف فيه على الإطلاق: للأسباب التالية:

١ـ أن كل إنسان يحب إثبات وجوده، واستمراره ـ بشكل من الأشكال ـ في الخلود، ولو بقدر شيء مفطور عليه الإنسان: فالتافهون يحاولون إثبات ذاتهم، واستمرارها، من خلال التمسك بالحياة ومباهجها. وأما العظماء فهم يعرفون الطرق الفضلى لإثبات ذاتهم واستمرارها من خلال التمسك بتلك الطرق، فيحدث عندهم نوع رفيع من الانصراف عن الحياة وتفاصيلها.

٣ـ إن الشعور بالنقص يدفع صاحبه إلى محاولة إزالته، أو إنكاره، بما هو خارج عن الإنسان ذاته، من: التنوع في الطعام، والشراب، والملبس، والمسكن... وتحشيد أكبر قسط ممن من مظاهر الحياة حوله. وأما الذين لا يعانون من مركب النقص، فإنهم لا يشعرون بالحاجة إلى المظاهر الحياتية حولهم، وإنما تعنيهم تحشيد مواد الحياة في داخلهم.

٤ـ إن كثيراً من الترف، والإفراط في التزين والتجمل، لا يكون من حب الحياة ـ فالكفاية سهلة لا تبلغ الترف ـ ، وإنما يكون إعلامياً لإلفات الأنظار. وأما العظماء الذين يجدون ما هو أقوى إعلامياً، فلا يهتمون بالكماليات لاستجداء اهتمام الآخرين. بل قد يجد بعضهم في الزهد مادة شديدة الإلفات. فالبساطة في العظيم، أشد إلفاتاً من الترف في التافه. ولعل بعضهم لذلك ـ أو لكل ذلك ـ يزهدون.

(٤٤)

سورة الدخان

مكية وهي تسعة وخمسون آية

(٤٥)

سورة الجاثية

مكية وهي سبعة وثلاثون آية

الرفق بالسواد الأعظم

(قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ: (أَيَّامَ اللهِ). لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ:

مَنْ عَمِلَ صالِحاً، فَلِنَفْسِهِ.

وَمَنْ أَساءَ، فَعَلَيْها.

ثُمَّ: إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) (٣٧).

(يَغْفِـرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ) يغفروا لهم: غفران العالـم المترصد للجاهل المتعند، الذي لا يلقي السـمع والبصر إلا في الاتجاه السـائر فيه، ولا يريد أن يحرك دماغه لمطالعـة وضعه الخاص من مختلف جوانبه ـ ربما تؤدي به إلى تغيير موقفه. وإنما راكب رأسه. وضارب في الخط الذي وجد نفسه عليه.

(٤٦)

سورة الأحقاق

مكية وهي خمسة وثلاثون آية

الصبر التاريخي الكبير

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ . . .﴾(٣٨).

عفوية مزاج الإنسان، تدفعه إلى الضرب في كل اتجاه، خلف المغريات. كما أن عفوية مزاج الكون، تدفعه إلى: الزلازل، والبراكين، والصواعق، والفيضانات، والأوباء... فتقنين طاقات الإنسان، يشبه تدجين طاقات الكون. فهو يعني تحديد فضولها، لإخضاعها للسير في مسلكية معينة، تشبه تمرير الطاقة الكونية في قناة معينة. ولا يتم ذلك، إلا باعتراكها والتسلط عليها: فالقدرة الموجهة، التي تتولى تقنين طاقات الإنسان، عليها أن تعاني التمردات وردود الفعل، وتقديم التضحيات بسخاءٍ، حتى تتسلط عليها فتقننها. كما أن القدرة المخترعة، التي تتولى تدجين طاقات الكون، عليها أن تعاني الانفجارات وثأر التجربة، وتقدم التضحيات بسخاءٍ، حتى تتسلط عليها فتدجنها.

فكل كلمة حق، محاولة للتسلط على طاقة بشرية هائجة، لتذليلها وفق مقياس معين. وتلك الطاقة لا بد أن تقاوم بقدرها، وعلى مصدر كلمة الحق أن تعركها حتى تتسلط عليها. وكل عراك يصدم الجانبين معاً، وإن كانت خسارة الجانب المنتصر أقل في أكثر الأحيان، إلا أنه يخسر شيئاً، فلا يمكنه الخروج من المعترك بلا خسارة، حتى ولو كان مسلحاً بالأدوات المناسبة للمعركة.

وإذا كان الحق هو التحدي مع الرغبات التي هي أعنف ما في البشر، فبمقدار ما يكبر الحق تتسع الجبهة وتعنف المواجهة، وبمقدار ما يستمر الحق يتواصل الصراع وتتوال التضحيات. فعلى صاحب الحق التاريخي الكير، أن يتحلى بالصبر التاريخي الكبير، حتى ينتصر، ولا ينهار بالصدمات الأولية من ردود الفعل، وإلا يفشل قبل أن تتبرعم جهوده. فالانتصار ليس وليد الضربة القاضية بمقدار ما هو وليد الصبر الطويل، لأن الضربة القاضية وإن بدت ـ على المسرح ـ حركة لا تستهلك إلا ثوان من الزمان، إلا أنها هي نتيجة جهود مضنية ـ طوال سنين ـ بعيدة عن الأضواء. ومن هنا كان الظفر حليف الصبر.

(فَاصْبِــرْ) أنت يا محمّد! لا صبر الأوليــاء والمصلحين، ولا صبر الأنبياء العاديين، وإنما صبراً بحجم رسالتك، صبراً (كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) وأصحاب الإرادات التي ترفض الحدود (من الرسل)، حتى تنجح رسالتك، فإن حجم النجاح يقدر بحكم الصبر الذي يسبقه ويعدله.

الصبر التاريخي الكبير أيضا

(فَاصْبِرْ) يا محمّد! صبراً عظيماً. لا كصبر ســائر الناس، ولا كصبر العظماء، ولا كصبر سائر الأنبياء. بل أصبر (كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ) الأربعة القمم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى (عليهم السلام) (مِنَ الرُّسُلِ). فهذا الصبر العظيم، الذي تضيق به صدود الناس، الكبار والصغار على حد سواء، هو الصبر الذي يقود إلى الأهداف الكبار، وهي أهداف أولى العزم، الذين يتحملون مسؤولية البشرية طوال أجيال.

(٤٧)

سورة محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)

مدنية وهي ثمانية وثلاثون آية

تضحية الكبار من أجل الصغار

(. . .الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ:

فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ

سَيَهْدِيهِمْ،

وَيُصْلِحُ بالَهُمْ

وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ) (٣٩).

-١-

هل يوجد معنى لتضحية الكبار من أجل الصغار؟

يقول: المسيح النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ضحى للمخطئين، الإمام الحسين (عليه السلام) ضحى ليتفدي العصاة من أمة جده...

هل المسيح كان يحترم المخطئين حتى يضحي لهم؟!

وهل الحسين (عليه السلام) كان يحترم العصاة من أمة جده حتى يضحي لهم؟! وهل قتل إلا بأدي العصاة من أمة جده؟! أو ليس هذا يساوي: أن الحسين (عليه السلام) ضحى لمن قتلوه، وسبوا نساءه؟!

كل الأنبياء... والأوصياء... والمصلحين... ضحوا في سبيل القضاء على العصاة... والخاطئين... فكيف يمكن أن يقال انهم ضحوا لهم؟!

إن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) يعلن معادل، نستطيع أن نقرأها خلف كلمات كل المضحين الكار. فيضع الإمام مصلحته الحقيقية في كفة، ويضع المصلحة العامة للأمة الإسلامية ـ بأسرها ـ في كفة، ثم يتخذ قراره الواضح الصريح، بأنه لو تأرجحت الكفتان، فإنه لا يتردد في ترجيح الكفة التي تمثل مصلحته الخاصة، فيقول: (وإني لعالم بما يصلحكم... ولكني لا أرى إصلاحهم بإفساد نفسي)(٤٠).

فالإمام يستطيع أن يؤمن الأمن والاستقرار... والقيادة الرشيدة... للأمة الإسلامية، ويزيح ظلام الحكام الطواغيت عن الأفق الإسلامي، إذا لم يستبد بالعدل الصارم، ورضي أن يساوم ـ بعض الشيء ـ على حقوق الضعفاء، يشتري بها الأقوياء، ويدرأ بها عن الأمة كيدهم... وبأسهم... ولكن هذا يعني انحراف الإمام بعض الشيء، والإمام يفضل أن يجتاح الأقوياء أمة بأسرها، ويربكوا مفاهيم السماء، ولا يرضى بأن ينحرف ـ هو قليلاً، حتى ولو كان انحرافه في سبيل إنقاذ الأمة من طواغيتها، وإنقاذ الطواغيت من شرور أنفسهم.

وكما لا يقبل الإمام أن يجير آخرته لأمته، هكذا... لا يرضى الإمام أن يجير دنياه، لأمته، فلا يضحي بحياته في سبيل أحد.

والإمام الذي منع الناس أن يضحوا بشيء من جهدهم... أو وقتهم... في سبيله، فردهم عندما تظاهروا

لتأييـــده، وإعادتهم إلـــى بيوتهم حينما خرجوا لحراســـته ـ وهو يعرف: من هو؟ ومـــن هم؟ وماذا تعني تضحيتهم في سبيله؟ ـ كيف يضحي بحياته... أو جهده... أو وقته... في سبيل الآخرين؟!

إن مـــن أكبـــر الأخطاء العامة، تصـــور تضحية الكبار من أجـــل الصغار. وأكبر من هـــذا الخطأ، تصور تضحية المعصومين الكبار في سبيل المجرمين الصغار، كتضحية الأنبياء... والأوصياء... في سبيل العصاة... والمخطئين...

وهل يصح التضحية بالكثير في سبيل القليل؟!

وهـــل الله ـ تبـــارك وتعالى ـ يقر تضحية صفوته من الخلق في ســـبيل التافهين منهم، فكيف بالمجرمين الذين أمربمحاربتهم في الدنيا... وعذابهم في الآخرة...؟!

وهل أنت تضحي بحبّة الماس في ســـبيل حبّة رمل؟! أو تقرّ التضحية بابنك الوحيد في ســـبيل حشـــرة سامة؟!

إذن: لماذا ضحى الكبار... الكبار... الذي كانوا يستوعبون واقعهم، وواقع الآخرين ـ بلا ترجرج ـ ، والذين كانوا متصلين بالسماء؟

يمكن تفسير تضحياتهم بما يلي:

١ـ إنهم ما كانوا يضحون بشيء، وإنما كانوا يقومون بممارسة الذات:

فالشمس حينما تضيء، لا تضحي بذاتها لتربية الكائنات التي في محيط شعاعها، وإنما تمارس ذاتها.

والسحاب حينما يمطر، لا يضحي بذاته ليخصب التراب، وإنما يمارس ذاته.

والأرض عندما تتنفس الربيع، والوردة عندما تنضح العبير، والبلبل عندما يغرد، والنسيم عندما يفحص البيادر... ليس شيء من ذلك يضحي، وإنما يمارس ذاته.

وأنـــا عندما ترجل شـــعرك، وتحدب على حديقتك، وتنســـق مكتبك، وتقبل ابنـــك، وترتب مائدتك، وتتبســـم للثلوج التي تكفن الجبال.... والوديـــان... بالخريف، وتضحك للنكتـــة المرحة، وتبكي لموت

صديق، وتصفق للكلمة العادلة، وتنظم الشعر، وتكافح عدوك... لا تضحي، وإنما تمارس ذاتك.

هكذا... الأنبياء والمصلحون حينما يضحون، فإنهم لا يحاولون أن يخسروا الحياة أنبيائها للتوفير على طفيلياتها، ولا يريدون التصدق على أحد، وإنما يمارسون ذواتهم، المجبولة على الخير، فيطفح منهم الحق... والخير... كما يطفح المنبع الثر بالنمير.

أ رأيت العقل الذي يستوعب كل شيء، ويصرح بكل شيء، ولكن لا يجد ـ في الأرض ـ من يستقبل شعوره، فيتجه بمشاعره إلى السماء مناجياً:

(إلهي! ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك)(٤١)، إنه يخاف من النار، ويطمح في الجنة؟! ولكنه لا يعبد الله طمعاً في هذه... أو خوفاً من تلك... وإنما يعبر عن هويته ـ بعفوية بالغة ـ حينما يعبد الله. كما يعبر عن ذاته حينما يحترم العبقرية، ويتحنن على اليتيم، ويشجع الحق، ويكافح الباطل.

وهو ـ كذلك ـ يمارس الذات، عندما يشهر السيف للدفاع عن المظلومين بلا هوادة... وللقضاء على الظالمين بلا رحمة...

ولأنه يمارس ذاته، لا يبالي: إن وقع على الموت، أو وقع الموت عليه.

ولأنه يمارس ذاته، فهو شجاع، لو تظافرت العرب على قتاله لما ولى عنها.

ولأنه يمارس ذاته، لا يستقبل خلافة المسلمين بكذبة وقتية.

ولأنه يمارس ذاته، لا تختلف عنده إمارة المسلمين عن خصف نعله.

ولأنه يمارس ذاته، لا تنفصل لديه الصلاة لله عن التصدق على الفقير.

ولأنه يمارس ذاته، لا يغريه شيء... ولا يرهبه شيء...

وأنت عندما ترعى حديقتك، فتشذب الشجر من العناصر الميتة، وتنقذ طاقة وردة، من المتسلقات، وتكافح الأشواك المستغلة للمناخ الملائم... قد تهدر عطلة أسبوعك في حديقتك، ولا تبالي إذا ثأرت

منك الأشـــواك فجرحت يديك ورجليك... وقد لا تثمن الحديقة بساعة من وقتك، وربما لا تبيع قطرة من دمـــك بكل ما يمكن أن تقدم لك الحديقة من ورود وثمار... ولكنك تفعل ذلك كله، لأنك تمارس ذاتك من خلالها.

وأنـــت قد ترى طفلاً يعتـــرض آلية متحركة، فتقفز لإنقاذه من عجلاتهـــا، وربما دون أن تفكر في ذيول الحادث... وقد ترى رجلاً يشـــهر سلاحه إلى بريء، فتمســـك بيد المجرم، وربما مع العلم بأنك ستتعرض للكماته وكلماته الحاقدة... وقد ترى مســـكيناً يقاســـي، فتجود عليه ببعض مـــا تملك، وربما مع الترحيب بملامسة قريب أو صديق...

مع أن حصتك من نزعة الخير محدودة. فإذا ارتفعت حصتك من نزعة الخير حتى استوعبت كل نشاطاتك، فســـتنطلق ـ بكلك... وبأقصى طاقاتك... ـ لتحقيق الخير، ولو تعرضت لأبشع أنواع التقريع، ولأفظع ألوان التنكيل... لا بحثاً عن مكسب مادي أو معنوي، وإنما انسجاماً مع المحركات الفاعلة في داخلك. تماماً... كما تمارس سائر الغرائز المتحركة في داخلك... تماماً... كما تمارس غرائز: الطعام، والشراب، والنوم، والجنس، والسكن، والكساء، وسائر الضرورات... والكمالات...

هكـــذا... الأنبياء والأوصياء، كانوا يؤدون عملية ممارســـة الذات من خلال تضحياتهم، كما كانوا يقومون بممارسة الذات في عباداتهم... ومعطياتهم... دون أن يفرقوا بين: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وتمكين الحق، وتعليم الجاهل، وتتبيب الأمن، وقتال أعداء الإنســـانية، والتعاطف مع الأرملة، وتزويد اليتيم بشحنة روحية تمده للتغلب على مشـــاكل الحياة... ودون أن يفرقوا بين العمل الكبير والعمل الصغير. وبين العطاء الوقتي والعطاء المستمر... طالما المنطلق للجميع واحد، وهو: ممارسة الذات، التي لا مفهوم معها للتضحية.

٢ـ إنهم كانوا مقتنعين إلى درجة (حق اليقين) ـ وهو: الوجدان الكامل ـ بالحقائق التالية:

إن الدنيا (بكل أبعادها... وعقدها...) مجال مناسب لتمرين الإنسان، وتفتيح طاقاته، إعداداً للآخرة فقط.

إن جســـم الإنسان مركب مناســـب، لنقل الإنســـان من (عالم الذرّ) إلى (عالم البرزخ)، عبر الدنيا. ليس أكثر.

إن حقيقة الإنســـان، روحه. وروحه، قابل للتقوية... والتوسيع... بشـــكل سريع... ومتين... حتى تضيق به رحاب الدنيا، كما هو قابل للتضييق... والتحجيم... حتى ترهقه كلمة... أو نظرة.

إن أعمال الخير هي الوسائل المناسبة لتقوية الروح... وتوسيعه... وإن أعمال الشر هي: الوسائل المناسبة لتضعيف الروح... وتحجيمه...

والقناعة بهذه الحقائق الأربع، كانت تدفعهم إلى ممارسة أعمال الخير... وإلى مجانبة أعمال الشر... حتى يؤهلوا للآخرة تماماً كالرياضي الذي يمارس التمارين القاسية ـ باندفاع ـ وبجانب الأشياء المضرة بالصحة ـ بقوة ـ حتى يؤهل للحلبة.

تماماً... كالطالب الذي يتلقى الدروس الصعبة ـ بانتباه ـ ، ويضن بنفسه على المسليات ـ بجد ـ ، حتى يؤهل لشهادة تؤمن مستقبله.

ولعل هذه القناعة، هي التي كانت تدفعهم إلى استهلاك كامل نشاطاتهم لتحقيق أكبر قدر من الخير، غير مبالين بالنتائج المترتبة عليه.

ولعل هذه القناعة ـ ذاتها ـ هي التي كانت وراء إكثارهم من العبادات، بشكل يبدو ـ في معادلاتنا ـ أكثر مما ينبغي.

وإذا صح: إنهم كانوا ينطلقون من هذه القناعة في أعمالهم ـ ولعله صحيح ـ ، فمن الواضح: أنهم ما كانوا يتحركون من منطق التضحية.

٣ـ إنهم (جميعاً) كانوا مؤمنين بالله... وبكلماته... إيماناً بالمعادلات المحسوسة، التي نؤسس عليها تصرفاتنا اليومية. وهذا الإيمان الواضح الشامل، الذي لا غموض فيه ولا قصور، كافٍ لتركيز كامل نشاطاتهم في اتجاه التعامل مع الله ـ تبارك وتعالى ـ .

ولعل الأحاديث الواردة في أبواب (ثواب الأعمال) و(عقاب الأعمال) تحاول مثل هذا التركيز.

فإذا آمن الفرد ـ إيمانه بمعادلاته الحياتية ـ بأنه لو (قال ـ حين يأوي إلى فراشه: (لا إله إلا الله) ـ مائة مرة ـ بنى الله له بيتاً في الجنة)(٤٢)، ولو (دخل الحمام، فغض طرفه عن النظر إلى عورة أخيه، آمنة الله من الحميم يوم القيامة)(٤٣)، ولو (أتمَّ ركوعه، لم تدخله وحشة في قبره)(٤٤)، ولو (سجد سجدة: حط عنه بها خطيئة، ورفع لها بها درجة)(٤٥)، و ـ أخيراً ـ لو (أسبغ وضوءه)، وأحسن صلاته وأدى زكاة ماله، وكف غضبه، وسجن لسانه، واستغفر لذنبه، وأدى النصيحة لأهل بيت نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم): فقد استكمل حقائق الإيمان، وأبواب الجنة مفتحة له(٤٦).

وإذا آمــن ـ إيمانــه بالعقوبــات القانونية ـ بأنه لو (تهــاون بأمر الله، أهانه الله يــوم القيامة)(٤٧)، ولو (تعصب، حشــره الله ـ يوم القيامة ـ مع أعراب الجاهلية(٤٨)، ولو (أذنب ذنباً هو ضاحك، دخل النار وهو باك)(٤٩). ولو (حبس حق المؤمن، أقامه الله ـ يوم القيامة ـ خمسمائة عام على رجليه حتى يسيل من عرقه أوديــة، وينــادي منادٍ من عند الله: هذا الظالم، الذي حبس عن المؤمن حقه. فيوبخ أربعين يوماً، ثم: يؤمر به إلــى النار)(٥٠)، و ـ أخيراً ـ (لو أن عبداً عبد الله، مائة مرة، بين الركن والمقام، يصوم النهار، ويقوم الليل ـ حتى يسقط حاجباه على عينيه، وتلتقي تراقيه هرماً، جاهلاً لحقنا، لم يكن له ثواب)(٥١).

فلا شــك:أن مثل هذا الفرد، ســيوظف كل نبضة من نبضات فكره، وكل لحظة من لحظات وقته، وكل عصب من أعصاب جسمه... في أعمال الخير، مهما كانت الظروف. وسيتهرب من أعمال الشر، مهما ألحت المغريات.

وإذا صــح: إنهــم كانوا ينزعون من هــذا الإيمان في أعمالهم ـ ولعله صحيــح ـ فمعنى ذلك: أنهم كانوا يتعاملــون مع الله. ومعنى تعاملهم مع الله: أنهم ـ فــي كل ما كانوا يعملون... ويبذلون... ـ كانوا يعطون أقل، ويأخذون أكثر. والذي يعطي أقل ويأخذ أكثر، لا يضحي بشيء.

وإذا صح ـ ولعله صحيح: أن الأنبياء... والأوصياء... (الذين كانوا يســتوعبون جميع شــؤون الإنســان في الدنيــا والآخرة، بدقة... ووضوح...) كانوا ينطلقون من إحدى هذه المنطلقات، أو منها جميعاً، فهم ما كانوا يضحون ـ بالمفهوم الشائع للتضحية ـ وإنما كانوا يضحون بمعنى: أنهم كانوا يبذلون كل طاقاتهم... وحتى دماءهم... دون أن يريدوا من الناس جزاءً... أو شكوراً.

والذين يسيرون في خط الأنبياء... والأوصياء... قد يتصورون: أنهم يضحون بشيء من طاقاتهم منطلقاتهم أو دماءهم، لأنهم لا يســتوعبون شــؤون الإنســان في الدنيا والآخرة بدقة ووضوح. وإذا اســتوعبوها ـ كما استوعبها الأنبياء... والأوصياء... ـ لظهر لهم: أنهم لا يضحون، وإنما ينطلقون من: منطلق ممارسة الذات، أو منطلق التهيؤ للآخرة، أو منطلق التعامل مع الله. أو من كل هذه المنطلقات معاً: فيمارسون الذات، ويتهيأون للآخرة، ويتعاملون مع الله.

ـ ٢ ـ

ومن الخطأ الفاضح: تضحية الصغار في ســبيل الكبار، فتضحية الإنســان في سبيل الإنسان غير وارد،

(٤٨)

سورة الفتح

مدنية هي تسعة وعشرون آية

ملاحظات على صلح الحديبية

(لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ. فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ، وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً)(٥٢).

عندما قبل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ في وثيقة الصلح ـ أن يرد إلى المشركين من التحق به، لم يكن ذلك رفضاً لمن آمن بقلبه ولسانه، وهاجر إلى الله ورسوله، وإنما كان لـ:

١ـ وضع حدّ للمنافقين، الذين جعلوا يزحفون إلى صفوف المسلمين، طمعاً في المستقبل.

أ ـ ترشيحاً للمسلمين الجدد، أن يشكلوا جبهة داخلية لاستنزاف المشركين، حتى يتنفس المسلمون، ويأخذ الإسلام مداه، ويتأصل في النفوس. كما أشار إلى ذلك بقوله: (ويل أمه! مسعر حرب لو كان له رجال)(٥٣). وهذا... ما حدث بالفعل، لأن الرسول كان واثقاً من دينامية الإسلام، وأن هذا الشرط لا يمنع أحداً من الدخول في الإسلام.

ويدل على الهدف: أنه لم يكن يقبل آية واحدة من المهاجرات إلا بعد امتحانها، والتأكد من أن إسلامها لم يكن طمعاً في زوج أو أرض... وإنما كان إسلامها إيماناً، وهجرتها إلى الله ورسوله:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)(٥٤). وكان يرد الرجال إذا أسلموا، ولم يكن يرد النساء إذا أسلمن، لـ:

أـ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد بإرجاع الرجال، أن يعملوا لإثارة (حرب استنزاف داخلية). والمرأة لا تصلح لذلك.

ب ـ المشـركون كانوا يهتمون باسترجاع الرجال، وأما النسـاء فكانوا يعاملونهن كالحيوانات التي تقدر بقيمتها. فلما امتنع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن إرجاع النساء، ودفع أجورهن، وافق المشركون، وما اعتبروه نقضاً لوثيقة الصلح من قبل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم). بينما المرأة ـ في منطق الرسول ـ إنسانة، إسلامها محترم كإسلام الرجال، ويلزم الدفاع عنه.

ج ـ المـرأة ـ مهما كانت ـ مقهورة بالرجل، وإبقاؤها تحت سـلطة مشـرك يعنـي: تعريضها للاضطهاد الدائم، وتعريض إسلامها أيضاً.

الاستخدام البليغ

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ، وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ. ، مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ. وَكَانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً)(٥٥) .

اسـتخدام كلمة: (بطن) بليغ للغاية، فكأن الآية تصور: أن المسلمين والمشركين كانوا كالتوائم في بطن واحد، حيث يكون التماس الإجباري الدائم، ولكن الله ـ تعالى ـ كف بعضهم عن بعض، مع شدة التوترات، والتهاب الموقف في الجانبين.

اختلاط العناصر الخيِّرة والشريرة

(هُمُ الَّذِينَ :

كَفَرُوا ،

وَصَدُّوكُمْ عَنِ : الْمَسْجِدِ الْحَرامِ، وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ .

وَلَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ ، أَنْ تَطَؤُهُمْ ، فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ .

لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ .

لَوْ تَزَيَّلُوا ، لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا .مِنْهُمْ.عَذاباً أَلِيماً)(٥٦)

مناسبة المنتج والنتيجة من الضروريات، لأن النتيجة ليست إلا نماء المنتج، ولا يمكن عدم التناسب بين النامي ونمائه، لأن النماء ليس أكثر من توسع النامي ذاته.

والتحرك الصالح ـ من: الانقياد، والعدل، والإنصاف، والصدق... وكل أعمال الخير، التي ذروتها الإيمان بالله ـ لا يمكن أن يصدر إلا من عنصر الخير.

والتحرك الفاسد ـ من: التمرد، والظلم، والاستئثار، والكذب... وكل أعمال الشر، التي ذروتها الشرك ـ لا يمكن أن يصدر إلا من عنصر الشر.

ومن هنا: يمكن الاستدلال على أن المؤمنين مؤلفون من عناصر الخير، بدليل تحركهم الصالح وهو الإيمان. وأن المشركين مؤلفون من عناصر الشر، بدليل تحركهم الفاسد وهو الشرك.

فإذا وجدنا عمل الشر صادراً عن المؤمنين، فلا يصح إسناده إليهم، لأن الشر لا يمكن أن يصدر من عناصر الخير، بل علينا أن نبحث عن مصدر.وإذا وجدنا عمل الخير صادراً من غير المؤمنين، فلا يصح إسناده إليهم، لأن الخير لا يمكن أن يصدر من عناصر الشر، بل علينا أن نبحث عن مصدره.

وحينما نبحث عن مصدر الشر في تاريخ المؤمنين، وعن مصدر الخير في تاريخ غيرهم، نجد: أن تغلغلهم ـ جميعاً في الأصلاب والأرحام المختلفة، منذ الإنسان الأول وحتى ظهورهم في حيز الوجود، أدى إلى تلاقحات كثيرة، من شأنها أن تخلطهم خلطاً لا يكان معه تمييزهم عن بعضهم، لو لا عمليات الإفراز الكونية الدائبة، التي تعيد كل شيء إلى مصدره.

ومن خلال هذه التلاقحات، علقت عناصر شريرة من غير المؤمنين بالمؤمنين، وتلك العناصر العالقة ـ غير الأصيلة ـ أدت إلى ظهور السيئات من المؤمنين، وهي غريبة عنهم، بدليل إسراع الندم إليهم غِبَّها، وإسراعهم إلى التوبة، والبراءة عنها:

(وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، ذَكَرُوا اللهَ، فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ـ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ؟! ـ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)(٥٧)، مما يكشف عن عدم أصالة الذنوب فيهم، فنسب هذه السيئات يرجع إلى عناصر غير المؤمنين التي علقت بهم.

كمـــا أن عناصر خيّرة من المؤمنين علقت بغير المؤمنين، وتلك العناصر العالقة ـ غير الأصلية ـ أدت إلى ظهور الحســـنات منهم، وهي غريبة عليهم، بدليل إســـراع الندم إليها غِبَّها، وإســـراعهم إلى حبطها. وعندمـــا (تبلى الســـرائر)، وترجع العناصر إلى مصادرها، تلحق العناصر الشـــريرة ـ مـــع ما أدت إليها من الســـيئات ـ بغير المؤمنين، لأنها منهم في الأســـاس، وإن علقت بغيرهم فـــي مرحلة من المراحل، وتلحق العناصر الخيرة ـ مع ما أدت إليها من الحســـنات ـ بالمؤمنين، لأنها منهم في الأســـاس، وإن علقت بغيرهم في مرحلة من المراحل.

ففـــي يـــوم القيامة ـ عندما يعـــاد التركيب الطبيعي للناس ـ نجد: ســـيئات المؤمنين مـــع غير المؤمنين، وحســـنات غير المؤمنين مع المؤمنين. كما نجد الماء يعود ماءً، ولو بعد تفاعله، وتصاعده بخاراً، وانطلاقه سحاباً... وكما نجد التراب يرجع تراباً، ولو بعد تحركه في دورة نباتية، أو معدنية، أو حيوانية...

فلا يظلم الله غير المؤمنين عندما يحملهم ســـيئات المؤمنين، لأنـــه يكون قد أعاد إليهم عناصرهم التي علقت بالمؤمنين في إحدى التلاقحات، ولا يحابي الله حينما يمنح المؤمنين حســـنات غير المؤمنين، لأنه يكـــون قد أعاد إليهم عناصرهم التي علقت بغيرهم في إحدى التلاقحات، نتيجة لاندماج الناس ببعضهم، وعدم تمايزهم إيمانياً.

وهذا الإفراز، وإن كانت نتائجه تبدو صعبة القبول على غير المؤمنين، لأنهم يفاجَأون بسيئات لا يعرفون انتسابها إليهم، إلا أن أصل الاختلاط في مصلحة غير المؤمنين دنيوياً، لأنهم لو تجردوا ـ كلياً ـ عن العناصر الخيّرة، لعاشـــوا جواً جافاً خالياً من القيم، وقابلاً للانفجار والدمار في أول احتكاك: (لَوْ تَزَيَّلُوا) في الدنيا، فلحقت العناصر الخيّرة بالمؤمنين، والعناصر الشـــريرة بغير المؤمنين، لعاش المؤمنون جواً ملائكياً، خالياً من التجربة والاحتكاك، ولعاش غير المؤمنين جواً شـــيطانياً، لا يحلم بالرحمة والحنان، فالعناصر الشريرة، تـــزود حياة المؤمنين بمـــادة التجربة، فلا تدعها رتيبة تصل إلى درجة التفاهة، والعناصر الخيرة ترطب حياة غير المؤمنين، ولا تدعها تحترق من الجفاف، ولولا هذا الاختلاط، لكانت الويلات نصيب غير المؤمنين:

(لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً) يصل إلى درجة اليأس، إذ لا منفذ فيها للنور. فمصلحة المؤمنين وغيـــر المؤمنين أن يعلـــق بكل فريق عناصر من الفريـــق الآخر، وأن تكون النتائج مـــا في بعض الحديث: (إن حســـنات غير المؤمنين تعطـــى يوم القيامة للمؤمنين، وإن ســـيئات المؤمنين تعطى يـــوم القيامة لغير المؤمنين)(٥٨). ـ الحديث منقول بالمعنى ـ .

الرسول الأعظم، وأصحابه

((محمّد) رَسُولُ اللهِ .

وَالَّذِينَ مَعَهُ : أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ، رُحَماءُ بَيْنَهُمْ ، تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ ، وَرِضْواناً ، سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ .

ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ : كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ، فَآزَرَهُ ، فَاسْتَغْلَظَ ، فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ .

لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ .

وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ : مَغْفِرَةً ، وَأَجْراً عَظِيماً)(٥٩) .

- ١ -

الآية تنقسم إلى جزئين:

١ـ الجزء الأول يتناول وصف الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله:

(محمّد رَسُولُ اللهِ).

٢ـ الجزء الثاني يتناول وصف المؤمنين به بقوله: (وَالَّذِينَ مَعَهُ...).

والجزء الأول مقتضب جداً: (محمّد رَسُولُ). ذلك: أن كلمة (رَسُولُ اللهِ) أكبر إطار يمكن أن يوضع فيه شخص من البشر، وأعظم هالة تحف بإنسان. لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يختار لرسالته إلا أكفأ الناس، من جميع الجهات: الخلقية، والخلقية. فالرسول ـ أي رسول ـ ليس مجرد إنسان أخلص لله بكله، فاختاره الله لمجرد إخلاصه له، وإنما هو أكفأ الناس، فحتى لو جرد من الرسالة لبقي متفوقاً على جميع أهل زمانه، ولأنه أكفأ الناس جميعاً يختاره الله رسولاً.

وهذا أمر واضح في واقع الحياة: فأي فرد ـ منا ـ أراد تبليغ رسالة إلى قوم، فإنه يختار لأدائها أكفأ من يجد، فكيف بالله الذي يحمل أحد خلقه رسالة السماء، فلا بد أن يختار لها أكفأ خلقه.

وهذا أمر واضح في واقع الإسلام، وكل الأديان:

فالرسول الأعظم ـ مثلاً ـ يقول: (إن الله نظر إلى أهل الأرض، فاختارني وأختار علياً، فبعثني: رسولاً، ونبياً، ودليلاً، وأوحى إلي: أن اتخذ علياً أخاً، ودليلاً، ووظيفاً، وخليفة في أمتي من بعدي...)(٦٠).

إذن: فالعملية عملية اختيار دقيق، دقة مقاييس السماء، التي ترفض كل جزاف واعتباط. فالله الذي أتقن كل شيء، وأحاط بكل شيء علماً، لا يمكن أن يكون اختياره جزافاً أو اعتباطاً. فعملية اختيار الرسول، تكون من جزئيات عملية اختيار الشخص المناسب للعمل المناسب. والله أحسن من يختار، ويختار الأحسن.

والرسول ـ مطلق الرسول ـ هو: القمة البشرية العليا، التي تتربع على ملايين الكفاءات ـ المتوالدة، والمتوارثة ـ التي تدعم كيانه من قبل آلاف السنين. كما أن قمة الجبل، صخرة ضخمة، تعاونت على إبقائها فوق سطح الماء بألوف الأقدام، ملايين الأحجار المختلفة الأحجام والمستويات... كما أن رئيس الدولة، رجل ضخم المؤهلات، يقف على ملايين الأيدي والمؤهلات، التي تعاونت في تكوين الدولة منذ تأسيسها، وتكوينه منذ تكوينه... كذلك: الرسول ـ إضافة إلى قدسيته في القمة ـ رجل هائل المؤهلات، اشتركت في تدعيم كيانه العظيم، وتوفير المؤهلات فيه، الرجال الصالحون والنساء الصالحات، منذ فترات عريقة... وعريقة... جداً.

هكذا... القرآن يفسر تكوين الرسول محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم):

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۞ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ)(٦١). وهكذا... يقول الإمام الصادق للإمام الحسين (عليه السلام): (يا مولاي! يا أبا عبد الله! أشهد: أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة، والأرحام المطهرة، لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها)(٦٢).

والجزء الثاني الذي يتناول وصف المؤمنين، فحيث لا توجد كلمة جامعة لكل الكمالات الإيمانية، وردت لهم أوصاف أربعة:

١ـ (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ، رُحَماءُ بَيْنَهُمْ): فلهم عواطف بها يبغضون ويحبون كسائر الناس، ولكنهم يتفوقون على سائر الناس ـ في هاتين الصفتين ـ من ناحيتين:

الناحيــة الأولى: أن عواطفهم كاملة، فبغضهم كامل... وحبهم كامــل... فهم يبالغون في البغض حتى درجة الشدة، ويبالغون في الحب حتى درجة الرحمة، والمبالغة في الأوصاف من نتائج الكمال، لأن الكمال يعني توفر الطاقة بشكل كامل لا تدع فراغاً، لا من حيث الكم ولا من حيث الكيف.

الناحية الثانية: إن عواطفهم ليست مرسلة على سذاجتها، وإنما هي خاضعة للفكر، وهم لا يسترسلون مع عواطفهم كيفهما تهيم، ولا يرسلون كيفما تهيم، وإنما يمنطقونها. فبغضهم وحبهم، لا ينطلقان من قاعدة المصلحة، التي تتقلب حســب تقلبات المصلحة، وإنما ينطلقات من قاعدة ثابتة هي: (قاعدة الإيمان) التي تبقى فوق دوافع التقلب.

فالمقياس الذي يســود عواطفهم هي: (الدين). فالكافر يحارب بشدة، والمؤمن يدعم رحمة، مهما كانت المقتضيات الخاصة، فكلها جانبية بالنسبة إلى الخط العريض، الفاصل بين الكافر والمؤمن.

٢ـ (تَراهُمْ رُكَّعاً سُـجَّداً): فهم يركعون ويســجدون كثيراً وهذا... لا يدل علــى أنهم لا يصفون أقدامهم قياماً، ولا يدل على أنهم لا يأتون بســائر العبادات، ولا يدل على أنهم رهبان يهملون الحياة، ولا يدل على أنهم ركوع لا ينتصبون أو ســجود لا يجلســون حتى لا تراهم إلا وهم ركوع أو سجود... وإنما يدل على أن العبادة تطبع حياتهم ـ والركوع والســجود هما من أتم مظاهر العبادة ـ حتى لكأنهم ركّع ســجّد ولو كانوا منهمكين في ســائر جوانب الحياة، لأن بقية حياتهم ـ في مختلف الأعمال ـ مطبوعة بطابع العبادة، فهم في كل تصرفاتهم:

٣ـ (يَبْتَغُونَ فَضْلاً ـ مِنَ اللهِ ـ وَرِضْواناً) لأنهم، إما يمارسون الأعمال المعيشية كما خطط لهم الله، فكأنهم (يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ(، حيث لا يتجاوزونه إلى من خطط لهم الشيطان، أو سولت لم أنفسهم، من ممارسة الأعمال المعيشــية لمجرد أنها تدر عليهم أرباحاً مادية، مهما كانت نوعية تلك الممارســة. وإما يمارســون الأعمــال الحياتية بالشــكل الذي أراده الله لهم، فكأنهم يبتغون (رِضْوانــاً)، حيث لا يتجاوزونه إلى ما أراده الشــيطان، أو أرادته أنفســهم لهم، من ممارســة الأعمال الحياتية لمجرد أنها تشــبع رغباتهم، مهما كانت نوعية تلك الممارسة. فعلى حياتهم مسحة الخشوع والانقياد لله، حتى كأن تلك المسحة وسم أرتسم على جباههم.

٤ـ (سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ): فخشوع الإيمان... ونور الإيمان... يعلو حياتهم كلها، فأقوالهم... وأعمالهم... كلها ـ توحي بشــي هــو: (الإيمان) الذي أراح ضمائرهــم، فبدت راحة ضمائرهم فــي اطمئنان أعصابهم، وسماح وجوههم، وإن لم تكن الثفنات على جباههم، فالتاريخ لم يعرف الثفنات على جباه: النبي، وعلي، والحســنين... هم قادة المؤمنين، لأن الثفنات ترتسم على جباه السجادين إذا كانت أمزجتهم ضعيفة تتأثر

بالسجدات الطوال، وأما الأمزجة القوية، فتعوض الخلايا الميتة على أثر ضغطة السجود. وهذه السيما في وجوه المؤمنين (مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ) والعبادة المطلقة لله، فهي التي وفرت عليهم عافية الضمير والأعصاب.

هــذا (المثل) النموذجي للمؤمن ـ بتلك الصفات الأربع ـ الذي ظهر مع رســول الله (صلى الله عليه وآله وســلم)، ليس مثل المؤمن بالله عن طريق محمّد (صلى الله عليه وآله وســلم) والقرآن فحســب، وإنما هو (مثل) المؤمن بالله عبر الرسالات والكتب السماوية.

(ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ): فالذين كانوا مع موسى على طريق الله، كانوا على نفس الصفات.

(وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ): فالذين كانوا مع عيسى على طريق الله، كانوا على نفس الصفات.

فالمؤمن الصحيح الإيمان، هو: المؤمن بالإله الواحد، الذي أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وبعث الأديان، والمؤمن به، هو هو ذاته، عبر أولئك الرسل... وتلك الكتب... وهاتيك الأديان...

ـ ٢ ـ

هنا نطرح قضايا، نستلهمها من مميزات النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) في أصحابه:

الأولى: قوة القائد في القاعدة:

بمقــدار ما تكون قــوة القائد في القاعدة، تكون مرونته في التحــرك، وقدرته على تحريك القاعدة بدقة وشــمول. لأنه هو الذي ينعكس على القاعدة، التزاماً بتنفيذ تعاليمه، بتضحية ونشــاط. فمدى قوة القائد في قاعدته، مقياس لذاتياته من جهة، ولإمتداداته ـ الوقتية، والتاريخية ـ من جهة أخرى.

وإذا أردنا أن نرسم خطوطاً بيانية لقوة القادة في قواعدهم، برز النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كأعظم قائد في التاريخ. فلا يعرف التاريخ قائداً تكون كلمة مصدر قناعات، وحجة تنهار دونها الأدلة والبراهين.

الثانية: ترجمة القائد في القاعدة:

فترة نشــاط كل فرد، عدة آلاف من الأيام، لا تقل عن ثلاثة ولا تزيد على عشــرة ـ غالباً ـ . فإذا بددها في المفردات... والمتفرقات... لا يستطيع استثمارها. ويستغل بعضها المركزون، ويضيع بعضها في المتاهات.

تماماً كمن ينثر القمح في البحر، تأكل الحيتان بعضها، ويفسد بعضها في طيات الوحول... أو كمن ينثر دراهمه من الجو، يعثر الأطفال على بعضها، وبعضها يدفن في التراب... وإذا ركز نشـــاط عمره على هدف معين، أصبح كياناً ضخماً، يلفت الأنظار.

والإنســـان يمل متابعة هدف واحد، بكل نشاطهم، طوال ســـاعات يومه، عبر سنوات نشاطه كلها. فلا بد له من هدف رئيس يكرس له وفر نشـــاطه، وهدف جانبي يمنحه فضل نشـــاطه. والأفضل ـ عندئذٍ ـ أن يكون لـــه خطان: خـــط فكري، لا يحيد عنه، مهما تجاوبت المغريات على جانبي الطريق. وخط تربوي، لا يتوانى عنه، مهما فاجأته سلبيات الأفراد. شريطة: أن ينطلق الخطان من موقع واحد، وفي اتجاه هدف واحد، بحيث يدعم أحدهما الآخر، فيكون الخط الفكري صيغة نظرية للخط التربوي، والخط التربوي صيغة بشرية للخط الفكري.

والعبقـــري، ليس هو الذي يتمتع بمواهب متفوقة... متعددة الألوان... وإنما الذي يحســـن اختيار قضية، تلخـــص اهتمامات الناس. وينجح في تركيز اهتماماته في خطين: فكري وتربوي، ينتهيان إلى تلك القضية. ليمتلك الناس فكرياً ومسلكياً، ويجعل منهم تياراً متوثباً، يرتمي فيه المتردون غير آسفين.

وإذا أردنا أن نأخذ بهذا المقياس، نجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أعظم القادة ـ على الإطلاق ـ : فقد نجح في تبني جميع قضايا الإنسان، ومضى في خطين: خط فكري انتهى إلى تشريع دين، وخط تربوي انتهى إلى تكوين أمة، حتى بلغ تياره ـ من القوة ـ أن أنعكس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في كل فرد من المسلمين، ولو من خلال بعض أفكاره... وتصرفاته...

الثالثة: توظيف القاعدة في الخط:

والقائـــد القوي لا يكتفي بمجرد انتماء قاعدته إليه، لأن مجـــرد انتمائها إليه لا يوجه طاقاتها إلى الهدف بالزخم المطلوب لتحقيقه، فلا بد من تفريغ القاعدة ـ بكل نوازعها ـ في الخط المنتهي إلى الهدف.

وإذا اســـتعرضنا النوازع المحركة للإنســـان، تبرزت في طليعتها نازعتان، همـــا: (نازعة البأس، ونازعة الرحمة).

ونازعة البأس هي: التي تلخص سلبيات الإنسان الدافعة إلى العنفوان، والتمرد، والبطش، والتدمير...

ونازعـــة الرحمة هـــي: التي تلخص إيجابيات الإنســـان الدافعة إلـــى التواضع، والانقياد، والتســـالم،

والتآلف...

وإذا استطاعت القيادة تفريغ نازعتي: (الهدم، والبناء) في اتجاه هدفها، فقد وظفت القاعدة ـ بكل طاقاتها ـ في الخط. وخاصة ـ وأن القيادة إذا أهملت توجيه هاتين النازعتين، وتولاهما الفرد، فمن الممكن أن يخطئ استخدامهما، فيضع البأس موضع الرحمة، والرحمة موضع البأس. واحتمال الخطأ يمنعه من استنفادهما، فتهدر الطاقة، ويتعقد هو بكبحها. وإذا تم تقنينهما، وكملت مبرراتهما، فلا يتردد الفرد في التعبير عن بأسه بشدة، لتحديد الانحراف بأقصى القوى... وعن رحمته بفتوة، ملافاة السقطات بأقصى العواطف... فيساهم في إصلاح المجتمع، بلا تناقص مع المنهج العام الذي تضعه القيادة.

وقد بلغ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في ضبط نازعتي: (البأس، والرحمة) في قاعدته، مبلغاً مثالياً، حتى كان المسلمون يقاتلون آبائهم... وإخوانهم... من الكفار، ويتعاطفون مع من لا يعرفونهم من المسلمين...

(وَالَّذِينَ مَعَهُ) لا أصحابه، ففيمن صحبه من آمن بلسانه دون قلبه (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ) الذين يمثلون جبهة المنحرفين والهدامين، (رُحَماءُ بَيْنَهُمْ) من المسلمين.

(٤٩)

سورة الحجرات

مدنية وهي ثمانية عشر آية

الغيبة

(. . .وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ؟ ! . . .)(٦٣) .

١ـ (الغيبة) تجرئ الآخرين على نقاط الضعف، وتثير عناد صاحبها، وتسبغ عليها الشرعية إذا عرفت أنها شائعة أو متواجدة في أوساط عالية.

٢ـ (الغيبة): أن يذكر أخاه المؤمن بما يسوءه أن يظهر به أمام الرأي العام.

ذلــك: أن كل فرد يصمم حياته وفق مقتضيات موقعه من المجتمع، فيهندس تصرفاته بالشــكل الذي يراه: صالحاً لتأمين حياة مناســبة له، ومنســجماً مع أسلوبه في تعامله مع الآخرين. ولا يعني ذلك أن تكون حياته نزيهة عن نقاط الضعف، فالحياة البشرية ـ كالنفس البشرية ـ لوحة مرصوفة من نقاط القوة والضعف، والتفاضل إنما هو بالنسبة فقط، فقد تكون نقاط القوة أكثر وربما تكون نقاط الضعف.

ولكن تواجد نقاط الضعف في حياة كل فرد، لا يعني أن يتكشــف أمام الرأي العام، ويعلن مقاتله لكل إنسان، وإنما أمرنا ـ دينياً ـ بالتجمل، وبعدم الاعتراف بالسيئات ـ حتى لا تتخذ وسيلة للهدم من قبل أفراد، ولا يتجرأ عليها آخرون، ولا تكتسب شرعية بصدورها من القادة ـ إلا في مقام معالجتها، وهو مجال التوبة أمام الله تعالى.

فعلى كل إنســان أن يتســتر في نقاط ضعفه، في محاولة ـ ولو شكلية ـ لمعالجتها جذرياً. وهذا التجمل الشــكلي يؤصل في نفس صاحبه الصفة اللاشــرعية لنقــاط ضعفه، ويعمق حنينه إلــى إبعادها عن حياته نهائياً.

وعلى أســاس عدم وجــود نقاط الضعف تلك، يتعامل مــع الآخرين ويتعاملون معه: فيكســب ثقتهم، ويضعونه حيث يرتضيه لنفسه، باعتباره المنطق المناسب لأحلامه التي يمهد لتحقيقها في مستقبله.

ورغم أن الناس يعلمون ـ إجمالاً ـ أن الحياة البشرية لا تخلو من نقاط الضعف، ولكنهم ـ عندما يتعاملون مع أي فرد ـ يمنحونه الثقة: على أساس نقاط القوة في حياته، وعلى أساس عدم تواجد نقاط الضعف فيها.

فالثقــة لا ترتكــز إلا على نقاط القوة الخالصة من نقاط الضعف، ولو تكشــف الناس لبعضهم كما هم ـ وبكل ما فيها من نقاط القوة، والضعف ـ لأربكت حياتهم، كما في الأثر: (ولا تكاشفتم، لما تدافنتم)(٦٤).

وبالثقــة يعيش الناس: فالطبيب، والمهندس، ورجل الدولة، ورجل الدين، والعامل...، جميعاً يعيشــون بالثقة.

والغيبة، حيث تكشــف نقاط الضعف في حياة شخص، تعمل على زعزعة ثقة الآخرين به وهو غائب لا يستطيع الدفاع عن نفسه.

وزعزعة ثقة الآخرين به تســاوي: إماتته، وتخسير المجتمع ذلك العضو منه. وبما أن (الغيبة الواحدة) لا تقضي على ثقة الناس جميعاً بالمغتاب، فكل (غيبة) نهشة في لحمه، تماماً... كما قال الله تعالى:

(يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً). فعندما يغتاب الأخ أخاه، يهبر قطعة من لحم أخيه.

مع العلم بأن (الغية) ذكر الإنسان أخاه بما فيه من السيئات ولكنه لا يرضى بانتشاره عنه، فهو مجرد تشهير وليس فيه عنصر الكذب. وأما ذكر الإنسان أخاه بما ليس فيه من السيئات، فهو (بهتان). فـ(البهتان) مركب من عنصر (لغيبة) وعنصر الكذب.

يبقى أن (الغيبة) إذا اصطدمت بالظلم، تكسب صفة شرعية. لأن الظلم أقبح، ولأن الظالم ـ إذا أمن التشهير ـ يتوغل في ظلمه للآخرين في مأمن من الأعين والألسن. وفي هذا... ما يكفي إغراءاً لبعض الناس بالظلم.

فالمؤمن له حصانة في لملمة فضوله كما يشاء، وليس لأحد حق التشهير به، ما لم يستغل حصانته للتطاول على الآخرين، فتسقط حصانته، ويفقد أهم مميزات المؤمن في المجتمع المؤمن، فيفقد ـ عن طريق الظلم ـ من المعنويات أكثر مما كان يظن انه يكسبه بالظلم من الماديات أو المعنويات.

مؤشرات الأفضلية السرابية والواقعية

(يا أَيُّهَا النَّاسُ!

إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى، وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ، لِتَعارَفُوا. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ. إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)(٦٥).

ـ١ـ

(يا أَيُّهَا النَّاسُ!).

(إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى، وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ):

أوجدناكم متمايزين بمائزات عديدة:

١ـ المائز الذاتي: فهذا... ذكر، وتلك... أنثى، وهذا... مائز خلقي له آثاره.

٢ـ المائز السياسي: فهذا... من شعب، وذلك... من شعب آخر. وهذا... مائز سياسي. لأن الشعب يتكون من مجموعة بشـــرية، متعايشـــة على قطعة من الأرض، تحددها حدود معينة وتسودها سلطة معينة. ولكل حدود إيحائها، ولكل سلطة اتجاهها. وتفاعل ذلك الإيحاء وهذا الاتجاه مع مزاج الشعب، يخلع عليه طابعاً ويركز فيه مرتكزاً لهما آثارهما.

٣ـ المائز القومي، فهذا... من هذه القبيلة، وذلك... من تلك القبيلة. فالانحدارات الســـلالية توزع الناس أقواماً يختلفون بها في النسب، ولكل سلالة خواص تكون مجتمعاً خاصاً ومناخاً معيناً لهما آثارهما.

وهـــذه المائزات الثلاثة، هي المائزات الرئيســـية التـــي يحملها التعبير ويحفظها التســـجيل: فهذا ـ مثلاً ـ (حبيب بن مظاهر)، من قبيلة (بني أســـد) من شـــعب (العراق)، وبهذا... يعرف. وتلك ـ مثلاً ـ (آمنة بنت وهب)، من قبيلة (قريش)، من (شـــعب الحجاز) وبهذا... تعرف... وإلى الآن، تعتمد الجنسيات والسجلات الرسمية على هذه المائزات الثلاثة، وإن كنت قد استبدلت اسم الشعب باسم الدولة واسم القوم باسم البلد، لتضخم الشـــعوب والأقوام وانتشـــارها بشكل يمكن تزييفها بســـهولة. وبقيت المائزات الثلاثة تلك، هي... هي... المائزات الرئيسية:

فالدولة هي العبارة السياســـية عن الشـــعب، والبلد هو التعبير الســـكني عن القوم، لأن كل قوم ـ غالباً ـ يكون متساكناً.

ولكن هذه المائزات الثلاثة ليست كل المائزت بين الأفراد، فالمائزات بين الأفراد ألوف... وألوف...: ففي كل العالم لا يوجد وجهان متطابقان في القسمات، ولا توجد أنامل لفردين متطابقان في الخطوط، ولا يوجد صوتان متطابقان في النبرات، ولا توجد يدان متطابقتان في الذبذبات التي تظهر في اختلاف الخطوط ـ .

وهذه المائزات الأربعة ـ أيضاً ـ من المائزات الرئيسية التي يسهل تسجيلها والتعبير عنها بواسطة الأجهزة الحديثة، وإلا فلا يوجد فردان متطابقان في أي عضو أو جهاز من الأعضاء الخارجة والأجهزة الخفية، كما لا يوجد التطابق بين فردين في الخطوط المكتوبة على جسم الإنسان من قمة رأس إلى قاعدتي قدميه.

ولكـــن: جعلناكم متمايزين بهذه المائزات: (لِتَعارَفُوا): فيعرف بعضكم بعضاً من هو؟ ومن أي شـــعب؟ ومن أي قبيلة؟ وليست هذه المائزات قيماً تتفاضلون بها.

وإن كان الناس قد تعودوا أن يتفاضلوا بأشياء، هي ـ في عالم اليوم ـ :

١ـ المال: في المجتمعات الرأسمالية يفضل الأثرياء بمستويات ثروتهم، حتى بالنسبة إلى ما لا يأمل في الانتفاع بتلك الثروات.

٢ـ الإقطاع: وفي المجتمعات الرأسمالية يفضل الإقطاعي بمقدار إقطاعه، حتى بالنسبة إلى غير فلاحيه.

٣ـ القومية: ففي بعض المجتمعات المتخلفة يفضل المنتمي إلى القومية الساحقة، ويستأثر بحقوق مقابل واجبات تفرض على من لا ينتمي إلى تلك القومية. وربما يفلسفون هذا الحيف والجور ـ في تعديل الحقوق بالواجبات ـ بسفسطات وادعاءات: فيبرر (اليهود) ذلك بأنهم من عنصر الله وسائر الناس من عسيب حصان وبذور حشرات.

وقال (النازيون): إن عدد الكريات الحمر في دم (الألماني) أكثر منها في دم غيره...

٤ـ الطبقة: ففي بعض المجتمعات المتخلفة تفضل طبقة النبلاء ـ أو الأسرة الحاكمة ـ على غيره. وربما فلسفوا هذا التفضيل: فكان الناس يعتقدون ـ قبل الثورة الفرنسية ـ بأن الدم الذي يجري في عروق النبلاء دم أزرق ودم غيرهم أحمر أو أسود...

٥ـ السلطة: ففي كل المجتمعات القديمة والمعاصرة يفضل صاحب الكرسي على عامة الناس، ويفضل صحاب الكرسي الأعلى على صاحب الكرسي الأدنى بمقدار الفاصل بين الكرسيين.

٦ـ العلم: (ورمزه الحديث: الشهادة)، والفن. ففي كل المجتمعات القديمة والمعاصرة وربما المستقبلة، يفضل العالم ـ بأي علم ـ على غيره، والفنان على غيره.

٧ـ العنصر: ففي بعض المجتمعات، يفضل ذو اللون الغالب على أفراد المجتمع: فالأبيض ـ في البلاد التي يغلب أهلها البياض ـ يفضل على غير الأبيض، والأسود ـ في البلاد الأفريقية ـ يفضل على الأبيض...

٨ـ الجنس: ففي أكثر المجتمعات يفضل الرجل على المرأة.

٩ـ الجمال الجسماني في الرجل أو المرأة، والكمالات الجمسانية ـ كالقوة التي تظهر في: الملاكمة، والمصارعة، والسباحة، والعدو... ـ ، ففي كل المجتمعات القديمة والمعاصرة وربما المستقبلية، يفضل صاحب الجمال والكمال الجسمانيين على فاقدهما.

وهذه الفواضل جملتان:

١ـ الجملة الأولى: فواضل خارجة عن الإنسان، كالمال والإقطاع والسلطة والعلم. فكلها غير ذات الإنسان، وإن كان للسلطة والعلم تعلق بالإنسان، كتعلق الإلكترون بالسلك الذي يجري فيه.

٢ـ الجملة الثانية: فواضل جسد الإنسان، كالقومية والطبقة والجمال والعنصر والجنس. وهوية الإنسان بروحه، وأما جسده: فمجرد لباس للروح، وأداة متحركة به. الجسد ـ كله ـ يبلى ويتبدل، باحتراق خلاياه. ففواضل الإنسان الحقيقة هي فواضل روحه، والكلمة الجامعة لفواضل الروح هي: (التقوى). لأن التقوى هي الحذر، والمتقي هو الذي لا يتحرك حركة ـ فكرية أو عضلية ـ إلا بعد التأكد والتثبت من استقامتها وصحتها، والمتقون هم الأصحاء الذين لا يهيمون ولا يندفعون وأكرم الأصحاء أكثرهم صحة:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ) ـ الذي يتقن إكرام الناس حسب ذاتياتهم الأصلية، ولا يفضل أحداً لقرابة تقربه إليه، ولا يخدع، ولا يفتر ـ (أَتْقاكُمْ) وأكثركم صحة واتزاناً وحكمة في ممارسة الحياة.

ـ ٢ ـ

إن المميزات في المجتمع كثيرة، نذكر منها:

١ـ الميزة الجسدية: التي بها يتفوق أفراد المجتمع فيصبحون أبطال في: المصارعة، والملاكمة، والجمال الجسماني، والركض، والسباحة، والكرة... إلى سائر الألقاب التي تكتسب نتيجة لتفوق جسدي.

٢ـ الميزة الفكرية: التي بها يتفوق أفراد فيصبحون: دكاترة، وأساتذة، وشعراء، وكتاب، وقضاة، واقتصاديين... إلى سائر الألقاب التي تكتسب نتيجة لتفوق فكري.

٣ـ الميزة المراسية: التي بها يتفوق أفراد فيصبحون: مهنيين، وحرفيين، وفنيين... إلى سائر الألقاب التي تكتسب نتيجة لتنمية طاقة من الطاقات المتوفرة ـ عادة ـ في أكثر الناس، بدون أي تفوق جسدي أو فكري.

٤ـ الميزة الاقتصادية: التي بها بتفوق أفراد فيصبحون أغنياء.

٥ـ الميزة الاجتماعية: التي بها يتفوق أفراد فيصبحون نبلاء.

٦ـ الميزة النظامية: التي بها يتفوق أفراد فيصبحون رؤساء.

٧ـ الميــزة النجاحية: التي بها يتفوق أفراد ـ نتيجة لإحرازهــم نجاحاً من النجاحات: كميزة الغالب على المغلوب، وكميزة الفرد المركز على الفرد المبعثر...، فيصبحون ناجحين.

٨ـ الميزة التناسبية: التي بها يتفوق أفراد، فيصبحون صالحين لأعمال أو مراكز معينة، لتناسبهم وانسجامهم معهاً. ربما مع ضئالة مواهبهم وعدم تناسب أو إنجسام غيرهم معها، وربما مع غزارة مواهبهم.

وكل من يتمتع بشيء من هذه المميزات، يوظفها ـ عادة ـ لتحسين حالته المعيشية، عن طريق جمع المال والإكثار منه وادخاره.

وإذا اصطدم بحواجز تمنعه من جمع المال باسمه الشخصي، فإنه يوظف ميزته لتحسين حالته المعيشية عــن طريق توجيه المــال إلى ميزته، كما يعمل كبار الموظفين ـ من: الرؤســاء والوزراء، والمدراء... ـ الذين يجدون فوانين تمنعهم من جمع المال وصرفه بأســمائهم الشــخصية، فيجمعون المال ويصرفونه بألقابهم، ويوجهون الكثير من (ميزانية الدولة) لـ : منازلهم وســياراتهم، ومستخدميهم، ومجاملاتهم... باسم: الدولة، والوظيفية، أو المركز... والنتيجة واحدة، وهي توظيف الميزة لتحسين الحالة المعيشية.

(والفكر الشــيوعي)، وجد الميزة الاقتصادية تؤدي إلى تقسيم المجتمع إلى طبقتين: غنية وفقيرة، وربما إلى طبقات: غنية ومتوســطة وفقيرة ـ فطرح فكرة (الصراع الطبقي)، و(ديكتاتورية البروليتاريا)، وانتهى إلى إلغاء (الملكية الفردية) كعلاج كامل ووحيد لمشكلة (الطبقات). ولكنه فوجئ بمشاكل:

١ـ إنه منع المتميزين من توظيف مميزاتهم في تحسين أحوالهم المعيشية عن طريق جمع المال باسمائهم الشــخصية، ولكنه لن يتوصل إلى منعهم عن توظيف مميزاتهم في تحســين أحوالهم المعيشية عن طريق جمع المال وصرفه بألقابهم.

٢ـ إن إلغاء (الملكية الفردية) أدى إلى تعطيل الوزاع الداخلي، الذي أدى ـ بدوره ـ إلى تقليص الإنتاج. وتقليص الإنتاج أدى ـ بالتسلســل الطبيعي ـ إلى: إبقاء الفقير في مستواه، وإنزال الغني إلى مستوى الفقير. لأن الفائــض الذي كان يتمتــع به الغني ـ نتيجة لمبادراته الفردية بدافع من الوازع الداخلي لم يظهر للوجود بسبب تعطيل الوازع الداخلي.

٣ـ إن المتميزين لا يكفون عن تحســين أحوالهم المعيشــية ـ سواء أكان عن طريق جمع المال وصرفه

بأسـمائهم، أو بألقابهـم ـ غير أنهم مع وجود (الملكية الفردية) يحاولون تحسـين أحوالهم المعيشـية بالضغـط على الإنتاج، ومع فقدان (الملكية الفردية) يحاولون تحسـين أحوالهم المعيشـية بالضغط على الاستهلاك.

٤ـ إنـه لم يتنـاول بقية المميزات بالعـلاج، ولم يطرحها للحـوار، وكأنها غير قائمـة، فبقيت: تحرك الامتيازات، وتوزع المجتمع إلى طبقات، تصيب المجتمع بسلبيات أكثر من سلبيات الطبقية الاقتصادية.

و(الثورة الفرنسـية)، وجدت الميـزة الاجتماعية تفصل المجتمع طبقتين أو طبقات، فاسـتهانت بطبقة (النبلاء) ـ في غوغائية الثورة ـ ، وارتكبت بحق بعض أفرادها جرائم، ليعتبر بهم الآخرون، حتى لا يكونوا (نبلاء). ولم تأخذ (الثورة) عنصر الميزة بعلاج، فبقيت جذوره تعرق وتورق، وبقيت (فرنسـا: الثورة على النبلاء)، مزرعة (النبلاء) اكثر من أي بلد في العالم.

والإسلام حينما نظر إلى المجتمع من خلال مشكلة الطبقات، رأى:

١ـ أن المجتمع منقسـم على نفسـه ضمن طبقات، لها سـلبيات لا بد من معافاته منها، مقدمة لانفتاحه وتصحيح مسيرته.

٢ـ إن المميزات التي تحرك الامتيازات، كثيرة. وهي قائمة، وستبقى قائمة. لاعتمادها على نوازع متأصلة في عمق الإنسان. فلا يمكن إلغائها كلياً.

٣ـ وحتى لو أمكن إلغائها كلياً، لم يكن من الصحيح إلغائها. لأنها من المحركات التي تفجر المواهب، وإلغائها يؤدي إلى تجميد الإنسان وتعطيل كثير من طاقاته.

٤ـ فلا بد من توضيبها ضمن قنوات: تضمن إيجابياتها، وتكبح سلبياتها.

٥ـ إن المميزات السبع الأول، هي مميزات فعلية. ولكنها جميعاً ـ مميزات للجانب الأرضي من الإنسان، ولا ترتبط بجانبه السـماوي. فليسـت قيماً إنسـانية، لأن الجانب الأرضي للإنسـان جانب طارئ للإنسان، فمميزاتـه طارئة لا أهمية لها في المقياس الإنسـاني، فلا يصح الاعتراف بها، ومـن ثم يكون التفاضل بها ظاهرة غير صحية.

والميزة الثامنة، تتعلق بالجانب السـماوي للإنسان، فهي قيمة متأصلة لا يد من الاعتراف بها، ومن ثم

يكون التفاضل بها ظاهرة صحية.

ووفـــق هذه الرؤية الواقعية الواضحة، أعلن الإســـلام واقعية المميزات الســـبع الأولى، من دون الاعتراف بها قيماً إنســـانية. وأعلن الميزة الثامنة قيمة إنســـانية. وهي في الأساس ـ تختلف عن أخواتها، لأنها لا تعني أكثر من الإنضباطية والاستقامة، فلا تشكل خطراً على صاحبها ولا على غيره، والتميز بها لا يعني أكثر من اعتبار صاحبها أســـوة. فيما أخوتها تعني الاســـتعلاء بالميزة، فتشكل خطراً: على صاحبها، لأنها تضعه في إطار أكبر من حجمه. وعلى غيره، لأنها تفرض عليه الخنوع أمامه. والتميز بها، يعني طغيان الإنســـان على أخيه الإنسان.

كل هـــذا... إلى جانب حقيقة بديهية، وهي: أن ســـيادة عقلية المميزات والامتيـــازات، تفرق ولا تجمع، وتستفز ولا تستقطب.

وهكذا... أعاد الإسلام كل شيءٍ إلى حجمه الطبيعي، وجعل الهوية الإنسانية فوق كل التقلبات المادية.

الإيمان = كبرى القيم

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ : لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ ، بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلإِيمانِ ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ)(٦٦) .

ـ ١ ـ

هذا التصور الساذج، يرى (محمّداً) اليتيم الفقير، جاء إلى (يثرب) مشرداً، هارباً من طرق الموت، فآواه أهل (يثرب)، وفتحوا له ـ ولأصحابه المشـــردين ـ بيوتهم وقلوبهم وخزائنهم، ووضعوا آلهتهم وعقائدهم وعواطفهم تحت تصرفاته يحكم فيها كما يوحي إليه الله، وداســـوا على مصالحهم وأهدافهم في ســـبيله، وعرضوا عليه ـ حتى أنفســـهم يوجههـــا إلى حرب من أراد، فقاتلوا إخوانهـــم، وقتلوا من أجله ومن أجل دينه.

هـــذا التصور، يتعلق مـــن قاعدة اعتبار النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وســـلم) حائراً تتجاذبه دوامات الغـــرق، فارتضاه أهل (يثرب) رســـولاً، ورفعوه قائداً يمارس مهمات رئيس الدولـــة، فهو غارق في الديون لهم.

وذلك، لا تقره كشوف الحساب السليم.

فمسألة الحساب ـ في مجال الحركات العقيدية والاجتماعية ـ ليس مسألة أرقام صماءِ بالنقود المعدنية أو الورقية، كما أن قضايا النصر والهزيمة ـ في هذه الحركات ـ لا تقرر بواسطة عدد الجنود والمعدات، وإنما لا بد أن يجري الحساب على أساس (ما هو أهم) حتى يكون سليماً:

فلا شك: أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أخذ من المسلمين بعد (الهجرة)، أخذ منهم وسائل الحياة ووسائل الدفاع، وما أخذه له وزنه وله قيمته، ولو أنكرناه لظلمنا أنفسنا قبل أن نظلمه. ولكن الصحيح ـ أيضاً ـ أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أعطى لهم، فقد كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) المنفذ الوحيد الذي دخلت منه الحضارة الحقيقية إلى (الجزيرة العربية)، ودخلت منه المجموعات العربية المهملة إلى التاريخ. وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) القائد الوحيد الذي قادهم إلى (قوة أعظم) في العالم على مدى قرون، وتحمل عنهم الصدمات عن استيعاب لحكم ما يتحمل وعن استعداد للتاريخ.

وهذا... ليس حساباً يسيراً، وإذا ترجم بالأرقام فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يخرج دائناً لا مديناً. وإذا قارنا تضحيات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ وفق هذا المنطق ـ بكل التضحيات في سبيله، تظهر تضحياته أغلى وأكثر.

ولقد نقول: إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أعطى منطقة (الشرق الأوسط) قيمة سياسية لم تكن لها في أي وقت من الأوقات، وأسقط (إمبراطوريتين تقليديتين) كانتا تتوزعان العالم بينهما كيفما يحلو لهما، وثمن الإنسان بثمن ـحاول (الثورات التحررية) أن تحقق بعضاً منه... وهذا ـ كله ـ لم يكن وارداً في فواتير الذين يمنون على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ في ذلك اليوم ـ وعلى الله ـ في هذا اليوم ـ إسلامهم.

كل هذا... إذا اتخذت الكشوف مجاريها إلى الأرقام المادية الدنيوية.

وأما لو ابتدأ الحساب بمقاييس الواقع الكامل الذي من ضمنه الآخرة، فإن المقارنة تتطور كثيراً، إذ يظهر أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذي دفع... ودفع... والآخرون هم الذين أخذوا... وأخذوا... فالعطاء الصحيح = أخذ، لأن:

١ـ الذي يعطي، يعطي ما ليس له، بل أمانة عنده. ويأخذ ما سيكون له، حتى ولو كان ما يأخذ: مجرد الشهرة، والذكر الحسن...

٢ـ الذي يعطي، شـيئاً خارجاً عنه. فالماء وغيره مما يعطى، وحتى جسـد الإنسـان ذاته، خارج ذاته، وأما ذاته فهي روحه. فالجسـد متغير تحترق أجزاءه وتفنى، ثم تعوض بخلاصة المأكولات، حتى يبدل كل جسد الإنسان ـ كل بضع سنوات ـ تبدلاً كاملاً. وأما ذات الإنسان الثابتة، فهي روحه التي لا تحترق أجزاءها ولا تفنى. ونحن عندما نتعامل مع غيرنا، نتعامل معه على أسـاس روحه لا جسـده، فنعاقب من أجرم قبل خمسين سنة، ونكافئ من أحسن قبل سبعين سنة، ونستوفي ديناً استقرضه قبل قرن...، مع أننا ـ وهو ـ نعلم أن جسده الذي به أجرم أو أحسن أو استقرض، قد تبدل ـ عدة مرات ـ تبدلاً كلياً.

فكلمـا يعطي الإنسـان خارج عنـه، ولكنه يأخذ مـا هو داخل فيه. ذلـك: أنه تنمو روحـه ـ بالعطاء ـ وتتوسع.

فالذي أعطى في سـبيل النبي (صلى الله عليه وآله وسـلم) ـ أو بتوجيهه ـ لم يعط إلا ما ليس له وما هو خارج عنه، وأخذ:

١ـ ماله.

٢ـ ما هو داخل فيه.

٣ـ مـا هـو أغلى وأدوم وأكثر مما أعطى بكثير، لأن (الجزاء الأخـروي) أغلى وأدوم وأكثر بفاصل أماد ضوئية.

وإلى هذا... يوجه الله المؤمنين، الذين ينعون قصر نظرهم بمنهم إسلامهم على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، في محاولة لتمديد نظرهم، فيخاطب نبيه الكريم:

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْـلَمُوا) حيث يتصورون أنهم كل مسبقاتهم، وحتى أجسادهم في كثير من الأحيان ـ (قُلْ) يا محمّد! لهؤلاء المؤمنين:

(لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْـلامَكُمْ)، فإنكم قد أخذتم ولم تدفعوا شـيئاً ـ بمقاييس الواقع ـ ، فلا منه لكم. (بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلإِيمانِ) الذي به أرشدكم إلى الأخذ بلا بدل واقع، (إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ).

-٢-

كان الكثير من (الجاهليين) يتصورون (محمّد بن عبد الله) (صلى الله عليه وآله وسلم) رجلاً يهوى السلطة، وانتزع (الإسلام) طريقاً يسهل له الوصول إلى السلطة التي يهواها بدافع الأنانية كباقي هواة السلطة، فانضمامهم إليه كان ـ في نظرهم ـ تأييداً مطلقاً يمنون به عليه:

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا). فإذا بالقرآن يفاجئ المقاييس الفردية بالمقاييس الجماعية، ويعلن تحطيم الأنانية في مجال الرسالة، فـ (محمّد بن عبد الله) (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس زعيماً يحمل نفسه على الرقاب، ويأخذ من الناس حرياتهم، وإنما هو رسول:

(يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ)(٦٧)، ويعطي للناس هندسة للحياة.

فالقضية إنما هي قضية (عطاء السماء)، وليست قضية (أخذ الأرض).

و(محمّد بن عبد الله) (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس وارداً بين السماء والأرض باعتباره شخصاً، وإنما هو وارد باعتباره (رسولاً) ووسيطاً له جانبان

جانب التلقي من السماء، وجانب التفريغ في الأرض.

فكما أن الله ـ تعالى ـ يرسل الأشعة إلى الأرض بواسطة الشمس، ويرسل الأمطار بواسطة السحاب، هكذا... الله يرسل النظام بواسطة رسوله الأمين. وكما أن الناس لا يحق لهم أن يمنوا على الشمس عندما يستقبلون أشعتها، ولا يحق لهم أن يمنوا على السحاب عندما يستقبلون أمطاره، كذلك... لا يحق لهم أن يمنوا على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما يستقبلون الإسلام.

(قُلْ) يا محمّد!: (لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ)، فأنا لم آخذ منكم شيئاً حتى تمنوا عليّ به. (بَلِ) ليس لي معكم دور مستقل، وإنما الأمر يدور بينكم وبين الله، وأنا مجرد وسيط.

و(اللهُ) لم يأخذ منكم شيئاً لتمنوا عليه به، وإنما الله أعطاكم شيئاً بواسطتي. وهذا الشيء هو أعظم الأشياء، لأنه نظام الحياة الذي بدونه تكون الحياة عبئاً لا يطاق، فهو:

(يَمُــنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلإِيمانِ)، وفتحكم على أنفســكم وعلى الكون، لتعطوا كل شــيء نصابه، ولتسيروا بين الأشياء والأحياء سيراً مؤمناً من العثار، (إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ).

- ٣ -

الناس يختلفون جســمياً في أشياء، أهمها: القســمات، وأوتار الحناجر، وذبذبات الأعصاب، والخطوط المرتســمة على الجسم. ويختلفون إســمياً في الأسماء والكنى والألقاب. ويختلفون وطنياً في قطعة الأرض التي ولدوا عليها، أو سكنوها. ويختلفون عرقياً في السلالة التي انحدروا منها.

وقد جعل الله ـ تعالى ـ هذه الفوارق معرفات، ليمكن تمييز أي فرد من بقية الأفراد، ولم يجعلها للتفاضل والمزايدة.

الظاهر أن الإنســان ـ مجمل الإنســان ـ أكرم من في حياة هذه الأرض، ولكنــه الأكرم بالقوة لا بالفعل، بمعنى أن تركيبته من روح الله ومزاج الأرض، أفضل التركيبات، فإذا اســتنفد كل مواهبه بالشكل الصحيح، أصبح أكرم من في حياة هذه الأرض بالفعل.

والنجاح ـ في أية محاولة ـ دليل صحة اســتثمار الموهبة الموظفة فيها، وصحة اســتثمار المواهب دليل انسجام الفرد مع المقاييس المكلفة بضبط الحياة.

ولا ينجح في الدنيا إلا الذكي الحذر: الذي يقدر الأمور بدقة، ويحذر الأخطاء بحكمة:

فالسياسي الناجح، هو الذي يتمتع: برؤية شاملة ثاقبة، وبحكمة في التخلص من مواطن الخطر.

والتاجر الناجح، هو الذي: يحيط بحركة السوق، ويتهرب من الصفقات الخاسرة.

والعســكري الناجح، هو الذي: يســتوعب موازين القوى والمناورات، وينعم بخفة الحركة في الهجوم والالتفاف.

والمثقــف الناجح، هو الــذي: يعرف ما يتفاعل مع عقلية جمهوره، ويتجنــب المواد التي تعرضه للنقد والاشمئزاز.

فالنجاح يقدر بقدر ما يكون الإنســـان مرســـاً حذراً في فهم الأمور، ثم: سريعاً في فعل ما ينبغي وترك ما لا ينبغي.

أما الذي لا يبالي بفعل ما ينبغي وترك ما لا ينبغي، فلن يكتب له النجاح مهما كانت مؤهلاته وطاقاته.

والمغامر على قسمين:

الأول: الذي يجد طاقة لا يحســـن التصرف بها، فيكون شـــأنه شـــأن: النفط الذي يتفجر، والســـيل الذي ينحدر، بلا ضوابط... ينتهي هو، ويدمر غيره.

الثاني: الذي يرى أبعد... وأشـــمل... من الآخرين. ويقدر أموره بذكاءٍ وحذر. فيتحرك على مســـتوى الأفق الرحيب، ويظنه قصار الآماد متخبطاً. فيكون نجاحه فوق التوقعات، لا لأن الله أيده بما يؤيد به المخلصين، وإنما لأنه عمل على مستوىً أوسع، فحصد ما زرع.

فالنجاح نتاج طبيعي للعمل الصحيح. الله ـ تعالى ـ لا يقسم النجاح اعتباطاً، كما لا يقسم شيئاً من الأشياء اعتباطاً، فهو العدل الحكيم الذي لا يفرط ولا يفرّط.

والحـــذر في التعامل، هو الطريق إلى النجاح. والحذر، هو التقوى. والمتقي، هو الذي يتصرف ـ في كل حياتـــه ـ بحـــذر الجندي الذي يتنقل في مزرعة الألغام والكمائن، لأداءٍ مهمـــة مصيرية. والأتقى، هو الأكثر حـــذراً. فترتفـــع درجة الحذر في خطّ متوازٍ مع خطّي الوعي والخطر، فلا تكون التقوى من الله في المحراب أكثر مما تكون التقوى من الله في: المدرسة، والشارع، والبيت، والسوق، والمعمل، والندوات الاجتماعية، والمحافل السياسية، وفي أي مجال يدخله الإنسان، ولو بقلبه أو بعقله.

لأن الشـــريعة ممتدة ـ بعموماتها وإطلاقاتها ـ على كل تصرفات الإنســـان وفي كل المجالات، فلا تدع: حركة، ولا وقفة، ولا نبضة... إلا وتصنفها بأحكامها الخمسة، حتى لا يوجد تعامل مع النفس أو مع الغير، إلا وتجد الله طرفاً فيه، ويجعله مورداً لحكم شرعي.

(٥٠)

سورة ق

مكية وهي خمسة وأربعون آية

طبيعة الدنيا وطبيعة الجنة

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ :

هذا . . . ما تُوعَدُونَ ، لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ، مَنْ : خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ ، وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ . ادْخُلُوها بِسَلامٍ .

ذلِكَ : يَوْمُ الْخُلُودِ) .

لَهُمْ : ما يَشاؤُنَ فِيها . وَلَدَيْنا : مَزِيدٌ) (٦٨) .

- ١ -

الدنيا أصغر من الإنسان، والإنسان أكبر. فلذلك: نجد الصراع الدائم، وتنازع البقاء، وتنازع: المناصب، والأموال، والنساء، والرغيف، وكل شيء. لأن أشياء الدنيا أقل من مطامح الإنسان، إن لم تكن أقل من حاجاته. ولذلك: نجد الإنسان يسعى ـ دائباً ـ بدافع الجوع والفراغ.

وأما الآخرة، فهي: أكبر من مطامح الإنسان، فلذلك: لا يكون ـ في الجنة ـ صراع، ولا تنازع، ولا سعي، ولا عمل... إذ لا جوع ولا فراغ، وإنما إمتلاء واستقرار.

أرأيت؟ ـ في المجاعة ـ إذا تراءى رغيف في يد إنسان، كيف يتراكض عدد من الناس، لتقطيعه بين يديه، وإزدراده قبل مضغه! ولكن: ـ في الرخاء ـ يمر الباعة المتجولون على باب دارك، ولكن لا تجد فضولاً للاستماع إلى دعاياتهم، والتطابع إلى بضائِعهم.

أرأيت؟ كيف كنت ـ في مراهقتك ـ تتطلعالى كل ثغر وحاجب! ثم: إنكفأت بعد الزواج، وخاصة: لو

كنت متزوجاً عدة زيجات.

هكذا... اليوم ـ لا يتاح لك من الدنيا إلا أقل من جوعاتك الجسـدية والنفسـية، أي: تقاسم كرة الأرضية، أنت وأكثر من خمسة مليارات. فإذا وقع تحت تصرفك، ألف كرة أكبر من كرة الأرض بكل ما عليها، فإنك تشعر بالتخمة وعدم الاحتمال، فلا تطمح إلى التنازع مع غيرك، لتنزع منهخ كرة الواحدة بعد الألف، لأنك تعجز عن استيعاب ما لديك، فلا تجد دافعاً للتفكير بما لدى غيرك.

والحاصل، أن الإنسـان كالوعاء: فإذا لم تملأه ما يناسـبه، حطمه الفراغ، لإسـتحاله الخلأ. وإذا ملأته، اسـتوعب واستقر. وإذا وفرت عليه أكثر من ملائه، استقر ولم يستوعب، فساوره شعور دائم بالتقصير تجاه ما لديه، فكان أبعد عن الصراع والنزاع عما لوملاته ولم توفر عليه.

والإنسـان في الدنيا، يجد أقل من ملائته، فيشـكو من الفراغ. وفي الآخرة، يوفر عليه أكثر من ملائه، فيشـعر بالتقصير الكلي. ولعلـه عبادة أهل الجنة، لأنه أفضل العبادات. ولكـن: قلما يتفق ـ في الدنيا ـ إلا للمعصومين، لأن الإنسان يعاني الشعور بالغبن في الدنيا، وهو لا يتلائم مع الشعور بالتقصير.

صحيـح: أن بعض الناس ينالـون الكثير... الكثير... والبعض لا ينال حتى القليـل... القليل ولكن: هذا... لا يعنـي أن الذي نال الكثير امتلأت فراغاته، كما لا يعني أن الذي نال القليل له فراغات عتال. ولكن ـ على العموم ـ لا يوجد إنسان تمتلئ فراغاته.

ومن هنا، تأتي فكرة: (الزهد في الدنيا)، إذ ما دام الإنسـان لا يمتلئ فلماذا يترك نفسـه فريسـة الشعور بالغبن، ولا يعللها بالقناعة؟؟!! أو ليس الاكتفاء بالمتاح، أفضل من الصراع على ما لا يتاحج؟!

وكمثال لما ذكر، تصوّر إناءاً مساحته متر مكعب: فإذا ألقيت فيه من الماء أقل من متر، تركت فيه فراغاً لا يطاق، وفرضت عليه شـعوراً بالغبن والكبرياء. وإذا التقيت فيه متراً كاملاً، لم يشك من الفراغ، ولم يطفح منه الماء. وإذا التقيت فيه أكثر من متر، طفح وفاض، أي: فرضت عليه الشعور بالنقص والتقصير.

ـ ٢ ـ

والفراغ والجوع يولّدان الشـعور بالغبن، لأن كل إنسـان يفترض أنمن حقه الإمتلاء، من دون أن يقول لنفسـه: من أين لك حق الإمتلاء؟ أو: مقابل ماذا تسـتحق الإمتلاء؟ لأن التعامل الطبيعي، يفرض على كل إنسـان أن يأخـذ بقدر ما يعطي، فإذا أعطى قليلاً فليس له الحق فـي أن يأخذ كثيراً. ولكن الذييعاني من

الفراغ، لا يفكر بهذا الأسلوب، وإنما يفكر بأسلوب استحالة الخلأ.

كما انك لو فرغت إناءاً من الهواء، فإنه كيف ينكمش، ويتحكم تحت ضغط الهواءِ الخارج!

أو: إذا ضغطـــت في إناء من الهواء أكثر منطاقته، فإنـــه كيف ينفجر تحت ضغط الهواء الخارج! هكذا... الذي يشـــكو من الفراغ، يفقد توازنه، تماماً... كما أن الذي يشـــكو من عبءٍ، يفقد توازنه. لو أتيح له أن لا يفقـــد توازنه، لـــرأى انه يأخذ من الحياة بمقدار ما يقدم إليها. وإذا كان ما يقدمه إليها قليلاً، فهذا... لا يعني غبنه، بمقدار ما يعني غبن الحياة فيه. لأن الحياة دفعت بكثير من طاقاتها، حتى أنجبته عنصراً متكاملاً، وهو يعاملها كما أو أنجبته عنصراً ناقصاً. فهو الذي يعطل طاقاته من الحياة، وليست الحياة هي التي تعطله.

ـ ٣ ـ

ومن الفراغ يتولد الكبرياء، لأن الكبرياء هو: تخيل الفرد أنه أكبر من واقعه. وكل من يشـــكو من فراغ، يشـــط به الخيال إلى أنه أكبر من واقعه: فالذي لا يجد كفايته من الطعام، يتخيل انه لو أتيح له الطعام لأكل كثيراً... والظمآن يتخيل أنه لو ورد الماء لشب أرطالاً عديدة... والمكبل السجين، يتخيل انه يستطيع حكومة الدنيا.

ومن هنا: نجد الذين يعانون من فراغات كثيرة، يصبحون شـــعراء، لأن ألواناً من الخيال تجنحهم، بينما المترفون لا يجنحون إلى الشعر. لا، لأن الترف يبلد مشاعرهم ـ كما يقول الشعراء، وإنما لأن فراغاتهم أقل من أن تسلمهم للتخيلات.

ـ ٤ ـ

وإذا تابعنا هذا الخط ـ في تتبع مولدات الصفات البشرية ـ نجد: أن قصور الدنيا عن تلبية حاجات الإنسان وملء فراغاته، يولد فيه صفات ســـيئة كثيرة، كما نجد: أن توفر الآخر على الإنسان، يبعد عنه تلك الصفات السيئة، ولعل الله ـ تبارك وتعالى ـ عندما قال:

(وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ، إِخْواناً ـ عَلى سُـــرُرٍ ـ مُتَقابِلِينَ)(٦٩)، كان يعني: أنه الله يتوفيره الآخرة أكثر من قدرة الإنســـان على اســـتيعاب، يبعد عن الإنسان صفات سيئة، تركزت في عمقه، عندما كان يعاني من قصور الإنسان عن ملء فراغاته.

ـ ٥ ـ

هكذا... يمنح الله في الجنة ـ لأهلها ـ ما يشـاءون، ويبقى ـ لدى الله ـ المزيد على ما يشـاءون، لأنهم لا يستطيعون استيعابها ولا تحملها.

وجاء التعبير: (وَلَدَيْنا)، ليدل على أن الجنة أوسـع من مطامح أهلها، ومن قدراتهم الاحتمال. لأن قدرة الاحتمال ـ لدى الإنسـان ـ محدودة، فإذا جاءته أشياء أكثر من قدرته على الاحتمال، تصعقه. فكم من أناس أصيبوا بالذهول، أو بالسكتة القلبية، عندما بشروا بأشياء ما كانوا يتوقعونها!

هكـذا... لأهل الجنة طاقـات محدودة على الاحتمـال، فيهبهم الله ـ من الجنة ـ بمقـدار طاقاتهم على الاحتمال، ويبقى الجنة أوسـع... وأوفر... فينمي طاقاتهم بتدريجيـة العطاء.حيث يزيد لهم كل يوم جمعة، وتبقـى الجنة أوسـع... وأوفر... فيبقى الباقي لله، أي: لا يهبه لهم، فـكأن الباقي لدى الله وليس لأهل الجنة: (وَلَدَيْنا: مَزِيدٌ!).

(٥١)

سورة الذاريات

مكية وهي ستون آية

السماء ذات الحبك

(وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ) (٧٠).

(وَالسَّماءِ): يميناً بالسماء التي تبدو للعين المجردة كأعظم ما خلق الله، ويتجه إليها الناس بأيديهم أحيان الدعـاءِ إلى الله، وترمز إلى الله في بعض التعبيـرات. (ذاتِ) وذات مؤنث ذو، وذو ـ لغة ـ بمعنى الصاحب، فيقال فلان ذو مال. ولكن يسـتعمل لأدنى ملابسـه مجازاً، فيقال: جدار ذو لون، أي ملون. والسـماءِ ذات (الْحُبُكِ)، أي المحبوكة.

حق السائل والمحروم

(وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ: لِلسَّائِلِ، وَالْمَحْرُومِ)(٧١).

هــل كل ما وضعت عليه يدك، ونشــرت عليه ســلطانك، فهو ملك لك، ويحق لــك التصرف فيه كما تريد؟

كلا...

لا بد من أمرين:

الأول: أن يكون الســلطان عليه شرعياً. فالســيطرة على الأرض والمال والإنسان، بالغلبة، تعني الإقطاع والاغتصاب والاستعباد. فوضع اليد على الشيء، لا يؤدي إلى الملك إلا إذا تم بالوجه الشرعي.

فإن ســلطانك على نفســك وأولادك ومالك، لا يبرر لك التحكم فيها كما تريد. وربما تســتطيع بســط ســلطانك على بلد وشــعب وربما قارة وأمة، ولكن ذلك لا يجيز لك أن تفعل بها ما تشــاء. فجميع شرائع السماء، وقوانين الأرض تظافرت لتقول لك: عليك أن تتصرف في أشياء معينة، وبشكل معين:

(...تِلْكَ: حُدُودُ اللهِ، فَلا تَعْتَدُوها. وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)(٧٢).

فأول ما يقع تحت ســلطان، جسمك. ولا يجز لك تشويهيه، أو التخلص منه بالانتحار. لأنه أمانة لديك. ولا يجــوز تصريف الأمانة إلا في وجههــا. وهكذا... زوجتك، وأولادك، وكل مــا تتولى عليه، ومن تتولى عليه.

والمال الذي يقع تحت يديك ـ وإن حصلت عليه بالطرق الشرعية، وأصبح ملكاً بلا منازع ـ فلا يحق لك كنزه، أو اســتهلاه في رغباتك. وإنما لك ـ منه ـ ما يكفي لضروراتك، وكمالياتك ما لم تبلغ حد الإسراف، كمــا قال أمير المؤمنين (عليه الســلام): (ليس لك إلا ما أكلت فأفنيت، وما لبســت فأبليت...)(٧٣)، أي: بمقدار ما توفر أنت على الموظف الذي تســتخدمه لتصريف أعمالك، كما في الحديث القدســي: (الأغنياء وكلائي)(٧٤).

فالمال الذي يأتيك في القنوات السليمة، ليس كله لك أنت وحدك، وإنما فيه الضرائب الشرعية: الأخماس والزكوات والكفارات... ثم فيه لاثنين:

١ـ السائل، الذي يتعرض لك، ويطلب منك ـ وإن كان موفوراً ـ فله حق الطلب.

٢ـ المحروم، الذي يكون معدوماً، ولكنه لا يتعرض لك، ولا يطلب منك ـ لأسباب شخصية، أو وقتية ـ فعليك أن تسعى إليه.

ولعل الفارق بينهما: أن الأول يجد، ويطلب المزيد. والثاني لا يجد، ولا يطلب، وكلاهما شريكان معك في مالك.

وربما نستطيع أن نستنتج من ذلك، أن مالك قسمان: مالك الخاص، وهو ما يفي بضروراتك وكمالياتك الشخصية. ومالك العام، وهو ما زاد على ذلك. وقد ائتمنك الله عليه، لتساهم به في حفظ المعادلات الاقتصادية، وتشجيع الخدمات الاجتماعية.

فلسفة العبادة

(وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ) (٧٥).

فالله تعالى ـ خلق الخلق بلطفه الذاتي الذي يقضي بالفيض المطلق بلا سابق استحقاق، فأفاض نعمة الوجود على ما أراد خلقه، فوجد بلا سابق استحقاق لنعمة الوجود، فوجدت الموجودات التي منها الجن والإنس، اللذين يؤخذان كنموذجين لها.

وكل خلق ـ في ابتداء تكونه ـ غامض: غموض الشجرة في البذرة، وغموض المعدن قبل نضوجه في التراب... وكل شيءٍ لا ينقص غموضه إلا بتعرضه للتجربة: فالشجرة لا تنهض من البذرة لا بتجربة الأرض، والماءِ، والتراب، والحرارة، والهواء... والمعدن لا يتلاحم من عناصره إلا بلفح الشمس وسكوب المطر... والجن والإنس لا يتفتحان إلا بعبادة الله... فالعنصر الطيب ـ منهما ـ يسير في خط الانقياد لإرادة الله، حتى يبلغ قمته، فيكون منسجماً مع الجنة، التي هي الحياة السليمة التي لا تشكو التناقض والارتباك. والعنصر الخبيث ـ منهما ـ يسير في الانفلات عن إرادة الله، حتى يبلغ قمته، فيكون منسجماً مع جهنم، التي هي الحياة الفاسدة التي كلها تناقض وارتباك.

فالذي هو مركب النزوات الطائشة، لو دخل الجنة، لسخر الطاقات الهائلة الموضوعة تحت تصرفه، للسطو والبطش، فأفسد الجنة. والذي روض نفسه بالتقوى، حتى تحولت نبضاته تسابيح، لو دخل جهنم، لأطفأها بتكبيرة صادقة.

فالله خلق الجن والإنس ـ في هذه الدنيا ـ ليعبدون. لا تكريماً لله، فالله أغنى من أن يكرم، وهل يمكن أن يكرم الخالق بعمل خلقه؟! ولا ليعرفهم، فالله أعلم من يعرّف على شيء، وهل يمكن أن يجهل الخالق خلقه حتى يعرّف بهم؟! وإنما ليروضوا واقعهم بالانقياد لإرادة الله، وحتى يكونوا منسجمين مع الحياة السليمة الخالدة، فينالوا ـ من فيض الله ونعمه ـ بمقدار ما يمكنهم الاستيعاب.

فإذن: خلق الله لخلق ـ في هذه الدنيا ـ ليعبدوه، وبالضبط: ليعبدوه:

وإذن: لسنا بحاجة إلى تفسير: (ليعبدون) بـ: (ليعرفون). فالعبادة هي التي تطور الخلق، وليست المعرفة وحدها، فالمعرفة وحدها، فالمعرفة ـ مع إرادة الالتزام ـ هي التي تنمي العارف، أما المعرفة المجردة من إرادة الالتزام، فتركس العارف، للزوم الحجة عليه.

(٥٢)

سورة الطور

مكية وهي تسعة وأربعون آية

(٥٣)

سورة النجم

مكية وهي اثنان وستون آية

عصمة النبي الأكرم ‹صلى الله عليه وآله وسلم›

(وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى)(٧٦).

.١.

النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بشر فيه نفخة من السماء، وفيه قبضة من الأرض.

ولكن: نفخة الله في النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم تكن روحاً منه، كما كانت نفخته في عيسى بن مريم (عليه السلام):

(... وروح منه...)(٧٧).

ولم تكن من روحه، كما كانت نفخته في آدم (عليه السلام):

(...وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي...)(٧٨).

وإنما كانت نفخة الله في النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نوراً اشتقه الله من نوره، كما في الحديث عنه: (أن الله أشتق نوراً من نوره، فأودعه في صلب آدم)(٧٩).

ولم تكن قبضة من الأرض في النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) (من حزن الأرض وسبخها) ـ كما في سائر الناس ـ ، وإنما كانت من صفوة الأرض.

فنور الله يتحرك في النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وصفوة الأرض تتحرك فيه، ولكن نور الله يحكم الأرض ويقننها. فمركب الأرض لم يعطل في النبي، وإنما بقي متحركاً بأقصى ما تتحرك الأرض في بشر فكانت بنيته الجسدية أقوى تتفجراً وأشد مناعة من غيره، وبمركب الأرض كان يأكل ويشرب وينام ويعاش... وتيار الأرض لم يشل في النبي، وإنما بقي الصراع فيه متحمساً بأعنف وأجمع ما يكن الصراع في بشر، ولكنه كان محكوماً بنور الله، لأن نور الله أقوى من مركب الأرض.

ولو عطل مركب الأرض في النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وخبا فيه الصراع، لكان في عداد الملائكة الذين لا يمكن أن تكون لهم الأفضلية مهما عملوا، ولم تكن معنى لعصمته. وإنما نتجت أفضليته، من أقوائية حركة الأرض فيه وسيطرته عليها.

فنور الله في النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كالسِّد المكين الذي يستقبل الطوفان الساحق ليقهره، ويذلله في المجاري التي تحيي ميت البلاد. وهذه التركيبة جعلته تجربة قاسية إلى أبعد آماد الاحتمال، واحتماله لها ـ بنجاح ـ جعله نادراً إلى أعلى درجات الإمكان.

وذلك النور في النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، هو هوية: (رسول الله) و(خاتم النبيين). وذلك النور هو الذي نظم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): فما يعبر عن مركب الأرض، (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى)

البشـــري، وما يتحرك بالغرائز المشحن بها، وما ينطلق عن عقلية الأرض، ولا عن علوم الأرض، قبل أن يزكيها تمحيص الســـماء. (إِنْ هُوَ): نطق النبي (إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى) به إلى النبي (صلى الله عليه وآله وســـلم)، فلا تصنيف في أقواله: بأن هذا... صدر منه بصفته الرسمية، وذاك... صدر منه بصفته الشخصية، ولا استفهام عليهـــا: هل هذا... وحي من قبل الله أم ليس وحياً؟ بل كلها... مقدســـة، تؤخـــذ بصفتها وحياً قاطعاً يرفض التردد والتأمل.

وهذا... لا يعني أن كل حرف صدر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان وحياً مباشراً نزل به (جبرئيل) من الله، فالنبي (صلى الله عليه وآله وســـلم) لم يكن (جهازاً حاكياً) يوصل إلى مســـامع الناس الوحي الذي يعجزون عن استقباله فما كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مجرد أداة لاستقبال ذبذبات السماء، ولا كان مجرد صدىً لـ(جبرئيل)، وإنما كان أذكى الناس وأقدرهم عن استيعاب إرادة الله وتنظيرها.

ومـــا كان الله ليحبط قدرات نبيه ويحوله إلى مجرد أداة، وإنمـــا كان الله ليحرك مواهب نبيه الأمين. فرباه تربية لائقة به، ومنحه مقاييس الكون والحياة، ثم خوله صلاحية التحرك في نطاق تلك المقاييس: فقد (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى)، وألهمهم علماً أحاطه بكل ما يمكنه من استنباط ما يؤمن تقنين الحياة، وعصمه من الانهيار والارتبـــاط حتـــى لا يزل بقصد أو بدون قصد. فليس كل قوله وحياً، وإنما انطلاقاً من موقع الوحي: وإلا لما كان (فعله) و(تقريره) حجتين إلى جانب (قوله)، وإلا لما كانت (السنة) إلى جانب (الكتاب). فالنبي (صلى الله عليه وآله وســـلم) (حجة الله) على خلقه، لأنه الصيغة البشـــرية لإرادة الله، فلا يقول ولا يفعل ولا يقرر شيئاً إلا مطابقاً لإرادة الله، ومن هنا... وجدت السنة. ثم كان الكتاب: مدداً للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من جهة، وسنداً دستورياً للأجيال من جهة أخرى، ومعجزة خالدة للأبد من جهة ثالثة.

فالنبـــي (صلى الله عليه وآله وســـلم) لم يكن ـ عند الله ـ أقل من (مجتهـــد) يربى تربية فقهية معينة، ثم يخـــوّل صلاحية إصـــدار الأحكام وفق اجتهاده. ولا كان النبي (صلى الله عليه وآله وســـلم) ـ عند الله ـ أدنى من (حاكم) يربـــى تربية قانونية معينة، ثم تخول صلاحية معالجة الأمور وفق اجتهادهم. وإلى هذا... يهدي الحديث الشـــريف: (إن الله أدب نبيه بتأديبه، ففوض إليـــه دينه، يحلل ويحرم)(٨٠)، فالنبي (صلى الله عليه وآله وســـلم) هو... هو... الذي يحلـــل ويحرم، ولكن لا تعبيراً عن هوى مركـــب الأرض فيه، وإنما تنظيراً للمقاييس المرتكزة في وجدانه بنور السماء. كما أن (المجتهد) هو الذي يصدر الأحكام، وكما أن (الحاكم) هو الذي يعالج الأمور، ولكن لا تنفسياً عن رغبة كيفية، وإنما تطبيقاً لتربية فكرية معينة.

- ٢ -

س: التعبير عن (الهوى) مذموم، سواء أكان بالنطق أو بالفعل فلماذا تخصيص النطق؟

ج:

١ـ لعل المراد مطلق التعبير، وخصص النطق بالذكر لأنه أبرز وسائل التعبير.

٢ـ لعل المراد النطق وحده، لأنه السبب: فالملتزم في كلامه يضطر إلى الالتزام في عمله، والمنفلت في كلامه ينفلت في عمله.

٣ـ لعل المراد النطق دليلاً وغيره مدلولاً، إذ يمكن كتمان كل الأعمال أو تفسيرها، ولكن النطق هو العمل الذي يرفض الكتمان والتفسير.

وعلى العموم: لا يمكن فصل اللسان عن بقية الجوارح، لأنها ـ جميعاً ـ معبرات عن القلب: فمن انضبط قلبه انضبط لسانه وجوارحه، كلها، ومن أنساق قلبه أنساق لسانه وجوارحه كلها.

٤ـ ربما يكون المقصود النطق وحده، لأن الآيات في مورد الرد على الذين كانوا يناقشون بعض أقوال الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم): أنها منه أم من الله؟

س: النطق عن الهوى، أو مطلق التعبير عنه، مختص بالرعاع الذي لا مسكة لهم من عقل أو دين. وأما أهل الحنكة والحكمة فيتحرجون منه، فكيف بأهل التقوى والمعرفة. وهو أدنى ما يشترط (عدول المؤمنين)، فليس مثله فضيلة لمثل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)؟

ج:

١ـ الحكماء والمتقون قد يزلون فينطقون عن الهوى، وأهمية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه معصوم، فلا ينطق عن الهوى فنقل القرآن كلامهم ـ بعد إضافة حرف النفي عليه ـ للتطابق بين التهمة ودحضها.

الهوى إرادة النفس، سواء أكان المهوي محموداً أم مذموماً، وغلب عليه المذموم، فالذي يتبع إرادة نفسه لا يعني ـ حتماً ـ أن يكون على ضلال في كل شيء، لأن إرادة النفس كثيراً ما توجه إلى الخير، ولكنه معرض للسقوط، لأن الإنسان لا يحيط بكل جوانب الأمور. فإذا انطلق من إرادة الله يكون على خط سليم، وإذا أنطلق من إرادة نفسه يكون معرضاً للجواذب.

(فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ، أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ)(٨١).

(وَ) النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) (ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى)، وإرادة النفس التي تحددها مواهبه وثقافته الشخصية، رغم تفوقه في المواهب والثقافة. (إِنْ هُوَ) نطقه (إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى) إليه. فهو مسدد بالوحي، المعبر عن مصدر الواقع. فلا ينتابه: الخطأ، والسهو، والنسيان...

والوحي: اتصال مباشر، غير حاسي.

لأن الإتصالات ثلاثة:

١ـ اتصال بواسطة رسول، كاتصال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بواسطة (جبرئيل) أو غيره من الملائكة.

٢ـ اتصال بواسطة كلام يخلقه الله في بعض المظاهر الكونية، كالكلام الذي سمعه (موسى بن عمران) (عليه السلام) من الشجرة.

٣ـ اتصال بدون واسطة محسوسة، لا نعرفه بالضبط، فلا نستيطع أن نسميه (اتصالاً روحياً) كما لا نستطيع اعتباره (اتصالاً جسمياً). كل ما نعرف: أنه يختلف عن الإتصالين الأوّل والثاني، لأنه أردف بهما في قوله تعالى:

(وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ: وَحْياً، أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)(٨٢).

وهذا الاتصال ليس مهم مبهماً يتم في اللاشعور، ولا ضبابياً كالرؤيا. وإنما هو واضح بينّ، وربما أجلى من الإتصالات الحاسية، ولذلك: ورد ـ في الآية السابقة ـ قبل مرادفيه. ويمكن الاستدلال عليه بالحديث المشهور: (الرؤيا... جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة)(٨٣).

والوحي من فيض الله، فهو مستمر لا ينقطع، وموجود في مجالاته كما أن النور موجود في مجالاته ولكن المخلوقات الأرضية ليست مؤهلة لاستقباله، وربما يبلغ مخلوق لحظة متفوقة من الصفاء تؤهله لاستقبال الوحي، كالنماذج التالية:

(أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى...)(٨٤).

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ...)(٨٥).

(وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ...)(٨٦).

(...وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها...)(٨٧)...

وقلما يوجد في المخلوقات من تنتظم لحظاته المتفوقة حتى يستقبل الوحي بانتظام، كالأنبياء والملائكة المقربين، ولذلك: يصبحون وسائط بين الله ومخلوقاته.

أما أن يوجد إنسان يعيش ـ دائماً ـ لحظة التفوق القصوى، بحيث يكون دائِم الاتصال بالله، ويتابع الوحي بلا انقطاع، فمثل هذا الإنسان لم يوجد منه إلا فرد واحد هو النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي لم ينقطع، فلم ينطق إلا تعبيراً عن وحي.

ـ ٣ ـ

(الوحي) ليس بإرسال رسول، ولا هو من قبيل التكلم من وراء حجاب، لأنه مرادف لهما، وإنما هو نوع من الاتصال يتم بواسطة ـ لا نعلمها بالضبط ـ يمكن أن نسميها اتصالاً غير حاسي. وهذا الاتصال ليس اتصالاً مبهماً يتم في اللاشعور، وإنما هو واضح وصريح، وربما أجلى من الإتصالات الحاسية.

و(الوحي) من فيض الله، فهو مستمر لا ينقطع:

ولكــن قد يتفق أن يبلغ مخلوق لحظة متفوقة الصفاء، تؤهله لاســتقبال (الوحي) مرة واحدة، مثل قوله تعالى:

(أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى...)(٨٨).

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ...)(٨٩).

(وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ...)(٩٠).

(...وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها...)(٩١)...

وقلما يوجد في المخلوقات من تنتظم لحظاته المتفوقة حتى يستقبل (الوحي) كثيراً، كالأنبياء والملائكة المقربين ولذلك: يصبحون وسائط بين الله ومخلوقاته.

أمـا أن يوجد إنسـان يعيش ـ دائماً ـ لحظة التفـوق القصوى، بحيث يكون دائِـم الاتصال بالله، ويتابع (الوحـي) بلا انقطاع، فمثل هذا الإنسـان لم يوجد منه إلا فرد واحد هـو النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي لم ينقطع، فلم يتكلم بشيء إلا تعبيراً عن (وحي).

السعي الإنساني

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسانِ إِلاَّ ما سَعى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى. ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الأَوْفى)(٩٢) .

-١-

ما هو الإنسان؟

واضح: أن الإنسان أكبر من هذا الكيان الأرضي، أكبر من هذه الكتلة الصغيرة من العناصر الترابية المركبة تركيباً بشرياً، إنه... ذلك اللقاء الفريد بين رغبات الأرض ونفحات السماء، وهو بروحه المتنقلة بين العوالم أكثر مما هو بجسـده المزمن على الأرض، فهو ليس أكثر من زورق مرحلي يجتاز بحيرة الدنيا. ولذلك: لا يقيّم بوزنه، وإلا لكان (الثور) أثمن منه. ولا بلونه، وإلا لكانت (اللوحة الفنية) أثمن منه. ولا بشجاعته. وإلا لكان (الأسد) أثمن منه. ولا بقوته، وإلا لكان (الفرس) أثمن منه. ولا بسائر مزاياه الجسدية، وإلا لما وجدنا أصحاب المزايا الجسدية في (الشوارع) وفاقدي المزايا الجسدية على (مقاعد الرئاسات).

وإذا كان الإنسان لقاء الأرض بالسماء، فماذا له من الدنيا؟

لأن السـنخية ملحوظة في المالكية والمملوكية، فكما أن الحجر لا يعتبر أعمى ولا بصيراً، لأنه من باب (العدم والملكة)، كذلك: الحجر لا يعتبر مالكاً لمن جلس عليه، والماء لا يعتبر مالكاً للسمكة التي رباها، هكذا... كلما ليس من سـنخ الإنسان ليس ملكاً حقيقياً للإنسـان. وإذا كانت شرائع السماء اعتبرت الإنسان مالكاً لأشـياء ليست من سـنخ الإنسـان، فإنما الملكية فيها اعتبارية، لمجرد تقنين سيولة الحياة، وتدويل الأشـياء بين الأفراد بشـكل يضمن تلبية حاجات كل فرد بلا صراع. والاعتبـارات التي توضع لتصريف

الحياة بين الأحياء: تشبه الرموز التي يتفق عليها الأفراد ـ أو الجماعات ـ وسيلة لتبادل المعلومات، وتشبه اللغات التي تختلف من شـــعب إلى شـــعب، وتشبه الأوراق النقدية التي تقرر وتلقى بقرارات الحاكمين في الأسواق. فهي ليست أشياء واقعة قائمة بذواتها، وإنما هي مقررات مرتبطة بإرادة من له صلاحية إصدار مثل هذه المقررات.

فملك الإنســـان، لا بد أن ترتبط به سنخياً، فكلما يجزئ الإنسان، فيجعله أرضاً بلا سماء أو سماءً بدون أرض، فليس ملكاً للإنســـان، بل هو ســـكين تمزقه وتذهب بقيمته. إذ ليس للأرض وحدها. ولا للســـماء وحدها، القيمة التي للإنسان بصفته لقاء الأرض بالسماء.

فالمنصب، والشـــهرة، والرتبة، وكلما يشـــجع أنانيته...، ليس ملكاً له، لأنـــه يقوي فيه رغبة من رغبات الأرض من أجل تقليص دور الســـماءِ فيه. والمثاليات الموغلة في التقشـــف ليست ملكاً له، لأنها تقوي فيه نفحة من نفحات السماء على حساب رغبة من رغبات الأرض من أجل تذويب الأرض فيه.

وأما الأموال: الأرض وما تحمل وتثمر، فإنما هي أشـــياء مســـتقلة عن الإنســـان وقائمة بازاء الإنسان، فلا يملكهـــا، بل يمر بها مروراً، وإذا كانت الاعتبارات الدينية ـ أو القانونية تعطيه صفة (المالك) لبعض الأرض وما تحمل أو تثمر، فإنما تســـتغل طاقاته لإدارتها. لأنها ـ في الحقيقة ـ لا منحه إلا نوعاً محدوداً من حرية التصرف فيما تسميه (ممتلكاته)، مقابل استنزاف الكثير من اهتمامه وجهوده في إدارتها، فتأخذ منه أكثر مما تعطيه. ولو كانت الســـنخية بين الجانبين، لكان ما يسميه (ممتلكاته) هي التي تملكه لا هو الذي يمتلكها، لأنها تستخدمه أكثر مما هو يستخدمها.

وأما الأولاد، فلا يملك تجاههم ســـوى المسؤولية القاســـية بدون مقابل يذكر، وكثيراً ما بدون أن يتوقع أي مقابل أو يفكر فيه.

أما لماذا يندفع الإنسان لاكتساب ما يشجع فيه رغبات الأرض أو يقوي فيه نفحات السماء؟ ولماذا يحاول اقتناء الأموال وإنجاب الأولاد، رغم أن مجملها ليس في صالحه؟

فلك بدوافع كونية غرســـها الله فيه لتسيير عجلة الحياة، ولولاها لتهرب الإنسان منها ـ ما وسعه ـ ، حتى ولو فرضت عليه بالشرع أو القانون:

(إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)(٩٣).

إذن: فماذا يملك الإنسان؟

إن الذي يملكه الإنسان هو ما يكون من سنخه، فينميه بصفته لقاء الأرض والسماء، وذلك: هو سعي الإنسان. لأن صعيه تحركه، وتحركه ملكه. لأن الحركة تفتح ذاتياته المتحرك، وتفتح لها المجالات لتسير نحو التكامل، وتأخذ مداها فتبلغ بصاحبها قمته.

فسعي الإنسان هو الشيء الوحيد الذي يملكه في الحياة، لأنه يصدر منه ويعود إليه، فهو المصدر والمصب لسعيه، فهو له حقيقة:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسانِ إِلاَّ ما سَعى). فسعي الإنسان ـ سوءاً أكان لبناء نفسية أو لبناء غيره ـ فهو لنفسه وخاص بها. فليس للإنسان غير سعيه، وأما سعيه فهو له.

ولنك سعي الإنسان كثيراً ما يبدو ضائعاً، لأنه كثيراً ما يتوقع من سعيه نتائج لا يسفر عنها، ولكن نظرة موضوعية تثبت أن شيئاً من سعي الإنسان لا يضيع:

ـ١ـ

أـ لأن المجرد السعي حركة، والحركة تنمي المتحرك، حتى لو لم تكن لها نتائج إيجابية متوقعة. لأن طاقات الروح تشبه طاقات الجسد، في أنها تنشط بالممارسة وتتضاءل بالإهمال، فمثلاً: الذي يدرس يصقل علمه، والذي يبذل المال يغذي موهبته من الكرم، والذي يرشد الآخرين يعمق في ذهنيته المفاهيم التي يخلعها عليهم... ولعل إلى هذا المعنى يوحي الحديث: (ضع المعروف في أهله وفي غير أهله: فإن كان أهله فكفاك ذلك، وإن لم يكن أهله فأنت أهله)(٩٤).

ب ـ إن كل إنسان: فرد من الأفراد، واقف في مصاف الآخرين لبناء نفسه. أما إذا تأهب لاستقبال الآخرين وبناءهم ـ من آية ناحية من النواحي ـ فإنه بنسف هذا التأهب يخرج عن مصاف الآخرين ويغدو فوقهم، لأنه يفكر تفكيراً أعلى من تفكيرهم. فمجرد هذا التفكير خير رفعه فوق الآخرين، وعمل من أعماله النفسية، كما في الحديث النبوي: (نية المؤمن خير من عمله)(٩٥)فإذا نفّذ ذلك التفكير وقام بأي عمل، فإنه ـ قبل أن يصل عمله إلى الآخرين ـ وسّع وجوده، فخرج عن كونه فرداً واحداً، وأصبح ـ بمفرده كثيراً بعددهم: فإذا عمل لعشرة كان عشرة، وإذا عمل لألف كان ألفاً وإذا عمل لأمة كان أمة:

(إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً...)(٩٦).

٢ـ إن الإنسان قد يعلّم غيره، فلا يؤدي له ـ مستقبلاً تحية المتعلم إلى معلمه. وربما يحسن إلى سواه، فلا يشكره على إحسانه... فيظن أنه وضع المعروف في غير أهله، وأن سعيه قد ضاع. بينما الواقع:

أـ أنه قلما يوجد الذي يتلقى المعروف ثم ينكره أبداً: فإذا رفض الاعتراف به في موقف فسوف لا يرفض الاعتـــراف به في مواقف. وإن أنكره في وجه عامل المعروف فقلما ينكره وراء ظهره... غير أن الذين يعملون المعروف ـ غالباً ما ـ يتوقعون من الشـــكر أكثر من معروفهم، ويتوقعون الشـــكر ـ ممن تلقى منهم معروفاً ـ في كل موقف ومناسبة حتى ولو كان على بعض حساباته، ويؤذيهم أن يكون شكره أقل مما يتوقعون حتى ولو كان ـ في تقديره ـ أكثر من معروفهم. وهؤلاء ـ في الحقيقة ـ لا يعملون معروفاً إنما يشـــترون الشـــكر، بما يحلونهم أن يســـمونه معروفاً لاستدرار المزيد من المعروف باعتبارهم من العاملين بالمعروف، فيرابون باسم المعروف. بينما المتاجرة ـ أو المراباة ـ بالمعروف تشوّهه، فتخلع عنه طبيعة المعروف، وتقمّصه طبيعة الخيانة أو الخداع. أما المعروف بالحق، فهو الذي يصدر للمعروف ـ أو قربة إلى الله تعالى ـ بدون توقع جزاءٍ فينقلب تجارة، أو توقع شكور فتفسده السمعة، أو تذكر قصد المباهاة فيخبطه الرياء.

ب ـ إن الذي تلقى المعروف، إن لم يقف من عامله الموقف المناســـب، فإن ذلك المعروف لا يضيع لأن غيره سيقف من عامل المعروف موقف التقدير، الذي يعوّض ما فاته ممن تلقى منه معروفه: فما ضر (حاتم الطائي) أن لا يشـــكره من أكرمهم، وســـائر الناس يشـــيدون بكرمه حتى اليوم؟! وما ضر (الأنبياء) أن تلتف حولهم حلقات من الأشواك البرية، بعد أن دخلوا عقول الناس وقلوبهم من أوسع أبوابها؟! ثم مَنْ مِن الذين دخلوا التاريخ كان مسروراً ممن وضع معروفه فيهم؟!

ولكنه دخل التاريخ بمعروفه ذلك، رغم نكران من تلقوه منه.

ج ـ إن أكثـــر الذين يتلقون المعـــروف من غيرهم، إنما هم الذين يشـــكون نقصاً يحوجهم إلى معروف غيرهم. وهم من الدرجة الثالثة، التي لا تقدم ولا تؤخر. وفيهم أصحاب: العقد، ومركب النقص، أو العظمة، أو الجهل المركب، أو سائر التركات الثقيلة التي تولدها الحاجة.

ومن يعاني من داخله، لا يصح أن يتوقع منه القيام بواجباته كاملة تجاه الآخرين. فهم ـ غالباً ـ دون الناس العاديـــن. والمفروض في عامل المعروف أن يكون فوق العاديين، فإذا توقع أن يبادلون معروفه بأفضل منه، فقد أراد لنفسه أن يقف موقفهم وأن يقفوا موقفه، وهذا... ما لا يكون. فعليه أن يحاول البقاء في موقفه قبل أن يحاول تغيير موقفهم، حتى لا يخيب.

٣ـ لا يوجد في الدنيا شيءٌ ضائع، فكل شيءٍ يبقى ويفتح مجراه إلى مركزه، فإذا ضيعناه ـ نحن ـ فقد

أخطأنـــا مجراه، فعلينا أن نبحث عن مجراه قبل أن نيأس منـــه. فكما أن حبة المطر التي ترتمي في رمال الصحراء لا تضيع، وكما أن موجة الشـــعاع التي تنطلق فـــي الفضاء لا تضيع، بل تعاون حبات المطر حتى تعقد السيول والعيون، وتتكاثف موجات الشعاع حتى تربي الحياة وتؤلف الكواكب، كذلك: المعروف ـ إذا توالى ـ يتكاثف حتى يصبح شيئاً يمسك بالأنظار.

وإذا كان هنالـــك فـــارق بين معروف ومعروف في الفاعلية والتألق، فإنمـــا هو فارق في الدرجات، نتيجة لحجم ونسبة الدراسات التي أعدت له: فقد يصدر معروف ضمن خطة متكاملة، مسبوقة بدراسات استخدمت كل الظروف والملابسات لتنميته واستثماره، فيعطي عطاءً عِدّاً، كعمل المشتركين في معارك: داوود، وبدر، وكربلاء... وربما يصدر معروف يتيماً مرتجلاً، فيكون كوردة الصحراء، لا تعطر إلا جوها المحدود.

ـ ٢ ـ

هنالـــك تصوّر: أن الله يدخل المؤمنين الجنة لمجرد أنهـــم خافوا منه فأطاعوه، وأنه يدخل غير المؤمنين النار لمجرد انهم تمردوا عليه فعصوه. وهذا التصور متفرع من تصور أوسع: أن الله يأمر لمجرد الأمر، وينهى لمجـــرد النهـــي. وهذان التصوران خاطئان: فالله ـ تعالى ـ حكيم. والحكيـــم ليس أنانياً يعبد الذات من خلال تصرفاته، ولا كيفياً يعطي ويحرم بوساوس الخواطر.

فالله خلق الأسباب والمسببات ورتب المسببات على الأسباب، فخلاقه سلاسل متوالدة ومتفاعلة، ثم أبى أن يجري الأمور إلا بأسبابها، فكما خلق وصرف الكون بإجراء المسببات على الأسباب، كذلك خلق وصرف ما وراء الكون بإجراء المسببات على الأسباب.

ـ ٣ ـ

ليس للإنســـان شـــيء بالمعنى الحقيقي للملكية، إلا سعيه. لأنه يســـتطيع أن يوجده وأن لا يوجده، فهو يملكه ملكاً حقيقياً. وهو الشيء الوحيد الذي يملكه.

وسعي الإنسان ثابت، لأن سعي الإنسان ـ صوتاً أو حركة ـ يبقى محفوظاً في أرشيف الكون: فالأصوات موجات ثابتة في الهواء، والحركات تنطبع صوراً في الذرات المحيطة بها.

ولكننا لا نراها الآن، لأننا لسنا مجهزين بالعيون ـ أو الأدوات ـ القادرة على استيعابها. ولكنها سوف ترى: في الآخرة، لتطور العيون فيها. أو ـ حتى ـ في الدنيا، إذا تطورت الأدوات المساعدة على الرؤية.

(٥٤)

سورة القمر

مكية وهي خمسة وخمسون آية

(٥٥)

سورة الرحمن

مدنية وهي ثمانية وسبعون آية

النعم الكبرى

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ :

الرَّحْمَنُ

عَلَّمَ الْقُرْآنَ

خَلَقَ الإِنْسَانَ

عَلَّمَهُ الْبَيانَ)(٩٧) .

-١-

هذه السـورة تتخصص بظاهرة تحبيب الله إلى الناس في استعراض نعم الله على الإنسان، وتفصيل تلك النعم فصولاً تختتم بالسؤال الاستنكاري الشامخ: (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟!). ويختلف تقاطع عرض النعم بهذا السؤال بمقدار يمكن فكرة السورة في النفوس: فالفصل الأول طويل، أعطته السورة مدىً كافياً ليتحكم في إيحاءه برهاوة، ثم يتدرج الفصل إلى أقصر... فأقصر... ويتوالى السؤال، حتى يصل الفصل الواحد إلى

كلمة واحدة: (مُدْهامَّتانِ). وهذه الطريق العلمية في استثمار الإيحاء الموجّه.

والفكرة الجامعة بهذه السورة هي: تحبيب الله إلى العباد ابتداءً من افتتاحها: فبعد: (بِسْمِ اللهِ) تأتي الكلمات: (الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. الرَّحْمنِ رحيم). بين: (الرَّحْمنِ) و: (الرَّحْمنِ).

وفكرة تحبيب الله إلى العباد، إحدى القواعد الإيمانية الثلاث التي يرتكز عليها القرآن، وهي:

١ـ قناعة العقل.

٢ـ قناعة القلب.

٣ـ قناعة الجسد.

لأن الإيمان ليس قناعة العقل نتيجة الأدلة المنطقية فحسب، وإنما هو: جماع الإذعان بالعقل والقلب والجسد. لأن الإنسان ليس هو المخ فقط، وإنما هو: المجموع الإجمالي المتداخل للمخ والقلب والأعضاءِ. فإيمانه هو: إيمان كله، لا إيمان بعضه.

وإيمان القلب ـ بتكريس العاطفة الله ـ لا يتم إلا بـ :

١ـ بيان صفات الله المثيرة للعاطفة، كـ(الرَّحْمنِ) و: (الرَّحِيمِ).

٢ـ عرض نعم الله على العباد.

فترى الكثير من آيات القرآن مكرسة لهذا العرض، ونجد تخصيص بعض سورة، أو كل سورة، لهذا العَرض: كسورة الفاتحة، وهذه السورة، وسورة قريش.

فكان افتتاح هذه السورة بـ : (الرَّحْمنِ) للتدليل على أن هذه السورة عرض لمظاهر رحمة الله على العباد.

ثم ابتدأ العرض ببيان النعم الكبرى:

١ـ (عَلَّمَ الْقُرْآنَ): والقرآن مظهر دستوري لجانب من نظام الكون، هو: الجانب الذي يتناول الجزء الاختياري من عمل الإنسان.

لأن الله ـ تعالى ـ وضع للكون نظاماً دقيقاً قوياً، شد كل الكون ـ بما فيه الإنسان ـ شداً محكماً، نجد مظهره في كل ما استطعنا استيعابه من الموجودات الكونية:

(وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ، صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ)(٩٨).

ولعمل الإنسان ـ كموجود كوني ـ جانبان:

جانب إجباري يتم بدون إرادته، فيولد في يوم، ويموت في يوم، وتتحرك الدورة الدموية في جسمه بشكل، وتتفاعل خلاياه بشكل... ويأخذ هذا النظام مجراه إلى كون الإنسان، بإرادة الله الذي أحكم فيه نظامه، رضي الإنسان أم أبى.

وجانب اختياري أتاحه الله للإنسان، وخيّره بين الفعل والترك، وبين الأضداد والمتناقضات... ليمارس الإنسان ذاتياته ـ من خلال إرادته الحرة ـ فيكشف هويته الغامضة على عمقها، ويبلغ قمته (على أي خط كان) فيرتفع في سلم الخير إلى الجنة، أو ينحدر في مزلق الشر إلى النار.

ولعل الإمام الصادق (عليه السلام) أشار إلى هذا الواقع يوم قال: (لا جبر ولا تفويض، ولكن منزلة بين المنزلتين، وهي: صحة الخلقة، وتخليه السرب، والمهلة في الوقت، والزاد مثل الراحلة، والسبب المهيج للفاعل على فعله)(٩٩).

وعندما أتاح الله للإنسان الجانب الاختياري من عمله، أوحى إليه ـ بواسطة الأنبياء ـ بذلك الجزء من نظام الكون، الذي كان المفروض أن ينفذ فيه بدون إرادته لو كان الإنسان مجبراً. وهذا الجزء من نظام الكون، الذي لم ينفذ في الإنسان، وتركت له حرية ممارسته، والذي نزل على الإنسان بواسطة الأنبياء، هو: الدين الحق في كل زمان. وربما أن أكمل الأديان: هو الإسلام، كان القرآن الجامع الكامل لذلك الجزءِ من نظام الكون.

فالقرآن هو، مجموع من الضوابط الكونية الحرة، التي تحاول دمج الجزء الاختياري من الإنسان في الجزءِ الإجباري من الإنسان وفي بقية الكون.

وبما أن الإنســـان لا يمكن أن ينمو إلا بالقرآن، كما لا تنمو البـــذرة إلا بالنور والهواء والماء والتراب، كان القرآن للإنسان أغلى حتى من حياته، لأن حياته مقدمه لنموه، وحياته عبء لو لا إمكانية نموه. وهذا... يوجب تقديم تعليم القرآن على خلقة الإنسان رتبة.

وبما أن تصميم كل نظام يكون قبل إنشـــاءِ المنظم: فتصميم نظام المعمل يوضع قبل إنشـــاء قطع غياره، وهندسة البناءِ تكون قبل تجميع مواده... كان القرآن قبل الإنسان، لأن الإنسان من دون القرآن حيوان تائه لا يهديه حتى الغريزة الموجهة للحيوانات، وهذا... يوجب تقديم تعليم القرآن وجوداً.

لهذين السببين، قدمت نعمة تعليم القرآن على نعمة خلق الإنسان.

٢ـ (خَلَقَ الإِنْســـانَ): وهذه نعمة يثمنها كل إنســـان، ما عدا المنتحر عندما تضر به هيجة الارتباك. فيعجز عن تحمل نعمة الخلق.

٣ـ (عَلَّمَهُ الْبَيانَ): والبيان هو: تظهير ما في عمق الإنسان، عن طريق الكلام بواسطة جهاز الفم، أو الإشارة بواسطة سائر الأعضاء.

والبيان ـ بما انه جسر بين الفرد وبين نوعه، والقناعة الموصلة التي تكشف غموض الإنسان خلف جدران الجسم، وتعبير يعكس خواطر الإنسان على غيره ـ هو: الوسيلة الوحيدة لإخراج الإنسان من وحدته الخلقية إلى جماعيته الحيوية.

والبيان هو: العامل الوحيد لإخراج الإنســـان من عزلته، وســـبب لتكوين الحضارة، وتأمين كل الحاجات الضرورية والكمالية التي لا يمكن أن يؤمنها الفرد مهما قوى ونشط. فهو: ثالثة نعم الله الكبار على الإنسان، رتبة... ووجوداً.

فإذا التزم البيان بمسؤوليته، فعكس خواطر الإنسان الأصيلة كما هي ـ بلا تزييف... وبلا تكلف... ـ يأخذ كل شيءٍ حجمه الواقع، فيتناسق الإنسان مع الإنسان، وتتناغم عوامل الحضارة، فتكون حضارة واقعة يمتد بها الإنســـان خارج أبعاده الجسمانية، وإذا ألغى البيان مسؤوليته، فشوه خواطر الإنسان ـ تكبيراً أوتصغيراً... أو تبايناً... ـ يفقد كل شـــيء حجمه الواقع، فيتنافر الإنســـان والإنســـان، وتتناقض عوامل الحضارة، فتكون حضارة مزيفة، أو متكلفة، تربك امتداد الإنسان، وترد تطلعاته، وتوجّساته، إلى تصادمات وتوترات، حتى ينفجر ويفجر.

- ٢ -

هذه السـورة تعرض نعم الله على الإنسـان، وتكرر الاسـتفهام الإنكاري بين نعم ونعم، وربما بين نعمة ونعمة:

(فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟!).

فلماذا يعرض القرآن نعم الله على الإنسان؟ هل هو في مقام الامتنان؟ والله أغنى عن أن يعزِّز مكانته عند الإنسان بالامتنان.

والجواب: أن القرآن ـ ربما ـ يحاول إشاعة الإيمان في الإنسان. والإيمان ليس فكرة تكتمل بالأدلة العلمية... والمناقشات المخلصة... فحسب، وإنما الإيمان نشاط الإنسان نحو الله، أو هو: اتجاه الإنسان إلى الله.

والاتجـاه إلـى الله لا يتم بمجرد ارتكاز فكرة فـي العقل، وإنما هو: جميع فكـرة العقل وعاطفة القلب وممارسة الجوارح، فهو: نشاط العقل ونشاط القلب ونشاط الجوارح.

فالإيمان ليس في العقل والقلب فقط، وإنما هو في الجوارح أيضاً، فكما أن العقل وعاء للأفكار... وكما أن القلب وعاء للعواطف... كذلك: الجوارح أوعية للعمل.

والإنسـان ليس هـو العقل والقلب، وإنما هو العقـل والقلب والجوارح جميعاً. فـلا بد أن يمارس كل كفاءته، حتى يكون الإنسان قد مارس نشاطه، وتكرس في الاتجاه إلى الله.

ولذلك: أمرنا ـ في كل الأديان ـ بالعبادات الجوارحية، إلى جنب العبادات العقلية والقلبية.

فعرض نعم الله على الإنسـان يحبب الله إلى الإنسـان، وهذه المحبة هي: إيمـان القلب، الذي لا بد منه لاكتمال إيمان الإنسان.

فهذه السورة سورة المحبة، التي تكرست لإيجاد إيمان القلب الذي هو ثلث الإيمان.

وافتتحت بكلمة (الرَّحْمنُ) لتذكير الإنسان ـ منذ البداية ـ برحمة الله على الإنسان، ليتفتح قلبه في اتجاه

الخير المطلق الذي يبشر به افتتاح السورة بكلمة الرحمن، فتسهل إثارة محبته وتعبئته بالحب لله.

(عَلَّـمَ الْقُـرْآنَ): وجاءت نعمة تعليم القرآن قبل خلق الإنسـان، رغم أن الإنسـان ما لم يخلق لا يعلم، فالإنسان أسبق من العلم.

والجواب: أن القرآن أسبق من الإنسان، لأن الله هو: أكمل كتاب دين، والدين ليس مجرد طقوس تمارس... وشـعارات ترفع... وإنما هو: شريعة الإنسان مع نفسه، ومع غيره، ومع الله، ومع الكون. وشريعة الإنسان قبل الإنسان.

ولتقريب ذلك: لو شـبهنا الكون ـ بما فيه الإنسـان ـ بمعمل كبير، مؤلف من ملايين الأدوات المختلفة الأحجام والتراكيب، فالنظام الدقيق الذي يربط هذه الأدوات ببعضها بشكل قابل للحركة والإنتاج، لا بد أن يسـبق إنتاج أدوات المعمل، حتى تنتج كل أداة وفق الهندسـة الدقيقة التي تجعلها قابلة للانسجام مع بقية أدوات المعمل، وقادرة على العمل مع بقية أدوات المعمل لإنتاج ما يقصد من المعمل من خلالها.

وإذا كانت هندسـة المعمل قبل أدوات المعمل، وقبل المعمل ككل، فإن هندسة الكون ـ بما فيه الإنسان ـ كانت قبل إيجاد الكون.

وهندسة الكون ـ يخص صلاحيات الإنسان، أي: بالمقدار الذي أعطي حرية العمل ـ هذه الهندسة تسمى بالدين وبالشريعة، والقرآن يحتوي هذا الدين وهذه الشريعة.

فالقرآن هو: الصورة المكتوبة من هندسة الكون، فيما يخص صلاحيات الإنسان.

فالقرآن ـ كجزء من نظام الكون ـ كان قبل إيجاد الكون، وقبل إيجاد الإنسان.

فالقرآن الكوني، قبل الإنسـان. وتعليم القرآن الكوني للإنسـان ـ أي: إيجاد الإنسان بشكل ملائم لبقية أجزاء الكون ـ أيضاً سـابق على خلق الإنسان. فالله علّم القرآن للإنسان قبل خلق الإنسان بشكله المتكامل. أي: فطر الإنسـان، وهيأه، في عالم الأرواح... وفي عوالم الجزئيات... ـ التي سـبق إعطاءها صورة الإنسان ـ قبل إعطاء الإنسان خلقه الفعلي الكامل.

ثم: (خَلَقَ الإِنْسـانَ) فخلع على مجموعة متآلفة من الأرواح... والمواد... صورة الإنسـان، فأعطاها خلق الإنسان.

ثـم: بعد هاتين المرحلتيـن، وبعد هاتين النعمتين ـ (عَلَّمَـهُ الْبَيانَ). والبيان هـو: التعبير ـ اللفظي، والخطي، والعضلي ـ الذي يتم بحركة اليدين، والعينين، وسائر عضلات الوجه.

ونعمـة البيـان تعبر عن انطلاق الفرد ـ مـن واقعه المحدود ـ إلى المجموع، فتربـط الفرد بالمجموع، وبالشـكل الطبيعي المنسجم مع المجموع. لأن واقع كل فرد منسجم مع واقع المجموع البشري والكوني، لأن الفرد جزء منسجم من المجموع البشري والكوني. والبيان يعبر عن نوع الارتباط المناسب معه.

ولذلـك: حرِّم الكذب، لأنه يشـوه إرادة واقع الفـرد، فيربك ارتباطه مع غيره، ويأتي غير منسـجم مع المجموع البشري والمجموع الكوني.

وفي المثال السـابق: لو كان لكل أداة في المعمل بيان يعبر عن هوية تلك الأداة... وعن مكانها المناسـب والمنسجم. وإذا كذبت الأداة، فأنها تأتي في مكان يشلها، وربما يشل قسماً كبيراً من المعمل.

هكذا... الكاذب ـ عندما لا يعبر عن واقعه ـ يشـل نفسـه، ويشل معه الآخرين، لأنه يترك مكانه المناسب إلى مكان غير مناسب له.

الكون مقاييس دقيقة

(الشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ، بِحُسْبانٍ.

وَالنَّجْمُ، وَالشَّجَرُ، يَسْجُدانِ.

وَالسَّماءَ رَفَعَها، وَوَضَعَ الْمِيزانَ، أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ، وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ)(١٠٠).

(الشَّـمْسُ، وَالْقَمَرُ، بِحُسْـبانٍ): هاتان الظاهرتان الكونيتان، البادیتان لكل إنسـان... في كل مسـتوى... باعتبارهما ظاهرتين مسـتعليتين على كل قدرة، هاتان الظاهرتان مسـخرتان بحساب دقيق، فكيف بسائر الأشياء.

(وَالنَّجْمُ) هو: النبات الذي ليس له سـاق، (وَالشَّجَرُ) وهو: النبات الذي له ساق، كلاهما (يَسْجُدانِ) لله ـ باستمرار ـ في محراب الكون الكبير، لأنهما في غاية الخضوع للنظام الذي عهد إليهما بتنفيذه.

(وَالسَّـماءَ رَفَعَها، وَوَضَعَ الْمِيزانَ) فرفع السـماءِ بمقياس دقيق حكيم. وقد وضع الميزان لكل شـيءٍ، فلكل شيءٍ ـ مهما كان كبيراً... أو صغيراً... ـ ميزان ملتزم به.

كل ذلك: الرحمن علم القرآن وخلق الإنسـان، وعلمه البيان وجعل الشـمس والقمر بحسـبان، وجعل النجم والشـجر يسجدان، ورفع السـماء ووضع الميزان، كل ذلك: (أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ): حتى لا تتلاعبوا بالميزان، ولا تغيروا المقاييس التي قدّر بها كل شيءٍ.

(وَأَقِيمُـوا الْوَزْنَ بِالْقِسْـطِ): فأقيموا كل وزن بالعدل، و(وَلا تُخْسِـرُوا الْمِيـزانَ): فالكون كله ـ بظواهره الضخمة... والصغيرة... ـ سـخر بدقة وحسـاب، لينمو بينه الإنسـان نموه التكاملي بالحساب والعدل، وأن يخضع للحساب والعدل.

فائدة التكرار

(فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) (١٠١).

ما فائدة التكرار؟ وخاصة للكلمة المكتوبة التي يمكن مراجعتها، والوقوف عليها طويلاً، إن تعززت على القارئ، فلم يقدر على اسـتيعابها بالنظرة الأولى؟ وخاصة في هذا المستوى الرفيع، حيث الكلام وحي من مصدر الوجود لكل الأجيال إلى الأبد؟

١ـ إن الكلمة (وصلة) بين مصدرها وموردها، والنفس البشرية زاخرة في مورد العطاء... وواسعة في مورد القبـول... فالكلمـة الواحدة ـ إذا تكررت ـ تعطي في الإلقاءة الثانية شـيئاً غير ما أعطت في الإلقاءة الأولى، وتعطـي فـي المرة الثالثة عطاءاً ثالثاً. كما أن النظرة إذا تكررت تتنـوع إلهامها، وكما أن حركة الأصابع إذا تكررت ـ في الأعمال المغناطيسية ـ تتطور تأثيراتها.

٢ـ إن الكلمة (وصلة) بين المعنى والنفس المتلقية. والمعنى ـ أي معنى ـ منبع لا يسهل تحديده، والنفس ـ أية نفس ـ مصب لا يسهل تحديده. والكلمة ـ في كل إلقاءة ـ تنقل كمية من المعنى إلى النفس المستقبلة، تماماً... كالمضخة التي تحوّل في كل ضخة دفقة ـ بقدر كيلها ـ من المنبع إلى المصب، وكالربيع الذي يفجر ـ كل عام ـ دفعة جديدة من مواهب الكون، وكالليل الذي ينهي عالماً ويفتح عالماً آخر، وكالنهار الذي يبني دوراً أعلى فوق الدور الذي شيده النهار الماضي.

ومن البساطة بمكان قول النحاة: أن التكرار لا يفيد سوى التأكيد. صحيح: أن الإلقاءة الثانية تثبت عطاء

الإلقاءة الأولى، ولكنها تثبته نوعاً لا شخصاً، فعطاء المرة الثانية من نوع عطاء المرة الأولى لا ذاته.

فالتكرار يشـــحن النفس المســـتلهمة بالمزيد من المعنى والأثر، ولذلك: يقدَّ التكرار بقدر حاجة النفس المستلهمة إلى المادة التي تحملها الكلمة المتكررة.

وجميع البشر، وحتى الطبيعة ـ في جميع مظاهرها: الحيوانية والنباتية، والطاقوية، والماورائية... تستخدم التكرار، ليس في الكلمة والموجة الصوتية فحسب، وإنما في العمل أيضاً.

أما ترى أجيال البشـــر كيف تتوالى، ولا يكتفى ببشر واحد، أو جيل واحد؟ وأما تجد: الموجات الكونية كيف تتعاقب؟! وأشعة الشمس كيف تتدافع؟! وحبات المطر كيف تتنزل؟!

فالتكرار للمزيد، لا للتأكيد فقط.

الخوف المقدس، وتكريسه عملياً

(وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ)(١٠٢).

-١-

س: هل الخوف صفة حميدة، حتى يثاب عليه الإنسان بالجنة متكررة؟

ج: الخوف على قسمين:

الأول: خوف كاذب لا يجدي وعلى ما لا يستحق، وهو: الخوف المادي، كالخوف على: النفس، والمال، والجاه، والولد، وسائر ما يحرص عليه الإنسان في الحياة. وهذا الخوف:

أـ ليس خوفاً حقيقياً، وإنما ارتباكاً للأعصاب.

ب ـ ليس مجدياً، وإنما المجدي هو الحذر. وليس مجدياً دائِماً، وإنما بقدر.

ج ـ ليـــس حميداً، لأنه ناتج: إما من الحرص على ماله مدى، لاســـتمراره إلـــى أكثر من مداه. وإما من

الجهل بحقائق الأمور، وقوانين الحياة. وإما في عبادة الذات، فيما لا معنى لعبادة الذات.

د ـ ليس على ما يستحق، لأن الجسد ـ وعالمه ـ وكل توابعه ـ ليس شيئاً قيّماً: ذاتاً حتى يخاف عليه، وإنما قيمته من مدى خدمته للروح، فيحرز لهذه الغاية، ويدرج في التراب فور مغادرة الروح إياه.

الثاني: خوف صادق، يجدي وعلى ما يستحق. وهو: الخوف المعنوي، كالخوف على الروح من: ترك الواجبات، وارتكاب المحرمات، وسائر ما يتعلق بما وراء الحياة. وهذا الخوف:

أ ـ خوف حقيقي، وليس ارتباكاً للأعصاب... فيكمن تقييمه وفق مقاييس واضحة محددة، فيشبه الخوف من المخالفات القانونية، أو الصحية، أو الكونية... فإن هذه المخاوف لا تساوي ارتباكاً، وإنما تساوي رؤية نتائج سيئة صعبة الاحتمال، أو غير قابلة للاحتمال.

ب ـ خوف مجدي، لأنه يولد التقوى، والتقوى ينقذ من المخاوف المعنوية. فمن قيَّم الأمور تقييماً صحيحاً واجتنب الضار منها، نجا من مغبتها.

ج ـ خوف حميد، لأنه ناتج من تقييم الأمور. وتقييم الأمور قبل اقتحامها، من التعقل الذي يحمد عليه الإنسان.

د ـ وهو: خوف على ما يستحق الخوف عليه، وهو: (الروح) الذي هو الشق الأهم من الإنسان، بخلاف (الجسد) الذي ليس أكثر من وعاء ـ أو أداة ـ للروح. فالعصيان يؤدي إلى عطل ـ أو تخلف ـ في الروح الذي هو قوام الإنسان، عبر عوالم لا نستطيع تحديد مداواتها بثقافتنا المعاصرة.

٢ـ ما دام العصيان يؤدي إلى عطل ـ أو تخلف ـ في الروح، فالخوف عليه من العصيان ذاته، لا من الله. لأن الله لا يوجد في الروح عطلاً ـ أو تخلفاً ـ بلا سبب، حتى يخاف منه ذاته.

وعندما يقال: (الخوف من الله)، إنما يعني الخوف من تحدي نظامه، الذي جعله فوق قدرات الإنسان، فلا يتحداه إلا ويصطدم به، فيتحطم. فيكون من نوع التعبيرات القائلة: الخوف من الطبيب، أو من الأستاذ أو من النظام، أو من الشرطة، أو من الشعب... ويعني الخوف من النظام الذي يدعو إليه هؤلاء، لا منهم أنفسهم.

ولذلك: نجد التعبير القرآني هنا:

(وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ)، فالخوف لم يرد من الله، وإنما من مقامه.

وبذلك: ورد في المأثورة في مقام المناجاة مع الله: (جللت أن يخاف منك إلا العدل)(١٠٣).

٣ـ ومقـــام الله ليس مكاناً معيناً يخاف منه، فليس ـ كالمحكمة ـ مكاناً رهيباً تخلع لهوله القلوب، وإنما هو: حيث ينصب الله الموازين لمحاسبة الناس، حتى كأنه قام ليحاسبهم، أو حتى كأنهم قاموا ليحاسبوا، لا فرق. ومن هنا: كانت التعبيرات القرآنية بشكلين:

(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ)(١٠٤).

(يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ، وَالْمَلائِكَةُ، صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ: أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ، وَقالَ صَواباً)(١٠٥)...

وإلى جانبه

(هَـــلْ يَنْظُـــرُونَ إِلاَّ أَنْ: تَأْتِيَهُـــمُ الْمَلائِكَةُ، أَوْ يَأْتِيَ رَبُّـــكَ، أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّـــكَ؟! يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيـــاتِ رَبِّكَ: لا يَنْفَعُ نَفْســـاً إِيمانُها لَـــمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَـــبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً. قُـــلِ: انْتَظِرُوا، إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)(١٠٦).

(وَجاءَ رَبُّكَ، وَالْمَلَكُ، صَفًّا... صَفًّا...)(١٠٧)...

والمكان الذي نصب الله فيه الموازين، كل مكان من الدنيا والآخرة، فعمل الإنســـان متصل به، والإنســـان مقترن به، لا ينفصلان، فبمجرد صدوره ينعكس عليه. وإن كان انعكاسه في الدنيا بشكل وفي الآخرة بشكل آخر، فلا يعني أنه ينفصل عنه ويجمَّد إلى يوم القيامة.

وإنما كان التحذير من انعكاسه في الآخرة أشد، لأن ذات الانعكاس في الآخرة أقوى، حيث يسقط غطاء المادة، ويتحرر الروح، فيظهر بكل تفاصيله ودقائقه.

٤ـ وموازين الله، هي: (سلســـلة الأســـباب والمســـبَّبات) التي رتَّبها الله حســـب الخواص التي ركَّزها في الأشياء.

فلكل عمل أثر ينعكس على من يعمله، كما أن لكل شـــيء أثراً ينعكس على من يتناوله. فللحســـنات

آثار جســـمية... وروحية... تؤدي إلى تصعيد الإنسان ذاتياً واجتماعياً، وللسيئات آثار جسمية... وروحية... تؤدي إلى تسفيف الإنسان ذاتياً واجتماعياً.

ولا فرق في أصل الانعكاس بين الدنيا والآخرة، كما لا فرق في أصل خواص الأشـــياء بين مكان ومكان. فموازين الله قائمة في كل مكان... وزمان... تؤدي نتائجها. كما أن فعل الجاذبية، والشعاع، وكل شيءٍ... قائم في كل مكان، يؤدي نتائجه.

٥ـ ومـــن خـــاف مقام ربه، ليس كل ملتزم بالدين وإن كان عن تبعيـــة... أو قصور... وإنما هو: الذي عرف الموازين التي نصبها الله، فرتب مســـيره بينها، متجنباً حقول الألغام، وهو: المؤمن الملتزم عن وعي، وهو: الذي يســـتحق جزاءاً مضاعفاً. أما المسترسل بدون إرادة، فحسناته وسيئاته تعد لغيره أكثر مما تعد له، وفي كلا الحالين جزاءه محدود.

٦ـ فالمؤمـــن الواعي، له (جنتان): نعيـــم الدنيا، ونعيم الآخرة. فهو يعيش دنيـــاه بعيداً عن كل ما يحطم كيانه جسدياً... أو روحياً... وينال منها أروح ما ينال منها إنسان. ويعيش آخرته في مأمن من العذاب، موفور الرخاء.

ولعل الجنتين في الآخرة، لأن التعبيرات الدينية تفرغ كلمة: (الجنّة) ـ التي يبشـــر بها الصالحين ـ لنعيم الآخرة، ولا تعتبر نعيم الدنيا جنة مهما خلص من المنغصات، وإنما تعتبره: ســـجناً، وظلاً زائلاً، ومزرعة، وحلماً، وعرق خنزير في يد مجزوم... وأفضل التصويرات لنعيم الدنيا، وما ورد في قوله تعالى:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا: كَماءٍ أَنْزَلْناهُ، مِنَ السَّماءِ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْضِ، فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ. وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً)(١٠٨).

فلعل في الآخرة نوعين من الجنان ـ لا نعرف تفاصيلها ـ بشر الله بها المؤمنين الملتزمين عن وعي.

ـ ٢ ـ

دخل هارون في حوار مع زبيدة، وانتهى الحوار إلى أن حلف بطلاقها إن لم يكن من أهل الجنة. ثم: حار كيف يعرف أنه من الجنة، فاستدعى العلماء، فلم يجدوا له مخرجاً، حتى جاء آخرهم فقال: هل أنت تخاف الله؟ قال هارون: نعم، قال: ولمن خاف مقام ربه، جنتان.

هل خوف الله، وحده، يكفي؟

هل خوف مقام الله يوم القيامة للحساب، يكفي؟

هـــل معرفـــة الله، واليقين بـ : الموت، والحشـــر، والقيامة، وتطاير الكتب، والجنـــة، والنار، والميزان... يكفي؟

إذن: فإبليـــس على درجة عالية من معرفة الله، وعلـــى درجة عالية من اليقين بكل المعتقدات الصحيحة، وهي درجة: (عين اليقين).

ولا شك: أنه يخاف الله خوفاً عميقاً، لأن اليقين بالعقاب الشديد يؤدي إلى الخوف الشديد. ومع ذلك كله: لا شك أنه أشد الخلق عقاباً، أو من أشد الخلق عقاباً.

إذن: فالخوف من مقام الله، وحده، لا يجدي، إن لم يمارس عملياً، وربما زاد في العقاب، لأن المخالفة ـ مع المعرفة، والخوف ـ يؤدي إلى كون المخالفة إصراراً على المخالفة، والإصرار يجعل الصغائر كبائر. كما أن مجرد الخوف من الحكومات، لا يفلت المواطن من عقابها إن لم يمارس ســـلوكاً صحيحاً، وإلا اعتبرت مخالفتها عن عمد... وإصرار...

(٥٦)

سورة الواقعة

مكية وهي ستة وتسعون آية

(٥٧)

سورة الحديد

مدنية وهي تسعة وعشرون آية

الحياة الدنيا

(اعْلَمُوا :

أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا : لَعِبٌ ، وَلَهْوٌ ، وَزِينَةٌ ، وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ ، وَتَكاثُرٌ فِي الأَمْوالِ وَالأَوْلادِ .

كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً ، وَفِي الآخِرَةِ : عَذابٌ شَدِيدٌ ، وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٌ .

وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتاعُ الْغُرُورِ)(١٠٩) .

١ـ الحياة، لعلها من الوضوح بحيث يصعب تعريفها، ويمكن أن نقول: (أنها القدرة الواعية على الحركة والتفكير).

٢ـ والدنيا، من الدنو، وهو: القرب. فالدنيا صفة لموصوف، قد يستغنى عن ذكره لوضوحه، وهو: (الحياة). فعندما يقال: الدنيا، إنما يقصد: (الحياة الدنيا).

ومع إطلاق كلمة: (الدنيا) مجردة عن موصوفها أصبحت تنصرف إلى مجموعة المخلوقات المادية والطاقية، التي منها الفضاء وما فيه.

كما أن كلمة: (الآخرة)، أصبحت تنصرف إلى مجموعة الخلائق الروحية، التي منها الجنة والنار. مع العلم: بأن الانصراف الذي لا يستند إلى مبدء علمي، يعتبر (انصرافاً بدوياً) لا يصح الاعتماد على دلالته.

٣ـ والحياة الدنيا، تقابل بالحياة الآخرة، ولا شك أن الحياة الدنيا تشمل الفضاء، بكل ما فيه من منظومات ومجرات. ولا شك أن الحياة الآخرة تشمل عالم البرزخ، وما وراءه، حتى عالمي الجنة والنار. ولكن هل السماوات وما فيها وما وراءها، من الحياة الدنيا أو من الحياة الآخرة؟ هذا... ما لا ينبغي التسرع في البت فيه.

ففي بعض الأحاديث، ما يمكن الاستلال به على أنها من الحياة الآخرة، كأحاديث المعراج التي كشفت عن وجود الأنبياء الماضين فيها.

ويمكن نقض هذا الاستدلال، بأن العوالم قد تكون متداخلة، فأرواح أكثر الناس ـ بعد موتهم ـ لا تخرج من حدود فضاء الأرض. وفي أحاديث المعراج، ما يدل على أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) صلى بالأنبياء الماضين في (بيت المقدس). وفي بعض الحديث: أن (قابيل) معذب ـ الآن ـ في كرة الشمس...

وفي المقابل، توجد نصوص يمكن الاستدلال بها على أن السماوات من الحياة الدنيا، فظواهر كل الآيات والروايات، التي تتحدث عن ابتداء الخليقة، تدل على أن السماوات والأرض مجموعة كونية واحدة.

وبما أن النصوص الدينية، صدرت في الوقت الذي لم تكن العقلية العامة مهيأة لاستقبال مثل هذه البحوث، لا نجد نصاً واضحاً يوضح هذا الموضوع.

٤ـ ومهما كان أمر السماوات، فالفضاء من الحياة الدنيا. وبقدر ما استطاع البشر أن يدرك ـ حتى الآن ـ : أن في الفضاء مائة مليون نجمة، وكل نجمة شمس، وحولها عدة كواكب، فتؤلف معها منظومة شمسية. أقرب منظومة شمسية إلينا، تبعد عن الأرض أربعة آلاف سنة ضوئية. وبعض تلك النجوم ـ من الضخامة ـ بحيث لو كان مركزها مركز الشمس كان سطحها بعد الأرض، وهذا... يعني: أنها أكبر من الشمس بمليارات المرات. كما أن جرمها أثقل من جرم الشمس، وضوئها وحرارتها أقوى وأشد.

٥ـ يلاحظ ـ بحدّة ـ أن الحياة الدنيا، بسعتها المخيفة، وأجرامها الهائلة، ومخلوقاتها الكثيرة... الكثيرة... مكروهة ومحقرة من قبل مصادر الوحي بشكل عجيب، ولعله لم يرد ذمّ شيءٍ كما ورد ذم الدنيا. حتى جاء في حديث: (... إن الله ما نظر إليها ـ برحمة ـ منذ خلقها)(١١٠). وما دام الله لم ينظر إليها برحمة منذ خلقها، فلن ينظر إليها برحمة ما دامت، لأن عدم النظر إليها برحمة سابقاً، يكشف عن عدم استعدادها لقبول نظرة رحمة من الله. وما لم يكن هذا الاستعداد موجوداً، لا يمكن ترتب آثاره عليه، لأن الله فيض مطلق، ولا يجد فيض الله إلا عدم استعداد الطرف الآخر للقبول.

فلماذا الحياة الدنيا منبوذة إلى هذا الحد؟.

لأنها صغيرة ورخيصة، أم لسبب آخر؟؟

لا شك أن الدنيا صغيرة ورخيصة ـ جداً ـ بالقياس إلى الآخرة، فقد ورد في وصف الآخرة: (... ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)(١١١). ومما يدل على سعة الآخرة الحديث المعروف: (من مشى إلى العالم خطوتين، وجلس عنده لحظتين، وتعلم منه مسئلتين، بنى الله له جنتين، كل جنة أكبر من الدنيا مرتين)(١١٢).

فإذا كان ثواب تعلم مسئلتين أربعة أضعاف الدنيا، فكم ذا سيكون ثواب العالم نفسه؟ ثم كم ذا ستكون الآخرة كلها؟ حقاً... ما خطرت على قلب بشر.

ولا شك: أن الدنيا رخيصة، فنحن ـ جميعاً ـ نجد أنها متعة: تافهة النوعية، محدودة المدة، مشوبة بالمكاره... فليست قيمة يحرص عليها.

ولكن: ليس الصغر والرخص مما يبعد رحمة الله عنها، إذن: فما هو السبب.

لعل السبب: أن الدنيا هي المنطقة المتمردة في ملك الله، فإن الله لا يعصى إلا في الدنيا. فكان من المنطقي أن لا ينظر إليها برحمة.

ولسرٍّ كبير جعل الله الصراع بين الخير والشرّ، ولكن لم ينسجم مع هذا الصراع غير الدنيا، فكشف عن ذاتيتها المتجاوبة مع جبهتي هذا الصراع.

ويبدو أن نوعية الدنيا تختلف عن نوعية بقية خلق الله، أو ليست نوعيتها هي التي تؤدي إلى: الغرور، والمزايدة، والتناحر....؟! وقد صدق أمير المؤمنين (عليه السلام) إذ قال: (الدنيا، تغرّ، وتضرّ، وتمرّ)(١١٣).

فتركيبتها الخاصة، هي التي جعلتها خلابة تلهي الإنسان، فهي (لهو).

ولحركتها وتقلبها نوع آخر من الجاذبية، التي تدفع الإنسان إلى اللعب بأشياءها، لإثارة تلك الجاذبية، فهي: (لعب).

ولمفرداتها جمال مغرٍ، يحب الإنسان أن يظهر به، فيثقل جسمه بأنواع من اللباس والحلي، فهي: (زينة).

وتفاضلاتها محدودة، يتنافس الناس عليها. فمن نال فضلاً منها يزايد غيره به، فهي: (تفاخر بينكم)ـ يا أبناء الدنيا!

وهي ـ في حدّ ذاتها ـ شحيحة على الإنسان. فمعطياتها ناقصة، تدفع الناس إلى السعي للكمال ولا تكملهم، فيظلون بين السعي المتعب والشعور بالنقص، فيحاولون التكميل بغيرهم، فهي: (تكاثر في

الأموال والأولاد).

❁❁❁

والدنيا تترائى ـ من خلال أي شيء منها ـ وكأنها تؤدي إلى كمال، ولكن لا تؤدي إليه بالفعل، وإنما تزيد في النقص، فلا ينال الإنسان منها إلا ويزداد شعوراً بالنقص، فهي غرور تخدع ولا تلبي. فهي أشبه بالماء الأجاج ينفخ العروق ولا يبرد الغليل، وكالثفال يملأ المعدة ولا يغذي.

وحيث أنها كذلك، لا تلبي حاجات الإنسان وإنما تخدعه، وتحرك رغبته في التوسع والامتداد ولا تستوعبه.

المصاعب

(ما أَصابَ مِنْ مُصيبَةٍ فِي الأَرْضِ، وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها، إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى ما فاتَكُمْ، وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ. وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ) (١١٤).

في تفصيل دلالات هاتين الآيتين، نوزع الحديث إلى مباحث:

المبحث الأول:

في أنواع المصاعب، وهي كثيرة. ولكن المصائب التي تشير إليها الآية الأولى نوعان:

١ـ المصائب العامة التي تتجاوز الأفراد، حتى يصح اعتبارها مصائب الأرض: كالزلازل، والسيول، والبراكين، والحروب... وإن كانت هذه الكوارث لا تصيب الأرض ـ فيما نفهم ـ ، وإنما هي تغيرات طبيعية لها، وتستهدف الإنسان بويلاتها، حتى من خلال تأثيرها على الأرض، والحيوان، والنبات... ولكنها تقاس بالأرض، لسعة رقعة المنطقة المنكوبة بها، فيقال ـ مثلاً ـ الزلزال ضرب اليابان، والبركان دمر مدينة... والسيول اجتاحت غرب... وحرب الشرق الأوسط... وكل هذه... من المصيبة في الأرض.

٢ـ المصائب الخاصة التي تخص فرداً دون آخر.

والمصائب الخاصة قسمان:

القســـم الأول: المصائب النفسية، التي تصيب داخل الإنســـان: كالعقد، والهزات النفسية التي تحدث نتيجة لتفاعلات وتحولات داخلية بالغة الدقة والغموض.

القسم الثاني: المصائب التي لا تستهدف النفس مباشرة، وإنما تستهدف غير النفس وتتسرب إلى النفس من خلال تعلقاتها. كالبلايا التي تقع على: جسم الإنسان، أو في ماله، وأهله، وأصدقاءه، واعتباراته... وكل هذين القسمين من المصيبة في الأنفس.

المبحث الثاني:

إن الإنســـان، بطبعه، متفائل، فيتوقع الحصاد الحســـن حتى وهو يزرع الســـيئات. وليس متشائماً على الإطـــلاق، فلا يتوقع الشـــر حتى وهو يعد له كل المقدمات. فيرتكب الخطيئـــة ـ التي لو ارتكب غيره أدنى منها لحكم عليه بأقسى العقوبات ـ ثم يتسامح مع نفسه في الحساب، ويعدها بالانفلات من العقاب، وكأن الكون ينظر إليه من الزاوية التي ينظر هو منها إلى نفسه، فيدلله على حساب غيره، ويؤدب غيره لحسابه.

ومن هذا المنطلق المتفائل، لا يفاجأ الإنسان بالخير وإن لم يهيئ له، ويفاجأ بالشرّ وإن هيأ له.

بينما الواقع يحاســـب كل إنســـان بمقتضى عمله، بلا محاباة ولا معاداة: فزارع الشـــوك يحصد الشوك، وناسج الحرير ينعم بالحرير.

المبحث الثالث:

كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر، لا يرتجل ارتجالاً، وإنما ينتج نتاجاً طبيعياً من مقدماته الطبيعية. ولكن الإنسان: إما لا يعرف علاقة المقدمات بالنتائج، وإما لا يحسن مراقبة المقدمات وهي تتجمع وتتفاعل حتى تبلغ النتائج، فيفاجأ بالنتائج، ويتصور أنها انقضت عليه من وراء الغيب. ولو عرف مقدماتها، وأحسن مراقبتها، لما فوجئ بها.

ففي بعض الحديث: (إن إبراهيم (عليه السلام) مر في أرض كربلاء، وهو راكب فرساً، فتعثر به، وسقط إبراهيم، وشـــج رأســـه، وسال دمه. فأخذ في الاســـتغفار، وقال: (يا إلهي أي شـــيء حدث مني؟) فنزل إليه جبرئيل، وقال: (يا إبراهيم! ما حدث منك ذنب، ولكن هنا... يقتل سبط خاتم الأنبياء، وابن خاتم الأوصياء، فسال دمك موافقة لدمه...)(١١٥).

وهذا الحديث يدل على أن إبراهيم (عليه السلام) كان يعرف المقدمات ونتائجها ويحسن مراقبتها. فلما أصيب ـ مواساة ـ أصيب بهزة في مقاييسه، فسأل الله، فأجيب بصحة مقاييسه، وخروج هذه الإصابة عن المقاييس التي كان يتعهدها، لمقياس آخر ه: مواساة ولي الله الذي يستشهد بكربلاء. كما نقرء ـ في جملة من الأحاديث ـ حوادث مماثلة وقعت لآدم، ونوح، وعيسى...(عليهم السلام))(١١٦).

وكل هذا... يعني أن الحوادث التي تصيب الإنسان ـ فردية كانت أم جماعية لا تنبجس من العدم، وإنما من أساب متفاعلة تتكامل خلف الستار. تماماً... كالماء الذي ينفجر في الصخر، لا يتدفق من لا شيء، وإنما تتكاثف ذراته من رطوبات تتسرب من أعالي القمم، وإن بدا ـ للنظرة الساذجة ـ أنه يتفجر من ذات الصخرة التي يخرج منها إلى النور.

فكل ما يصيب الإنسان ـ من خير وشر ـ طبيعي. والأمور الطبيعية، مقدرة ومكتوبة، من قبل وقوعها:

(ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ). والكتاب ـ هنا ـ قد يكون: (اللوح المحفوظ). وربما يكون كتاب: (الكون) الذي لا يهمل شيئاً، ولا يضيع فيه شيء، وإنما يأخذ كل شيء مجراه المرسوم له، وتتواصل تفاعلاته المقدرة له:

(وَوُضِعَ الْكِتابُ. فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ، وَيَقُولُونَ: (يا وَيْلَتَنا! ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها؟!) وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً، وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)(١١٧).

المبحث الرابع:

إن للإنسان قدرة محدودة على استيعاب ومراقبة الأشياء التي تتحرك حوله، فيتمكن من متابعة المقدمات المادية القريبة، ولا يتمن من متابعة المقدمات المادية البعيدة، ولا يتمكن من متابعة المقدمات المعنوية.

مثلاً: إن الحبة الصالحة لو وضعت في المناخ الصالح تتفتق عن نبتة، ويتصور أن جميع المقدمات تتلخص في: الحبة، والتربة، والماء والشعاع، والهواء... ولكنه لا يستطع تصور تلك المقدمات التي أدت إلى: وجود الحبة، ووجود التربة، ووجود الماء، والشعاع، والهواء... كما لا يستطيع تصور المقدمات المعنوية التي جمعت. هذه الحبة بالذات، إلى تلك التربة بالذات، إلى هذا الماء، وذاك الشعاع، وذلك الهواء... بينما اللوح المحفوظ، أو كتاب الكون، يحتفظ بكامل سلسلة المقدمات المادية والمعنوية منذ الأزل، وفيه، تكون المقدمات البعيدة واضحة ومعروفة، لكل ما يصيب الإنسان في أرضه أو في نفسه، من قبل أن تظهر المقدمات القريبة للوجود، وتتفاعل، وتبدأ المخاض.

فكل إصابة، بينة وواضحة: (مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها) بملايين، أو بمليارات السنين.

ومن هنا... نجد الذي عنده علم الكتاب يقول: لو لا آية في كتاب الله، لأخبرتكم بـ : ما كان، وما يكون، ومـا هو كائن إلى يوم القيامـة)(١١٨) ويقصد بـ: (أنه في كتاب الله) قوله تعالى: (يمحو الله ما يشـاء ويثبت وعنده أم الكتاب).

لأن اندفاع الأشـياء للسير في مجاريها المرسومة لها، لا يعني أنها ستبقى سائرة في تلك المجاري حتى نهايـة الدهر، وإنما تسـير فيها ما دام الله يأذن لها، فإذا بدا لله أن يوجهها إلى مجاري جديدة، سـارت فيها بذات الاندفاع.

المبحث الخامس:

إن عقول البشـر، حيث فرض عليها أن تمر بتجربة الدنيا، تقولبت بهيكل من التراب، فحجمها التراب بحجم الدنيا.

(٥٨)

سورة المجادلة

مدنية وهي اثنان وعشرون آية

الإيمان، والعلم

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا !

إِذا قِيلَ لَكُمْ : تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ . فَافْسَحُوا ، يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ .

وَإِذا قِيلَ : انْشُزُوا . فَانْشُزُوا .

يَرْفَعِ اللهُ : الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، دَرَجاتٍ .

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)(١١٩).

-١-

الإنسان محدود بتكوينه المادي، ومحصور بنطاقه الكوني. والناس سواء في هاتين المحدودية والمحصورية، ولا يرتفع إنسان ـ فوق هذا المستوى ـ إلا بأحد أمرين:

١ـ الإيمان، لأنه يربط الإنسان المحدود والمحصور، بما وراء تكوينه المادي وما وراء نطاقه الكوني، فيتجاوز حده التكويني وحصاره الكوني، ويغدو قوياً بقوة الله، الذي لا يوجد ـ أمامه ـ حد ولا حصار.

٢ـ العلم، لأنه يربط الإنسان المحدود والمحصور، بعمق تكوينه المادي وعمق نطاقه الكوني، فلا يتجاوز حده التكويني وحصاره الكوني، وإنما يتجاوز جانبه الفكري، ويبقى جانبه المادي محدوداً ومحصوراً.

ومن هنا، تظهر أسبقية الإيمان: لأنه يجتاز بالإنسان حد الشخص وحصار الكون، فيعيش ـ بكله ـ مطلقاً في المطلق. بينما العلم لا يجتاز بالإنسان حداً ولا حصاراً، وإنما يتلقى بعض ذاته... وبعض الكون... تلقياً صحيحاً. وهناك فارق كبير: بين أن يتسع الإنسان حتى يستوعب الإنسان ـ ذاته ـ والكون، وبين أن يكون قادراً على استقبال ما يتساقط من ذاته... ومن الكون... استقبالاً صحيحاً.

وبما أن للإيمان والعلم درجات، ينقسم الناس إلى خمسة أصناف:

١ـ الذين بلغوا القمة في الإيمان والعلم. وهم: الأنبياء، والأوصياء.

٢ـ الذين ارتفعوا عن المستوى العام ـ في: الإيمان، والعلم ـ ولكنهم لم يبلغوا القمة، فهم فوق سائر الناس، ودون الأنبياء والأوصياء. وهم: الأولياء.

٣ـ الذين ارتفعوا عن المستوى العام، في العلم فقط. وهم: العلماء، الذين نالوا هواية العلم، ولن لم تتوفر لهم الشروط التي تؤهلهم لنور الإيمان ـ فوق المستوى العام ـ فهم يضربون في ظلمات الحياة بعكازة العلم، ولا ينطلقون فيها بإشراقة السماء.

٥ـ الذين لم يرتفعوا ـ في: الإيمان، والعلم ـ فوق المستوى العام. وهم: الناس العاديون، الذين يشكّلون

السواد والجمهور.

ولكل صنف ـ من هذه الأصناف ـ درجات:

فللأنبياء درجات: (تِلْكَ الرُّسُـــل، فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْـــضٍ: مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ، وَآتَيْنـــا: (عِيسَـــى ابْنَ مَرْيَمَ) الْبَيِّنـــاتِ، وَأَيَّدْناهُ بِـــ : (رُوحِ الْقُدُسِ)...)(١٢٠).وللأوصيـــاء درجات... وللأولياء درجات... وللعباد وللعلماء وللجمهور، درجات... باختلاف درجات الإيمان والعلم فيهم.

وكما أن الإيمان والعلم يرتفعان بالإنســـان إيجابياً، هكذا... ينحدران به سلبياً. وكما أنهما يصنفان الناس ـ إيجابياً ـ خمسة أصناف، كذلك: يصنفان الناس ـ سلبياً ـ خمسة أصناف:

١ـ الذين بلغوا الحضيض في الكفر والجهل. كـ : (الفراعنة والطواغيت.

٢ـ الذين انحدروا في الكفر والجهل، ولكنهم لم يبلغوا الحضيض.

٣ـ الذين هم دون المستوى العام، في الإيمان فقط.

٤ـ الذين هم دون المستوى العام، في العلم فقط.

٥ـ المستوى العام. وهم: السواد والجمهور.

فيكون المجموع: تســـعة أصناف، لأن المستوى العام ـ بمثابة الصفر ـ يشكل القاعدة للجانب الإيجابي والجانب السلبي معاً.

وكما أن الإيمان والعلم ـ في الجانب السلبي ـ ينعكسان على سلوك الإنسان، كذلك: الإيمان والعلم ـ في الجانب الإيجابي ينعكسان على سلوك الإنسان.

وكما أن إدعاء العلم ـ بدون المعرفة ـ مفضوح، كذلك: إدعاء الإيمان ـ بدون العمل ـ مفضوح.

فـــكل من يقول: (إيماني في قلبي)، أو: (صفِّ قلبك)، أو: (قلبه نظيف)... فإنما يريد أن يخدع نفســـه، ويخدع الآخرين.

فالإيمان والعلم طاقتان تتضاءلان بعدم الممارسة، كما... أن الطاقات الجسدية تتضائل بعدم الممارسة، فلا إيمان مع المخالفات الإيمانية، كما... لا صحة مع المخالفات الصحية.

- ٢ -

١ـ الإيمان، ليس مفهوماً ميتافيزيقياً مجرداً غامضاً، وإنما هو: استيعاب فلسفة الكون والحياة والإنسان ـ بشكلها الواقعي المترابط ـ ، ومعرفة خالق الكون والحياة والإنسان، ثم: الانقياد لتلك الفلسفة... وهذه المعرفة... فالمؤمن، ليس مطلق من تعوَّد ترديد كلمة: (الله) ـ بمناسبة وبلا مناسبة ـ ، وإنما هو: الإنسان الواعي، الذي استطاع استيعاب تلك الفلسفة... وهذه المعرفة... بوضوح، ثم: انقاد لمقتضياتهما.

٢ـ العلم، ليس مجرد نصوص ـ أو مفردات ـ معينة، وإنما هو: استيعاب الحياة ـ أو بعض جوانبها ـ ، ومعرفة ممارستها بالشكل السليم. فالعالم، ليس مطلق من حفظ نصوصاً ـ أو مفردات ـ ، وإنما هو: الإنسان الواعي، الذي استطاع استيعاب الحياة ـ أو بعض جوانبها ـ بوضوح، وعرف كيف يمارسها.

فالذين استوعبوا فلسفة الكون والحياة والإنسان، وعرفوا خالقها، وانسجموا مع ما استوعبوا ومع ما عرفوا... واستوعبوا الحياة، وعرفوا ممارستها... هم الذين يستطيعون تحديد: موقع كل فرد، ومنطلقه، والأسلوب الذي يوفق به للتحرك المنسجم مع إرادة الحياة.

وهؤلاء هم الذين تضعهم مؤهلاتهم فوق الآخرين، درجة أو درجات، هي درجة أو درجات وعيهم، المتفوق على الوعي العام. فهم: القادة الطبيعيون للبشر.

وهؤلاء هم الذي يرفعهم الله فوق الآخرين، في الدنيا، بحاجة الناس إليهم... وفي الآخرة، بانسجامهم مع إرادة الحياة، المنبثقة من إرادة الله...

(٥٩)

سورة الحشر

مدنية وهي أربعة وعشرون آية

وقع كلمة اللّه

(لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ، لَرَأَيْتَهُ: خاشِعاً، مُتَصَدِّعاً، مِنْ خَشْيَةِ اللهِ. وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ، لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)(١٢١).

وما هو الجبل؟! ولا يشترط نزول هذا القرآن كله، فلو نزلت كلمة من الله ـ تبارك وتعالى ـ على السماوات والأرض، لرأيتها خاشعة. لأن كل كلمة من القرآن، كلمة الله التي يعنو لها كل شيء. أو ليست السماوات والأرض ـ الآن ـ خاشعة لكلمة من القرآن:

(ثُمَّ: اسْتَوى إِلَى السَّماءِ ـ وَهِيَ دُخانٌ ـ ، فَقالَ لَها وَلِلأَرْضِ: ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً، قالَتا: أَتَيْنا طائِعِينَ)(١٢٢)؟! حتى الإنسان، لونزلت عليه كلمة من القرآن ـ لا القرآن كله ـ نزولاً تكوينياً، لكان خاشعاً. أو ليس هو ـ الآن ـ خاشعاً للكلمات التكوينية التي نزلت عليه؟! أو ليس مسيَّراً في مولده... ومدفنه... ووفاته... وتحركاته الجسمية... لإرادة الله؟! ولكنها تشريعية القرآن والحرية الإمتحانية، التي مكنت الإنسان من طاعة القرآن ورفضها. ولو لاهما، لكان خاشعاً للقرآن كله، كما هو خاشع للأوامر التكوينية الصادرة إليه.

(٦٠)

سورة المتحنة

مدنية وهي ثلاثة عشر آية

(٦١)

سورة الصف

مدنية وهي أربعة عشر آية

وحدة الرسالات وأُخوّة الأنبياء

(وَإِذْ قالَ (عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) :

يا بَنِي إِسْرائِيلَ ! إِنِّي : (رَسُولُ اللهِ) إِلَيْكُمْ، مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ : (التَّوْراةِ) ، وَمُبَشِّراً بِـ : (رَسُولٍ) يَأْتِي مِنْ بَعْدِي. اسْمُهُ : (أَحْمَدُ) .

فَلَمَّا جاءَهُمْ بـ : (الْبَيِّناتِ) ، قالُوا : هذا سِحْرٌ مُبِينٌ) (١٢٣) .

أجل: فقد قال السيد المسيح (عليه السلام):

(يا بَنِي إِسْرائِيلَ! إِنِّي: (رَسُولُ اللهِ) إِلَيْكُمْ، مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ: (التَّوْراةِ)، وَمُبَشِّراً بِـ : (رَسُولٍ) يَأْتِي ـ مِنْ بَعْدِي ـ اسْمُهُ: (أَحْمَدُ)).

وقال النبي الأكرم، محمّد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (يا أَهْلَ الْكِتابِ! لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ، وَلا تَقُولُوا ـ عَلَى اللهِ ـ إِلاَّ الْحَقَّ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ = عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: رَسُولُ اللهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى: (مَرْيَمَ)، وَرُوحٌ مِنْهُ. فَآمِنُوا بِاللهِ، وَرُسُلِهِ. وَلا تَقُولُوا: ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ. إِنَّمَا (اللهُ) إِلهٌ واحِدٌ، سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، لَهُ: ما فِي السَّماواتِ، وَما فِي الأَرْضِ، وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً)(١٢٤).

بشائر محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) على لسان المسيح: وطهارة المسيح على لسان محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)..

إقرأوا كتب السماء: تجدون وجه محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) في الإنجيل... ووجه المسيح في القرآن.

هذا... الذي كان، وهذا... الذي لا بد أن يكون، ولا يمكن أن يكون سواه.

فمصدر الديانات ـ كلها ـ هو: الله، الواحد، الأحد. والرسل ـ كلهم ـ إخوة في الله، جاءوا من عند الله الإله الواحد، ويفصول متوالية من رسالة السماء إلى الأرض. والديانات ـ كلها ـ تلك الفصول المتكاملة، التي تشكل ـ جميعها ـ سلسلة واحدة، تقود البشرية إلى: الحق، والهدى، والصلاح... وكل ديانة، حلقة في تلك السلسلة المتكاملة، التي لا تنفصم حلقة منها إلا وتنقص السلسلة، وتعجز عن أداء مسؤوليتهما الكاملة.

الحواري إمتداد المعصوم

(يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا !

كُونُوا أَنْصارَ اللهِ، كَما قالَ (عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) (لِلْحَوارِيِّينَ) :

مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ؟ قالَ الْحَوارِيُّونَ: نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ.

فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ، وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ. فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ)(١٢٥).

الحـــوار: المراجعة. والحوار في الكلام هو: النقاش، لأن الكلام ـ فيه ـ يرجع ولا يتوقف. والحواري، هو القصار، لتحويره الثياب، لأنه يرجعه إلى أصله الناصع بعد تدرنه. ومن هنا: يطلق (الحواري) على: الناصح المخلص، والناصر الوفي. ويطلق (الحور) على كل أبيض.

و(الحواري) أطلق على نوع خاص من أنصار الأنبياء والأئمة (عليهم السلام). إما لأنه كان مفتوحاً عليهم بحث يحاورهم بلا تكلف، وإما لأنه كان في أعلى درجات الإخلاص والوفاء.

ولكـــن الذي يبـــدو ـ من قراءة الحواريين، وتحليل مســـلكيتهم ـ : أن (الحواري) هـــو: الذي بلغ درجة نفســـية عالية، تكشف له الأشـــياء على حقائقها. فلا يخلد إلى ظواهر الأمور وإنما يكتنهها، فيخترق جدار الظاهر، ويتعامل مع الأشـــياء... والأشخاص... على أساس الواقع. وذلك: على أثر تربية أحد: (المعصومين) له، وترويضه نفســـه على مسلكية معينة، تجعله صاحب: (عصمة صغرى)، وتطلعه على توقيت: (المنايا، والبلايا)، وتمكنه من الإنطلاق من حدود حراسه الخمس، والتعامل مع الكونيات، بطاقاته الروحية الواسعة، التي تخطت حواجز الجسد، فلم تبق مثقلة به.

إذن فتصنيف بعض أنصار الأنبياء والأئمة (عليهم الســـلام) بـ : (الحواريين)، تصنيف روحي، لا إرتباط له بممارسة الأعمال التنفيذية المفرقعة.

فلســـمان الفارســـي، من حواريي النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وســـلم)، رغم أنه أسلم في (المدينة المنـــورة) بعـــد (الهجرة المباركة)، ولم يقم ببطولات مأثورة، في معارك الإســـلام، العســـكرية ـ منها ـ أو الفكريـــة، ولـــم يذكر منهم، أولئك الأبطـــال التاريخيون، الذين أداروا معارك الإســـلام، كـ : حمزة بن عبد المطلب، وجعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة...

وعمر بن الحمق الخزاعي، من حواريي الإمام أمير المؤمنين (عليه السـلام)، ولم يذكر منهم: مالك الأشتر، وهاشم المرقال، وسليمان بن صرد، ومعقل بن قيس، ورفاعة بن شداد البجلي، وقيس بن سعد بن عبادة، وعبد الله بن بديل الخزاعي... ولا مسيب بن نجبة الفزاري، وصعصعة بن صوحان، وعبيد الله بن أبي رافع، وكميل بين زياد...

فيـ : (الحواري، درجة نفسية، لا إرتباط لها بالأعمال ـ العسكرية، أو الفكرية ـ المدوية.

(٦٢)

سورة الجمعة

مدنية وهي إحدى عشر آية

مفاهيم ضرورية للجماهير المسلمة

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلّهِ.ما فِي السَّماوات، وَما فِي الأَرْض. : الْمَلِك، الْقُدُّوس، الْعَزِيز، الْحَكِيم. هُوَ الَّذِي بَعَثَ.فِي الأُمِّيِّينَ .رَسُولاً مِنْهُمْ: يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِه، وَيُزَكِّيهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ. وَإِنْ كانُوا .مِنْ قَبْل.لَفِي ضَلالٍ مُبِين. وَآخَرِينَ.مِنْهُمْ.لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ. وَهُوَ : الْعَزِيزُ، الْحَكِيمُ. ذلِكَ : فَضْلُ اللهِ، يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ . وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها، كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً. بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ، وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. قُلْ: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا ! إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلّهِ مِنْ دُونِ النَّاس، فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ). وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ.أَبَداً .بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. قُلْ: (إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ. ثُمَّ: تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا: إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ، وَذَرُوا الْبَيْعَ. ذلِكُمْ: خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ: فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ، وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ، وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

وَإِذا رَأَوْا : تِجارَةً.أَوْ لَهْواً .انْفَضُّوا إِلَيْها ، وَتَرَكُوكَ قائِماً . قُلْ : (ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ : مِنَ اللَّهْوِ ، وَمِنَ التِّجارَةِ . وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ))(١٢٦) .

هذه سورة تتردد كثيراً في أذهان المسلمين، لأنها تقرأ في صلاة الجمعة وفي كثير من المناسبات، وهي تحتوي على مفاهيم جماهيرية، لا بد أن ترتكز في مشاعر الجماهير المسلمة. وهي ـ بالتتابع ـ :

١ـ إن الله موضع تنزيه كل شيءٍ، فالإنسان أحرى بأن ينزه الله تعالى.

(يُسَبِّحُ لِلهِ)، والتسبيح: التنزيه، (ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأَرْضِ): فكل شيء دقيق الخلقة، متقن الانسجام مع نفسه ومع مكانه من الحياة، فهو نزيه عن النقص. وكل شيءٍ، ينزه خالقه عن النقص وعن ما لا يليق به، بمنطقه الكوني. فالصنيع الناقص ـ بمنطقه الوجودي ـ ينتقص من صانعه، والصنيع الكامل ـ بمنطقة الوجودي ـ يعبر عن كمال صانعه. وكل شيء في السماوات والأرض ـ حيث إنه نزيه عن النقص ـ ينزه الله، ويسبح لله، بمنطقه الكوني الوجودي. سبحان الذي أتقن كل شيءٍ.

٢ـ تذكير المسلمين بالنعمة الكبرى التي وفرها عليهم، بانتشالهم من ظلمات الجاهلية، ورفعهم إلى القمة الحضارية ـ بذلك الشكل المعجز ـ ، حيث بعث فيهم الرسول:

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ)، بعث في الأمة الأمية: (رَسُولاً مِنْهُمْ)، رسولاً أمياً. فكان ذلك: أية رسالته، ومعجزته الكبرى، حيث لم يتدخل أي عنصر آخر ـ غير الوحي ـ في تثقيفه. فإذا به يقود أعظم حضارة عالمية، ويعمل ثلاثة أعمال عظيمة:

أ ـ (يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ)، فيوجههم إلى آيات الله، وعن طريقها: يوجههم إلى الله والإيمان به، ويرشدهم إلى الإسلام.

ب ـ (وَيُزَكِّيهِمْ)، فيطهر نفوسهم من العقد والصفات المزرية، ويربي في نفوسهم مكارم الأخلاق.

ج ـ (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ) الذي فيه ثقافة نواة، قادرة على أن تتفتح عن حضارة كاملة، كما تفتحت بالفعل عن حضارة كاملة. (وَ) يعلمهم (الْحِكْمَةَ) التي هي: معرفة الأساليب التنفيذية، والمقدرة القيادية. (وَإِنْ كانُوا ـ مِنْ قَبْلُ ـ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

وهــذه الأعمال الثلاثة، هي التي تولد حضارة كاملة، كما ولــدت بالفعل. لأن الحضارة الكاملة، هي حضــارة مزدوجــة من حضارة الروح وحضارة الجســد. وحضارة الروح، هي معرفة فلســفة الكون والحياة والإنسان، بحيث يعرف فلسفة الخطوط العامة في الكون، حتى لا يعاني من الشكوك والشبهات، ولا تساوره أســئلة تبحث عن أجوبتها. ولا توجد فلســفة واقعية وكاملة، للكون والحياة والإنســان، غير الفكر الديني الكامل المتمثل في الإســلام. فتوجيه الناس إلى الإســلام، عن طريق الآيات التي هي طريق الإقناع الحر، إنشــاء للحضارية الروحية التي تملأ كل فراغات الروح، ولا تترك فيها زاوية يتســرب إليها الظلام، ليعذب صاحبها، ويؤدي به إلى الحيرة واليأس والانتحار.

ولكن حضارة الروح كفكرة لا تعطي عطاءها المطلق، إذا تقلصت في زاوية الأفكار، ولم تنتشر في كيان الفرد كله، فتطهر نفسه من كل ما لا يليق به كعنصر صالح. فكانت تزكية النفوس، بعد إنارة الأفكار بالإيمان ـ في إطار الإسلام ـ ، كتعبير عن طريق ذلك الإيمان، وتمكنه من المؤمن.

ثم كانت حضارة الجسد: الحضارة الداخلية: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ)، والحضارة الدولية القيادية: (وَالْحِكْمَةَ). وإلى هنا: استكملت الحضارة الإسلامية عناصرها الثلاثة. وأما إطار الأمة؟ فهو:

إن رسالة الرسول الأمي، لم تكن رسالة محدودة ببني قومه، وإنما هي رسالة عالمية مستمرة، انبثقت في الأمة الأمية، ولكنها لم تكن للأمة الأمية، وإنما هي للأمم الأمية والمتحضرة على حد سواء. وإن كانت الأمة الأمية، اســتفادت منها أكثر من الأمم المتحضرة، لأن رســالة الإسلام رفعت الأمة الأمية من الأمية إلى أغنى الحضارات، بينما رفعت الأمم المتحضرة من الحضارات الناقصة إلى أغنى الحضارات:

(وَآخَرِينَ ـ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ): فكل من يأتي بعدهم ـ أيضاً ـ منعم بنعمة الإسلام.

وإلــى هنا: اســتكملت الأمة الإســلامية عناصرها، التي هي كل شــعوب الأرض المؤمنــة: جاهلية، أو متحضرة.

وبعد اســتكمال الحضــارة والأمة لعناصرهما، بقي على الأمة أن تعــرف أعدائها، لتتحصن منها. والأمة العدوة للأمة الإســلامية، والمتربص بها على اســتمرار التاريخ ـ منذ عهد الرســول ص، وإلى اليوم، وحتى ظهور الإمام المنتظر ـ هي: الأمة اليهودية. فكشفها الله ـ للأمة ـ بقوله:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ)، حملوا التوراة، فلم يسعوا إليها، ولم يتحملوها بعد أن نزلت عليهم بواسطة موسى (عليه السلام)، وإنما حملوها (ثُمَّ) رفضوها عملياً، فـ(لَمْ يَحْمِلُوها)، رغم أنها دخلت في حياتهم

كعنصر هام من مقومات كيانهم كأمة. فمثلهم ـ بالنسبة إلى محتوياتها ـ (كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً)، فهو لا يسعى إلى حمل شيءٍ، وإذا حمل شيئاً يحمله كرهاً، ويحاول أن يتخلص منه في أية لحظة استطاع. فإذا حمل كتباً، كيف لا يفكر ـ بأي شكل من الأشكال ـ أن يفقه ما فيها؟، كذلك: كان اليهود مع الكتاب، مع التوراة التي قومت كيانهم. فكيف يكون أمرهم مع الكتاب الذي نزل لصهرهم في كيان إنساني عام، لا يفرق بين السلالات والجماعات إلا بمقاييس الروح: التقوى...؟

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا! إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ، وَذَرُوا الْبَيْعَ...):

فالرزق الصحيح، هو: الذي يأتي من طرقه المشروعة وفق إرادة الله، ويأخذ من نشاط الإنسان بقدر معين، أما الرزق الذي يكرس الإنسان كله، ويصرفه عن كل شيءٍ من متطلبات حياته الكاملة، ويطغى حتى على عبادته، فهو ليس برزق الإنسان، وإنما هو إله يتعب أكثر مما يستحق أن يتعب له الإنسان، ثم لا يعطي إلا ما يكفي الإنسان.

فالله فوق الإنسان، وعلى الإنسان أن يكيف حياته وفق إرادة الله. والرزق تحت إرادة الإنسان. فإذا شاء أن يرفعه إلى مستوى إرادة الله، ويفضله على إرادة الله، فقد اختاره إلهاً يضر ولا ينفع. لأن الإنسان ـ مهما اكتسب ـ لا يستهلك أكثر من ما يقدر على استهلاكه. فالاستهلاك في طلب الرزق، والتضحية له حتى بالعبادة لله، تعبر عن خطأ كبير في التقييم.

(٦٣)

سورة المنافقون

مدنية وهي إحدى عشر آية

عزة اللّه، وعزة رسوله

(...وَلِلّهِ الْعِزَّةُ،

وَلِرَسُولِهِ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ.

وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ) (١٢٧).

مباحث:

المبحث الأول:

هذه الآية تفصل العزة ثلاثة أقسام: عزة الله، وعزة الرسول، وعزة المؤمنين.

١ـ عزة الله، هي العزة الذاتية. لأن الله مصدر جميع الخلائق: الذوات، والمعاني، على حد سواء. والعزة ـ إذا كانت من المعاني ـ فهي من جملة مخلوقات الله، التي يوزعها كيف يشاء.

وعزة الله ليست من نوع العزة المفهومة لنا، لأن العزة التي نفهمها من مخلوقات الله، وليست من صفاته. لأن صفاته عين ذاته، وذات الله ليست مخلوقة، وإنما ذاته مصدر الخلق كله. وما دمنا لا نفهم ذات الله، فلا نفهم صفاته. وإنما عبر عن صفته تلك بكلمة: (العزة) ـ التي تطلق عادة على المعنى المعروف ـ لمجرد التقريب إلى الأذهان، أو لمجرد التهييب، حتى يفهم الناس أن كل ما يفتخرون بها من صفات فالأفضل منها لله. وإلا فليست صفات الله متعددة، لأن تعددية الصفات تعني تعددية الذات، ولو باعتبار تلك الصفات، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فالتعبير بالصفات متعددة، إما للتقريب أو للتهييب. وأصل التعبير لمجرد التقريب أو للتهييب، وإلا فالله ـ تعالى ـ أجل من كل هذه الصفات بمفاهيمها المعروفة. وعجز لغات البشر عن الروحانيات أمر طبيعي، فكيف بها لو حاولت التعبير عن مقام الربوبية؟!

٢ـ عزة الرسول، وهي عزة إضافية، خولها الله للرسول بمقدار قدرته على القبول. وكما أن التركيبة الروحية للرسول، تجعله شخصية ذات جانبين:

جانب التلقي من قبل الخالق، وجانب التفريغ على الخلق، هكذا... تكون عامة صفاته فلها جانبان: جانب التلقي، وجانب التفريغ.

فعزة الرسول: عزة متلقاة من الله، وعزة تفيض على المؤمنين. شأنها شأن السحاب، الذي يجمع فيض البحر إلى الأجواء في صورة ذرات متبخرة، ويفيض بما جمع على الصحارى الظامئة في صور جليد وثلج ومطر. شأنها شأن العدسة الموجهة، التي تلتقط خيوط الشمس لتنسجها، ثم تدفعها ـ في الصيغة المطلوبة ـ إلى ما وجهت إليه.

وعزة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ومثلها عزة كل الأنبياء والأوصياء (عليهم السلام)

إضافيـــة، أكرمهم الله بها، حيث فطر أرواحهم من نوره، وفطر أجســـادهم من صفو الأرض، فأصبحوا ـ بالتقييم الموضوعي ـ عناصر نادرة، تتميز ـ من هذه الجهة ـ ذواتهم عن ذوات غيرهم وشـــتان بين من تطور نـــور الله فكان، وبين من تطورت طاقات الأرض فكان. فأصل المعدن يبقى محتفظاً بكل خواصه، في جميع أطواره، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

فالروح، طاقة عاقلة مستقلة، تطورت إليها طاقات نواتية غامضة.

كما أن الجسد، كيان مادي مستقل، تطورت إليه مواد نواتية غامضة. وكما أن ذرات المواد النواتية تحتفظ بهوياتها ـ رغم اندماجها ـ في جســـم الإنسان، هكذا... تحافظ الطاقات النواتية بفعالياتها ـ رغم انسجامها ـ في روح الإنسان.

فمن ينحدر من أبوين ســـليمين، تكون بنيته ســـليمة. ومن ينحدر من أبوين ســـقيمين، يرث عنها بذور الأسقام.

وأنت حينما تتناول طعاماً يشتمل على مواد حديد، إنما تمد جسمك بالحديد. وعندما تتناول مواداً عفنة، تعرض جسمك للعفونة.

(٦٤)

سورة التغابن

مدنية وهي ثمانية عشر آية

(٦٥)

سورة الطلاق

مدنية وهي إثنى عشر آية

التوكل على الله

(. . .وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، فَهُوَ حَسْبُهُ . إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ . قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً)(١٢٨) .

(التوكل على الله) من مستلزمات الإيمان، وهو من سنن المرسلين، وعليه سيرة المؤمنين، وورد الأمر به في العديد من الآيات وكثير من الروايات، كما وردت آيات وروايات تؤكد أن الله لا يضيع المتوكلين عليه، وهو حسبهم، وهو نعم الوكيل.

فما هو معنى التوكل على الله؟

وما فائدته؟

معنى التوكل:

يمكن تفسير (التوكل) بما يلي:

١ـ أن الله هو مصدر الكون ومقنن قوانين الكون. فالله رمز القوانين التي تشد الكون. فالتوكل على الله يساوي التوكل على تلك القوانين، بالاندماج فيها، والإنطلاق منها في اتخاذ المواقف والقرارات، وعدم الاسترسال مع الهوى. وعلى هذا: فاعتماد تلك القوانين، كفيل بالوصول إلى النتائج المتوخاة.

فمفهوم التوكل إيجابي وقائي، يتوقف على استيعاب قوانين الكون، والدقة في التطابق معها.

٢ـ بما أن الإنسان طموح ومحدود القدرة، كثيراً يحاول ما لا يستطيع فيفشل. والفشل يصدمه، ويجرح طموحه. وفي الحالة، يواجه أمرين:

الأول: أن يركب عنفوانه، فيبقى متأثراً بالصدمة، ويترك جرحه مفتوحاً. وفي هذا... ما يثبطه عن تطوير المحاولة.

الثاني: أن يتواضع عن عنفوانه، ويعترف بالواقع، ويستخلص من تجربة درساً. وفي هذا... ما يمكنه من تطوير المحاولة فمفهوم التوكل إيجابي علاجي، يتوقف على درس التجربة الفاشلة، والنهوض منها إلى تجربة أخرى. وهذا... يساوي الاستسلام لقوانين الكون، أي: لإرادة الله.

وإذا عرضنا هذين التفسيرين عل موارد استعمال كلمة (التوكل):

نجد التفسير الأول ينسجم مع بعضها، كقوله تعالى:

(...فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ. إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)(١٢٩). فقد اقترن التوكل بالعزيمة، والعزيمة تكون قبل البدء بالعمل لا بعد الانتهاء بالفشل.

ونجد التفسير الثاني ينسجم مع بعضها الآخر، كقوله تعالى:

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ: (حَسْبِيَ اللهُ، لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَـرْشِ الْعَظِيمِ)(١٣٠)، فقد اختتم التوكل تجربة عرض الإسلام، وأعراض قشرة من الناس عنه.

فلعـل للتوكل معنيان، ولعل له موردان: فينفع قبل البـدء وقاية، وبعد النهاية علاجاً، وإن كانت الكلمة تستخدم ـ غالباً ـ في المورد الثاني، ولذلك: نبحث عن فائدة التوكل على أساس التفسير الثاني.

فائدة التوكل:

١ـ إن أصـل الانقطاع عن عالم المادة والالتجاء إلى الله، يؤدي إلى التسـامي على عالم المادة وتناقضاته الرخيصـة، والارتفـاع عن التعرض للاسـتهلاك في عجلات الحياة لأسـباب وقتية تافهـة. والتعالي على مقتضيات المصالح الآنية، يخلق في الإنسان ـ مع الممارسة ـ نوعاً من النبل النادر الذي يقيم الإنسان.

٢ـ إن كل مـن يتعـرض لله يناله شـيء من رحمته، كما أن كل من يتعرض لآية من آيات الله يناله شـيء منها. فمن يظهر للشمس، أو للريح، أو للسحاب... يأخذ منها بقدره على الأخذ، فيكف بمن يتعرض لله؟! فإنه سـيأخذ من فيضه بمقدار ظرفيته. والتوجه إلى الله تعرّض له، فكيف الانقطاع إليه والتوكل عليه؟! فإنه تعرض لمدده المباشر.

٣ـ عندما يتورط الإنسان في أزمة لا يجد عنها مخرجاً، ترتبك مشاعره وكلما ضغط على دماغه للبحث عـن مخرج، أزداد الدماغ رهقاً وعجزاً. فإذا انقطع عن التفكير بالتوكل على الله، زال تعبه، ونشـط للعودة إلى التفكير وكأنه شـخص آخر. فإذا استعصى عليه، أعاد التوكل علي الله، ليعاود التفكير وكأنه يقوم بدور شـخص ثالث. وهكذا... تتعدد شخصيته التفكيرية كلما توكل على الله، حتى كأن مجموعة من الأشخاص يتفاكرون.

٤ـ إذا واجه الإنسان ـ وحده ـ الحياة، ولم تكن له قوة في انتزاع نفسه من ملحمة الوجود سوى طاقاته المحدودة، فسرعان ما تصيبه النكسات باليأس، لأنه لا يمثل القوة المطلقة. ولكن إذا اعتمد القوة المطلقة، فإنه لا ينهزم مهما توالت عليه النكسات، لأن الظروف ـ وإن عاكسته حتى الفشل ـ فإنها لن تعاكس إرادة الله الـذي يتوكل عليه، فيبقى الأمل متوهجـاً في ضميره ليدفعه إلى متابعة المحاولة. والذي يعلو على اليأس، قلما يمنى بالفشـل، لأن المتغيرات مهما جابهته، فإنها ستأتي ـ ولو بعد حين ـ بفرصة مناسبة يكون متهيئاً لاقتناصها، فلا يفقد الأمل، ولا يكف عن المحاولة.

٥ـ عندما يصاب الإنسـان بالمعاكسات، يحرق الفشل أعصابه، ويعتصر طموحه، ويشككه في مواهبه، وفـي قدرته على مواجهة التحديات. فينعكس عليه الفشـل بأكبر من حجمه، وتنسـحب الخسـارة على مسـتقبله بأكثر من الخسـارة التي أصيب بها، نتيجة لعدم نجاح محاولتـه. والتوكل على الله، يطوق ذيول الفشل وانعكاساته.

٦ـ كما أن الفشـل يلقي ظلاله السـوداء على الفكر والأعصاب، وتهيج به حتى تفقده توازنه، فتصدمه صدمة تسـفر عن أمراض نفسـية معقدة، منها: الجنون، والتشاؤم... أو تورطه في جرائم تجاه نفسه أو تجاه الآخرين، والتوكل على الله، ينفس الفشل، ويطيش الصدمة.

و(النـذر) مـن نوع التـوكل، لأن الناذر هو الذي حاول وفشـل، فنذر إن تم له مـا أراد، أن يقوم بعمل مسـتحب. فكأنه يعاني: ضغط الوازع الداخلي الذي يدفعه في اتجاه ما حاول، وضغط الفشـل. فلم يكبت الوازع باليأس، ولا تحطم تحت الفشل. وإنما وجه الوازع إلى الله، وعلق الفشل إلى حيث يأذن الله بما أراد أو لا يأذن. فتخلص من كماشة الضغطين، وأبقى على أمله بالنجاح.

التوكل على اللّه، والتوكل على الناس

(. . .وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ، إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ، قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً)(١٣١) .

١. التوكل على الله.

وكلـه: جعلـه وكيلاً ـ والتوكيل يكون بالاتفاق ـ . وتوكل عليـه: أراده وكيلاً ـ والتوكل يكون من جانب واحد، أي: بلا اتفاق ـ . والتوكل على الناس: يسـاوي الإهمال، لأن المتوكل يترك القيام بالأمر اعتماداً على المتـوكل عليـه، والمتوكل عليه لا ينهض به إذ لم تؤخذ موافقته على النهوض به حتى يعتبر نفسـه ملزماً به. ولكن التوكل على الله: يسـاوي الاهتمام، لأن الله عندمـا خلق الكون جعل حركة الكون ـ من الجزيئة

حتى الكرة ـ نتائج تنتهي إليها مقدمات، وفق مقاييس لا يخرقها إلا للأنبياء والأوصياء في مجال التحدي ـ وهو ما يسمى بالمعجز ـ . وفي غير مجال التحدي، تبقى مقاييس الكون سائدة: فلا تتولد الطاقة بدون حركة، ولا تبتسم الخضرة بدون خلية نباتية، ولا تنعقد النطفة بدون بويضة... فمن اكتشف تلك المقاييس، وانسجم معها، جرى في مجاري الكون، فانتهى إلى النتيجة التي رتب مقدماتها. ومن لم ينسجم معها ـ جهلاً بها، أو استعلاء عليها ـ ناقض مجاري الكون، فاصطدم بغيره، فانفجر وفجّر. لأن الأمل بدون عمل لا يعطي غير الخيبة:

(لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ، وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ)(١٣٢).

وإن الله لا يعطل تلك المقاييس ـ في غير مجال التحدي ـ :

(إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ)(١٣٣).

فالطريق إلى أي هدف، منحصر من خلال المقاييس الذي قرره الله طريقاً إليه.

وهذه المقاييس تجسد إرادة الله في الكون، وتجسد إشاءة الله في الكون. سواء في مجال المعنى والروح، أو في مجال المادة والجسد: فلا يهتدي أي إنسان إلا بالمقياس المقرر للهداية، وهو: الانفتاح الشخصي على الإيمان، وهذا الانفتاح هو إرادة الله في الهداية، لأن الله عين الانفتاح الشخصي على الإيمان طريقاً إلى الهداية. ولا يضل إنسان إلا بالانغلاق الشخصي على الإيمان، وهذا الانغلاق هو إرادة الله في الضلال، لأن الله عين الانغلاق الشخصي على الإيمان طريقاً إلى الضلال:

(فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً...)(١٣٤). وكان الله يستطيع أن يوزع الهداية والضلال عبثاً، ويجعل كل شيءٍ ارتجالاً، ولكنه أبى إلا أن يجعل لكل شيء سبباً.

واضطهد كل أولياء الله في الأرض، وسالت دماء الشهداء تحت كل كوكب، وهم أحب الناس إلى الله، ولكن الله شاء أن يضطهد أولئك... ويقتل هؤلاء... لأن الله قرر ـ لتنمية ذاتيات المستقيمين والمنحرفين ـ مقياساً هو: (التدافع الاجتماعي) الذي بدونه لا تصحو ولا تتبلوز كوامن البشر:

(...وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)(١٣٥).

والتدافع الاجتماعي عندما يتصاعد لتسريع التنمية، يكون الصراع الذي يتصادم فيه الحق بالباطل، وينكشف عن ضحية وجلاد. أولم يرو الحسين (عليه السلام) عن جده الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: يا حسين! أخرج إلى العراق، فإن الله شاء أن يراك قتيلاً)(١٣٦)؟!.

تلك هي إرادة الله... وهذه هي إشاءة الله... فالله قرر للكون مقاييس، ثم أراد وشاء أن يتفرع كل شيءٍ ـ في عالم المعنى والروح، وفي عالم المادة والجسد ـ عن تلك المقاييس.

وبهذا العرض لإرادة الله وإشاءته، يمكن أن نفهم كل الآيات والروايات التي يستدل بها (الجبريون) مثل:

(...يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ...)(١٣٧).

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ...)(١٣٨).

(...مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ...)(١٣٩)...

فالله أراد مقتضيات تلك المقاييس، وشاء معطياتها. وأقدر كل إنسان: على الانسجام معها ليتصاعد، وعلى الاصطدام بها لينهار.

كذلك: يلزم أن نفهم معنى: (التوكل على الله) فالاتكال على الله هو: اعتماد تلك المقاييس. وأما إغفال تلك المقاييس، فليس اتكالاً على الله الذي أبى إلا هذه المقاييس، وإنما هو اصطدام بإرادة الله، واتكال على الانهزامية في مواجهة الواقع الذي فرضه الله.

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ) بالانطلاق في مجاري الكون التي لم يقدر سواها (فَهُوَ حَسْبُهُ) وضمين له بنجاحه، فتلك المقاييس دقيقة دقة أجهزة جسم الإنسان، وحركة الكواكب. وهي تؤدي نتائجها بنفس الدقة: فبقدر ما يكون الإنسان دقيقاً في توظيفها، يكون دقيقاً، في استثمارها. وبقدر ما يكون الإنسان عفوياً في استخدامها، عليه أن يكون عفوياً في استقبال نتائجها. فالنبي عندما قال: (إعقل وتوكل)(١٤٠)، إنما كان يعني: أن الإعقال هو الإتكال، وليس الإتكال في الإرسال بلا عقال. فـ(إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ)، ومسيطر على تقديره، فلا يفلت منه أحد و(قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً)، وليس لديه شيء إلا بحساب، فلا يؤخذ في شيء بالعفوية والارتجال.

وهذان البندان:

أـ إن الله بالغ أمره.

ب ـ قد جعل الله كل شيء قدراً، يساعدان على تفسير البند السابق: ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

٢. التوكل على الله غير التوكل على الناس.

فالتوكل على الله: مزيد من الواقعية، ومزيد من الدقة والإتقان.

بينما التوكل على الناس: مزيد من العفوية والإهمال. فتوكيل الناس بالاتفاق معهم تعريض للإهمال: لأن إرادة الوكيل تفصل بين الموكل والعمل، فكيف بالاتكال! والإتكالية المكروهة، هي في الاتكال على الناس.

٣. فائدة التوكل على الله:

إن الإنسان ـ في كثير من الأحيان ـ يتردد في اتخاذ القرار، رغم استعداده للإتقان، وقدرته على السيطرة على أمره. وكثيرون هم الذين يجدون هذه القدرة، ولكنهم لا يجدون الإرادة التي تمكنهم من متابعة الخطوة. وهنا: يأتي دور (التوكل على الله) لاتخاذ القرار. فإذا دلت الدراسات على نجاح أمر، وتوفرت إمكانية الإحاطة به، كان على الإنسان (التوكل على الله) لتنفيذه.

فالتوكل يقضي على التردد الذي يضيع كثيراً من الفرص الذهبية، فلا يأمر الله بالتوكل إلا بعد العزم الذي يتم بأمرين:

١ـ كون الدراسة موحية بجدوى العمل المدروس.

٢ـ إمكانية استيعابه حتى لا يتبعثر ولا ينفلت.

ويقول القرآن الكريم: (...فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)(١٤١).

السماوات السبع، والأرضون السبع

((اللهُ) الَّذِي: خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ، وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)(١٤٢) .

لعل المقصود من (الأرض) مجمل الأجرام الفضائية، ولعل المقصود من (السماء) مجمل الأجرام المحيطة بالفضاء.

وعلى هذا: فكل الأجرام الفضائية أرض واحدة، وكل الأجرام المحيطة بالفضاء سماء واحدة. فيكون المقصود من (الأرضين السبع) سبعة أفضية، كل فضاء منها مليء بمليارات الأجرام الفضائية، أحدها هذا الفضاء الذي نعيش فيه. وإلى جانب هذا الفضاء ستة أفضية، كل واحد منه مثل فضائنا أو أوسع منها، ومليء بالأجرام الفضائية مثل فضائنا أو أكثر. وتحيط بكل فضاء مجموعة من أجرام سماوية، كالسماوات المحيطة بفضائنا أو أكثر.

ولعلها اعتبرت سبع مجموعات، لأن كل فضاء ـ منها ـ يخضع لنوع من المعادلات والقوانين، وكل سماء ـ منها ـ تتميز بجنس من المخلوقات والأنظمة، يختلف ـ كلياً، ومن جميع الجهات ـ عن جميع ما هو موجود في كل فضاء... وكل سماء... ولا يحيط بخلق الله، إلا هو.

الإنسان والكون

(اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ ، وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ . يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ . لِتَعْلَمُوا : أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)(١٤٣) .

هل الإنسان هدف الوجود، وقمة الكون؟

هذا الإنسان الضيق المحدود، الذي تجده ـ أينما أردت أن تجده ـ ضيقاً محدوداً.

هذا الإنسان الذي تجده، في قبضة الكون، هشاً رخيصاً: لا يكاد يلبي له حاجة، ولا يضيع له التفاتة.

هذا الإنسان الذي يقف دائماً في حرم الكون متملقاً مستعطياً، وفق سنن الكون، لا وفق رغبات الإنسان. فإذا شاء أن يخرج على إحدى سنن الكون حطمه بلا مبالاة، ولا احترام، ولا اهتمام... والكون سائر في سننه بعنفوان، وكأنه: ليس شاعراً بوجود الإنسان، ولا يدري هل هنالك شيء اسمه (إنسان)؟

وفي الجانب الآخر هذا الكون

هذا الكون بأبعاده الشاسعة، وأجرامه الهائلة، وأسراره العجيبة... التي ليست في متناول الإنسان، ولا في مدى حاجاته، ولا مدى استيعابه، ولا في مدى خبراته العضلية والفكرية.

هذا الكون بمجاهله النائية المدوخة...

هل هذا الكون الرحيب، مقدمة لذلك الإنسان المحدود؟

من الصعب فلسفة الكون بمثل هذه البساطة.

ولو لا الآيات والروايات التي ترمز، وتلوح، وتصرح، وتؤكد... هذا المعنى، لكان الاعتراف به ـ إيمانياً ـ من أصعب الأمور. لأن تقليص حكمة الكون في هذا الإنسان شيء مخيف: إما من جانب الإنسان بتصعيده حتى يكون قمة الكون، وإما من جانب الكون بتخفيضه حتى يكون قمته الإنسان.

ولكن هنالك آيات وروايات صريحة واضحة تؤكد: الإنسان هو الهدف من الكون. وليس الهدف فقط، وإنما الهدف والوسيلة.

فتطور الإنسان، هو الغاية من الكون. والإنسان ـ هو نفسه ـ الوسيلة لتطوير نفسه بالعلم ـ وتطوير الكون معه بإثارة الأرض واستنتاجها، والتعاون مع الآخرين، فهو: الهدف، والوسيلة.

(٦٦)

سورة التحريم

مدنية وهي إثنى عشر آية

المرأتان المتظاهرتان

(إِنْ تَتُوبا إِلَى اللهِ، فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما. وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ، وَجِبْرِيلُ، وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ. وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ)(١٤٤).

(إِنْ تَتُوبا) أيتها المرأتان عما اقترفتما بشـأن النبي (صلى الله عليه وآله وسـلم) توبة صادقة، وتطوقا ذيول تآمركما عليه، فتعودا (إِلَى اللهِ)، تنجوا من نتائج مآمرتكما. وإلا (فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما)، وانحرفت عن الله ورسوله، بشكل واضح يرفض الإنكار. فأنتما ـ الآن ـ في قبضة مآمرتكما، فقد ارتدت إليكما، وأحاطت بكما، بعدما انتشر عليها النور، رغم ما حاولتما من إبقائها في الظلام.

فأنتما ـ الآن ـ أمام خيارين: إما التراجع، وإما الاستمرار. فإن تتراجعا إلى الله ورسوله، تنجوا من العقاب. (وَإِنْ) تسـتمرا، و(تَظاهَرا عَلَيْهِ)، وتتناصرا ضده، فسينالكما العقاب، ولا تنالان النبي (صلى الله عليه وآله وسـلم) بسـوء، فهو في مأمن لا يخترقه شيء، فله موالي أقوياء، وله ظهير شـديد. (فَإِنَّ اللهَ ـ هُوَ ـ): بذاته ومباشرة (مَوْلاهُ)، يتولى صيانته، ولا يكله إلى غيره. والله مصدر كل القوى الكونية. و(وَجِبْرِيلُ) مولاه، وهو يمثل القوة السـماوية. (وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ) مولاه، وهو الإمام علي (عليه السـلام) على ما هو المشهور بين المفسـرين ـ ، وهو يمثل القوة الأرضية. وبعد أوليائه، يأتي دور ظهيره وجيشـه. فله جيش شديد، يحرسه من كل من يريد به سوءً. (وَ) هو جيش (الْمَلائِكَةُ). ورغم شدة الملائكة، وقدرتها على حراسته، فلا يعطي لهـا دور قريب، لأن أوليائـه يكفونه كل مكروه. والفاصل بين قوة أوليائه وقوة الملائكة، فاصل كبير. وإنما الدور الذي يعطى للملائكة، أشبه بدور حرس الشرف، الذي يعبأ ولا يؤمر. أو أشبه بدور الصفوف الخلفية، التي يستغنى عنها في المواجهة عادة. فالملائكة (بعد ذلك) كله (ظهير) ومعين.فللنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) موالي أقوياء، وظهير شديد، قادرون على الحماية والردع معاً، فلا ينجو منهم من يكيد للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

والذي يلفت الانتباه بشـدة، أن الآية أعطت لثلاثة لقب: (مولى النبي (صلى الله عليه وآله وسـلم)) في إطلاقـة واحدة، وهم الله وجبرائيل والإمام علي (عليه السـلام): (فَـإِنَّ اللهَ ـ هُوَ مَـوْلاهُ، وَجِبْرِيلُ، وَصالِحُ الْمُؤْمِنِيـنَ). فللنبـي (صلى الله عليه وآله وسـلم) ثلاثة موالي، يكفونه كل سـوءٍ. وللمولـى معانٍ عديدة كالناصر، والمعين، وغيرهما... ولكن هل يسمح سير الآية بتفسير المولى ـ فيها ـ بالناصر والمعين؟ فـ :

١ـ أطلقت صفة المولى على هؤلاء الثلاثة، في مقام التحدي وتخويف من تآمر على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالفعل، فلا يكون المراد من المولى مجرد النصير والمعين.

٢ـ أطلقـت على الملائكة صفة الظهير، وبفاصلة (بَعْـدَ ذلِكَ)، ولو كان المراد من المولى مجرد النصير والظهير لتوحد التعبيران.

٣ـ يلزم أن ننتبه إلى أن صفة المولى أطلقت على الله أيضاً، فلا بد من تفسـيره بشـكل يتناسب مع مقام الربوبية، لا أن نراعي مقام جبريل والإمام علي (عليه السـلام) وننسى مقام الله في التفسير. خاصة: ونحن

نحاول فهم القرآن، الذي لا يختار كلمة إلا بدقة معجزة.

ومهما كان المراد من صفة المولى، فالآية تهدف:

١ـ تصعيداً واقعياً بمقام جبريل والإمام علي (عليه السلام)، حيث أعطتهما صفة مولى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

٢ـ تشريفاً واقعياً لمقام جبريل والإمام علي (عليه السلام)، حيث أعطتهما نفس الصفة التي أعطتها لله، وفي إطلاقة واحدة، رغم أنهما بعض عبيده. وهذا... مما يشد الانتباه بشدة.

المرأتان المتظاهرتان أيضا

صغا صغوا إليه: مال بسمعه إليه. صَغِيَ يَصغَى صَغىً وصُغِيًّا إليه: مال بسمعه إليه.

(إِنْ تَتُوبا إِلَى اللهِ).والتوبة في محلها، (فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما) أي: استمعت قلوبكما إلى نداء الأحقاد الجاهلية، العالي في نفوسكما، فوقفتما موقفاً سلبياً من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

(٦٧)

سورة الملك

مكية وهي ثلاثون آية

البركة والقدرة الإلهيتان

(تَبارَكَ الَّذِي : بِيَدِهِ الْمُلْكُ : وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ ، لِيَبْلُوَكُمْ : أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً؟ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) (١٤٥) .

هاتان الآيتان تعرضان خمسة من الحقائق الكبرى، هي بالتتابع

ـ بيده الملك.

ـ هو على كل شيء قدير.

ـ خلق الموت.

ـ خلق الحياة.

ـ ليبلوكم.

١ـ (تَبــارَكَ): تفاعــل من البركة، وهو كثير البركة(١٤٦). ومن أكثر بركة من الله، الذي أعطى لكل شــيءٍ، فجعل كل شيء نامياً؟! وهل يكون شيء أكثر بركة من الله (الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)، فيخلق كل ما يشاء خلقاً من عدم؟! فالملك بإرادته ـ والتعبير باليد ورد مجازاً عن الإرادة، للإشــعار يتمكن إرادته من الملك كتمكن يد الآخرين من أشيائهم ـ . والفارق بين ملك الله وملك غيره أمور:

الأول: الله بيــده الملك، فهو يوجد الملك، فيمــا الآخرون ليس بأيديهم الملك، وإنما قد يملكون بعض الموجودات.

والله ينمي الأشــياء، بينما الآخرون لا ينمون الأشــياء. وإنما قد يساعدون على إجراء سنة من سنن الله في بعض الأشــياء. فيضعون الحبة في التربة. ويرطبونها، لتأخذ سنة الله مجراها. وينتهي دورهم، والله هو الذي ينميها:

(أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ. أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ؟!)(١٤٧).

الثاني: ملك الله ملك حقيقي، ناتج من إيجاده للأشــياء، وسيطرته الكاملة عليها يتصرف فيها كما يشاء. وقد مارس هذه السيطرة ممارسات مختلفة من جملتها:

تولي الناس لبعض تلك الأشــياء مؤقتاً وفق نظام معين. فملك الناس لبعض الأشــياء، اعتبار موقت ناتج من شــمول ذلك النظام لهم. فملكهم ـ في الحقيقة ـ فرع لملك الله، لأنه هو الذي قرر هذا الاعتبار. وحتى فيما هم يمارســون ذلك الاعتبار فيملكون بعض الأشياء لا يستطيعون إخراجها من ملك الله، وإنما يبقى الله هو المالك المطلق الذي يتصرف في تلك الأشياء تصرفاته الكونية وتصرفاته الشرعية:

فمــا يملكــه الناس: ينمــو، أو يهزل، أو ينخر، أو ينهــار... وفق الإرادة الكونية التي يمارســها الله في

الأشياء.

وما يملكه الناس: يبقى معرضاً للبقاء تحت تصرفهم أو الخروج من تصرفهم، وفق الشـــرائع التي قررها الله: فتخرج أقسام من ممتلكات الناس ـ وبدن موافقتهم ـ وفق نظام الضرائب الإسلامية.

الثالث: إن ملك الله ملك مطلق لا حدود له ولا قيود عليه، وملك غيره محدود بحدود كونية ومقيد بقيود شرعية.

فلا يتمكن غير الله من السير بممتلكاته إلا من خلال سنن الكون. فلا يمكنه تجاوزها في: تنمية ممتلكاته، أو نقلهـــا، أو تطويرهـــا، أو إبطالها، أو إحداث أي تغيير فيها. فهو ملك محدود تحت طائلة ســـنن الكون كلها.

ولا يحق لغير الله السير بممتلكاته إلا من خلال سنن الشرع. فلا يسمح له فيها بـ : الإسراف، أو التغيير، أو الكنز، أو الربا، أو صرفها في أي وجه من وجوه الحرام. فهو ملك مقيد تحت طائلة سنن الشرع كلها.

فحقيقة ملك الناس لبعض الأشـــياء، لا تعدو الســـماح لهم بنوع من التصرفات المنضبطة بســـنن الكون وبسنن الشرع.

بينما ملك الله مطلق يمارســـه في كل شـــيء، ســـواء وضع بعضه تحت تصرف الناس أو لم يضع. فسننه ســـارية المفعول. لا يحددها شـــخص ولا رأي. فهو ـ وحده ـ الذي بيده الملك، كل الملك ومطلق الملك، دون سواه.

٢ـ (وَهُوَ) ـ الله وحده ـ (عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). فيخلق ما يشاء من الماديات والمعنويات: ما يدخل في ملك الإنسان، كالممتلكات المنقولة وغير المنقولة. وما لا يدخل في ملك الإنسان، كالطاقات والمفاهيم والملك والجن. واما يستوعبه الإنسان. وما لا يستوعبه. وهو يتصرف في كل شيءٍ بنقله: من الموت إلى الحياة، ومن الحياة إلى الموت، ومن الوجود إلى العدم، ومن الهيولى إلى الصورة.

وأما المســـتحيلات ـ من مصاديق الجمع بين النقيضين ـ فهي ليســـت أشياء، وإن وضعت ألفاظ للإشارة إلى صور ذهنية تحســـب صور مصاديق الجمع بين النقيضين، إلا أنها ـ في الحقيقة ـ ليســـت من مصاديق الجمع بين النقيضين، وإنما افتراضات ليست لها صور ذهنية حقيقية.

وحتى إذا كانت تلك الصور الذهنية صوراً حقيقية لمصاديق الجميع بين النقيضين، فتلك خارجة عن المستحيلات وداخلة في الممكنات. والله يخلقها ـ في الأذهان ـ كما يشاء، ويتصرف بها: إيجاداً، وإفناءً، وتطويراً... كما يريد.

الموت بعبع أو منتجع

(تَبارَكَ الَّذِي: بِيَدِهِ الْمُلْكُ: وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ، لِيَبْلُوَكُمْ: أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً؟ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)(١٤٨).

ـ١ـ

(تَبارَكَ) تنزه عن النقص والعجز، (الَّذِي) انفرد بالسيطرة على كل شيء. فهو أعلى من كل شيء. ولا يد أعلى منه. و(بِيَدِهِ الْمُلْكُ) كل الملك: المنظور وغير المنظور، ما هو موجود بالفعل وما يمكن أن يوجد. فملك الله ملك كامل وذاتي، وملك غيره ـ مهما توسع وتعمق ـ فهو ملك ناقص وعرضي. (وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ): فقدرة الله قدرة مطلقة وأولية، فلا إرادة تتحكم فيها ولا قدرة تعترضها. وقدرة غيره ـ مهما شملت وامتدت ـ فهي قدرة محدودة وثانوية، فإرادة الله تتحكم فيها وقدرة الله تعترضها.

وهاتان الجملتان: (تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)، (وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، تمهدان لمفاجأة كبرى، هي أن الله خلق أشياء غير محسوسة كما أنه خلق الأشياء المحسوسة. وإدعاء أن الله ـ تعالى ـ خلق أشياء غير محسوسة إدعاء صعب، فيحتاج إلى التمهيد لسببين:

١ـ إن الذهنية البشرية لا تستطيع تصور غير المحسوسات، وإنما قد تؤمن ببعضها على أثر الحس بآثاره. فغير المحسوسات تبقى بعيدة عن مجال التصور.

٢ـ إن الذهنية العامة تعترف ـ بسهولة ـ بأن الله خلق المحسوسات: لأنها أشاء قائمة لم تكن ثم كانت، فلا بد أن الله خلقها، إذ لا خالق غير الله. ولأن المحسوسات مركبة من المواد الكونية، وخلقها ليس أكثر من تركيب تلك المواد تراكيباً خاصاً يمنحها مميزات معينة. وهذا... ما يمكن قبوله بسهولة.

وإن كان إنشاء تلك المواد الكونية المحسوسة لا يختلف ـ في مجال الخلق ـ عن إنشاء الأشياء غير المحسوسة، إلا أن الذهنية العامة لا ترقى إلى هذا التأمل. فتعترف بأن الله خلق المحسوسات ـ بسهولة ـ ، بينما يصعب على الذهنية العامة الاعتراف بأن الله خلق غير المحسوسات: لأنها ليست أشياء قائمة، ولأنها

لا تعرف شيئاً عما إذا كانت مركبة من عناصر كونية أو أنها بسائط غير مركبة؟

ومن هنا... كانت الحاجة ماسة إلى التمهيد. فالذي بيده كامل الملك، وله القدرة المطلقة، هو (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ)، وهذه... مفاجأة للذهنية البشرية من ناحيتين:

الأولى: رغم أن الحياة مسيرة البشر والموت مصير البشر، إلا أن البشر قلما وقف لتحليل حقيقة الحياة أو حقيقة الموت، وإنما يكتفى باستغلال أكبر قدر ممكن من حصائل الحياة، والهروب ـ مهما أمكنه ـ من الموت.

الثانية: أن البشر:

لا يتصور الحياة شيئاً منفصلاً عن وجوده المركب من الجسد والروح، فيفاجأ عندما يقال له: (إن الحياة شيء منفصل عن الجسد والروح، ومستقل عنهما، بل إنه خلق من خلق الله: (خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ).

ويتصور الموت مجرد فصل للروح عن الجسد ـ عند القائلين بالروح ـ ، ومجرد توقف القلب لطارئ من الطوارئ ـ عند غير القائلين بالروح، تمهيداً لفناء الإنسان ـ . فالموت عملية سلبية تعني الفناء والزوال والانتهاء، فيفاجأ عندما يقال له: (إن الموت ليس ـ فقط ـ مجرد عملية إيجابية تعني الانتقال والنمو والتطور، وإنما هو أكثر من ذلك. إنما هو شيءٌ منفصل عن وجوده البشري المركب من الروح والجسد، ومستقل عنهما. إنما هو خلق من خلق الله . وليس مجرد خلق من خلق الله، بل أكثر من ذلك. فهو خلق سابق على خلق الحياة: (خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ) فلا حياة إلا بعدها موت، ولا موت إلا بعده حياة، بل الحياة نتيجة طبيعية للموت. فالموت ـ إذن ـ خلق، والحياة ـ إذن ـ خلق آخر مترتب على الموت).

ومهمة الحياة أنها تربي الكائن الحيّ، وتسير به نحو التكامل استعداداً للموت، ومهمة الموت أنه يقفز بالكائن الحيّ من مرحلة دانية إلى مرحلة عالية. فالحياة تنمية رتيبة، بينما الموت في داخل الكائن الحيّ.

فالموت نقلة ثورية من قلق التجربة إلى قرار المصير، فهو حركة متكرسة الحيوية.

-٢-

الموت قفزة رائعة من قلق التجربة إلى قرار المصير، قفزة من مرحلة دنيا إلى مرحلة عليا. فلا بد من الموت، إذ بدونه يبقى الكائن الحيّ في المرحلة التي هو فيها، لأن حقيقة الموت هو الانتقال.

يقول أبو علاء المعري:

خلق الناس للبقاء، فظلت ۞۞۞ أمة يحسبونهم للنفادِ

إنما ينقلون من دار أعما ۞۞۞ لٍ إلى دار شقوة أو رشادِ

وعندما علمتنا مصادر الوحي أن نقول: (الموت حق) فإنما كانت تحاول أن تغرس في مشاعرنا أن الموت لا بد منه لتصعيد الإنسان من مرحلة هذه الحياة إلى مرحلة ما بعد الموت.

فالديالكيك وكل الفلسفات المادية، قوقعت الإنسان وظلمته أكبر ظلم، عندما قالت له ـ حسب تعبير القرآن:

(وَقالُوا: (ما هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا، نَمُوتُ وَنَحْيا، وَما يُهْلِكُنا إِلاَّ الدَّهْرُ) وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ)(١٤٩)، فغرست فيه أنه تافه محدود ليس له منفذ إلى الخلود.

فالإنسان، ذلك الخلق المستمر، الذي كان منذ أمد لا نعلم أوله بالضبط. وإن وردت إشارات رمزية في بعض الحديث، بمقدار ما كانت تحتمل العقول المعاصرة لمصادر الوحي، من: (إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام)(١٥٠).

وما يكشف عنه (عالم الأشهاد) الذي تشير الآية الكريمة:

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ـ مِنْ ظُهُورِهِمْ ـ ذُرِّيَّتَهُمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ: (أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ)؟! قالُوا:(بَلى شَهِدْنا)...)(١٥١). وهذا العالم يعبر عنه بـ(عالم الذر)، كما يعبر عنه بـ(عالم الأشباح).

ورغم أن العقول المعاصرة لمصادر الوحي، لم تكن تسمح بالتوسع في هذه الحقائق، فلم يصل إلينا تاريخنا، إلا أن مجموع ما وصل إلينا ـ رغم رمزيته ورغم فقدان الكثير منه ـ يكشف بوضوح: أن الإنسان لم يتكون يوم ولادته في هذه الحياة، ولا ينتهي يوم موته من هذه الحياة، وإنما كان قبل أن تتكون هذه الحياة، ويبقى حتى بعد انتهاء هذه الحياة.

لا نعرف ـ بالضبط ـ : كيف كان؟ وكم كان؟ ولا نعرف: أنه كان في عالم واحد أو في عوالم عديدة؟ ولكننا نعرف: أنه كان بشكل من الأشكال. ونعرف: أنه كان في دورة تكاملية، ثم جيء به إلى هذه الحياة مكرهاً،

وأدرج في الجسم البشري الثقيل مضغوطاً، ليمر بدورة تكاملية أخرى عبر هذه الحياة، ويخرج من هذا الجسم البشري ومن هذه الحياة ـ بعد أن ألفهما ـ مكرهاً أيضاً، ليمر بدورة ثالثة هي دورة (البرزج)، التي تتلوها دورة (القيامة) ثم المصير: (الجنة) أو (النار).

وقد أشار (أبو علي ابن سينا) إلى الرحلة الإنسانية عبر هذه الدورات، في قصيدته العينية:

هبطت عليك من المحل الأرفع ❁❁❁ ورقاء ذات تعزز وتمنع

هبط ـ على كرهٍ ـ عليك، وربما ❁❁❁ كرهت فراقك فهي ذات تفجع

فالإنسان (ممكن)، وجد بعد أن لم يكن، فليس (أزلياً). ولكنه وجد ليبقى، فهو (أبدي). وليس (سرمدياً)، لأنه مبتور الأول. وهذا... هو الفارق بينه وبين (الواجب): لأن (الواجب) هو (السرمدي) الذي يكون (أزلي) الماضي (وأبدي) المستقبل، وبتعبير أبسط (الواجب) ما لا أول لأوله ولا آخر لآخره. والإنسان يوجد الأول لأوله، وإن كان يشترك مع (الواجب) في أنه لا آخر لآخره.

ويدل على (أبدية) الإنسان، الآيات والأحاديث التي تؤدي: خلود أهل الجنة في الجنة، وخلود أهل النار في النار.

س: وما دام الإنسان لا ينتهي بالموت، فلماذا يخاف الموت؟

ج : غير المؤمن يخاف الموت، لأنه لم يفعل ما يطمئنه إلى سعادته في العالم الذي يجد نفسه على أبوابه، وربما تساوره المخاوف من العذاب الذي أنذر به الأنبياء غير المؤمنين، فيجد نفسه على مدخل الشقاء الدائم. والمؤمن الذي هيأ نفسه للعالم الجديد الذي يقبل عليه، وهيأه لنفسه، فإنه لا يخاف ـ بمعنى الخوف ـ ، وإنما يكره الموت لسببين:

١ـ يتهيب العالم الجديد الرهيب الذي سمع الكثير من عقباته ومتاعبه، ولم يرجع عنه من يطمئن إليه.

٢ـ يتبخل بالعالم القديم الذي ألف الكثير ممن فيه وما فيه، وعمل الكثير مما يسعده ويرفه عنه، أن يغادره إلى الأبد، وبدون عودة إليه، أو صلة تربطه به.

وقد لخص الإمام الحسن (عليه السلام) أسباب كراهية الموت في هذين السببين، عندما لوحظ عليه

أنه يبكي(١٥٢).

-٣-

١ـ الموت هو أهم ما يقلق الإنســان، فكل ما يمكن أن يقلق عليه الإنســان يجتمع في الموت، لأنه ـ في المفهوم المادي ـ يعني الفناء المطلق أو المجهول المطلق، وكلاهما أشد ما يقلق الإنسان.

فالموت مصير المصائر كلها، وكل إنسان يحاول أن يعرف الموت محاولته لمعرفة مصيره.

٢ـ إن القرآن الكريم هو المجال الصالح لدراســة الحقائق الكونية التي منها الموت، وهو المجال الأمين لهذه الدراسة، لأنه يستقي من الله الذي خلق كل شيء، فهو أعرف بحقائق الأشياء بدقة أكثر ووضوح أشد.

٣ـ إن الفيلســوف عندما يتناول دراسة شيء يحاول دراســة ذاته، فمثلاً يقول: (ما هو الموت)؟ والطبيب عندما يدرس شيئاً يحاول أن يعرف أسبابه ونتائجه، فيقول: (عم اذا يتولد الموت؟ وما هي نتائجه؟). ولكن القرآن عندما يتناول شيئاً إنما يتناوله من جانبه التربوي، فيعالج ـ مثلاً ـ القلق من الموت.

وفي هذا المجال، يشير القرآن إلى:

١ـ إن الموت خلق، فليس فناءً يقلق منه الإنسان على نفسه.

٢ـ الموت مقدم على الحياة في الترتيب اللفظي، والتقدم اللفظي يرمز إلى نوع من التقدم الواقعي، إذن: لا بد أن يكون الموت أسبق من الحياة. وإذا كانت الحياة بعد الموت، فالموت مهما كان صعباً وطويلاً، فإنه محدود يخرج منه الإنسان إلى الحياة، فلا يقلق منه قلقه لو كان الموت فناءً مطلقاً.

٣ـ إن الموت الذي يكون بعد حياتنا الدنيا هو موت من هذه الحياة، والحياة التي بعدها هي حياة الآخرة. وأخــذ الموت والحياة في ما بعد هــذه الحياة، دون الموت والحياة بصفة موضوعيــة عامة، إنما يوجه إلى الإعداد الديني أولاً، ومعالجة ما يقلق منه البشر في هذه المرحلة، لأن الموت الذي كان قبله هذه الحياة قد انتهى ولا قلق منه.

٤ـ تعليل الموت بالاختبار والابتلاء، أولاً: يخفف من القلق منه، ويوجه إلى الاستعداد له، لا القلق منه، فهو امتحان يســهل بالاســتعداد، لأنه ـ كأي امتحان ـ يحفز إلى التأهب فقط، وثانياً: يحول سلبيات الفرد

إلى إيجابيات في سبيل استكمال الاستعداد، فهو ليس ضربة طائشة تحطم وتدمر، وإنما تجربة خبير تبنى وتعمر.

٥ـ اختبار هاتين الصفتين ـ من صفات الله ـ لتأطير الآية: (الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)، يساهم في معالجة القلق من الموت، فالله عزيز: لا يحتاج ـ في تمكين سلطانه ـ إلى عقاب أحد أو الانتقام من أحد، وإنما له السلطان الكامل كيفما تصرف. وهو غفور: يعفو، ويصفح كثيراً.

٦ـ ومن هنا يبدو: لماذا افتتحت السورة بصفتين ـ وإن صيغتا صياغة الافتتاح ـ وهما: بركة الله (تَبارَكَ): فالله مصدر النمو، ولا يكون منه الضمور والفناء، فليس من الله سوى التوسع والانتشار، فلا موت من الله فهو ليس فناءً. وملك الله (بِيَدِهِ الْمُلْكُ): فالإنسان يتقلب في ملكه ـ ميتاً كان الإنسان أو حياً، وما دام الإنسان تحت رعاية الله وفي ملكه فليس له أن يقلق، لأنه ليس مهملاً أو متروكاً حتى يخاف أو يقلق.

إذن: فالموت، وجود. وإذا شئنا أن نتوقع ـ أو نتعمق ـ يصح أن نقول: إن الموت قفزة من قلق التجربة إلى استقرار المصير، فلا مبرر للقلق، منه بل لا بد من التأهب له لتأتي القفزة رائعة.

ومن ثم نجد تشبيه الموت بالزينة في كلام الإمام الحسين (عليه السلام): (خط الموت على ولد آدم كخط القلادة على جيد الفتاة)(١٥٣).

من عجاب الأرض

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً ، فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ، وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ . وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)(١٥٤) .

لعل حجم عجائب الأرض أكبر من حجمها الطبيعي ككرة منتظمة في الفضاء، فهي مجموعة من العجائب:

١ـ إنها زاخرة بكل ما يؤمن حاجات الإنسان، وحافلة بكل ما يتجاوب مع: كمالياته، ونموه العلمي، والتكنولوجي... فهي تقدم للإنسان كل ما يمكن أن يشعر الإنسان بحاجته إليه، حتى نهاية التصاعد العلمي وحتى نهاية الإنسان.

٢ـ إنها تعطي للإنسان مواهبها جديدة: فهي تقدم المعادن، والمجوهرات، والبترول... جديدة غضة وكأنها خلقت لتوها. كما تقدم الفواكه، والحبوب والورود... طرية يانعة. ثم تستخرجها من ـ الإنسان ـ زوائد

وفضلات ضارة مؤذية، فتبــدأ بتحليلها وتركيبها، وتعيد بنائها أجد وأغض. وتعمل الأرض هذه العملية في شقيها التراب والماء، فالبحار ـ أيضاً ـ تواصل عمليات التجديد الهائلة.

ولعــل هذه الحركة الذائبة الدينامية في الأرض، التي تبدو جامدة من الصخور والتراب، أعجب عجائب الدنيا وأم عجائب الدنيا.

(٦٨)

سورة القلم = النون

مكية وهي إثنان وخمسون آية

(٦٩)

سورة الحاقة

مكية وهي إثنان وخمسون آية

(٧٠)

سورة المعارج = سئل سائل

مكية وهي أربعة عشر آية

(٧١)

سورة نوح

مكية وهي ثمانية وعشرون آية

(٧٢)

سورة الجن

مكية وهي ثمانية وعشرون آية

ما هو الجن؟

١ـ إن مخلوقات الله، أكثر من أن يستطيع العقل البشري، إحصاء أنواعها أو أجناسها. وأما أصنافها، وأقسامها وتفاصيلها... فلا يحصيها غير الله.

وكثرة المخلوقات، مقتضى القدرة المطلقة.

وقد أشارت أوساط الوحي، إلى كثرة المخلوقات، بتعبيرات متناسبة مع مستوى الوعي المعاصر لصدور الأحاديث:

(إن لله ألف عالم وألف آدم، لا يعلمون هل الله خلق عالمكم وآدمكم أم لا)(١٥٥).

إن لله ألف مدينة بالمشرق، وألف مدينة بالمغرب)(١٥٦).

وأمثال هذه الأحاديث، تتوارد على حقيقة واحدة، وهي: أن أجناس المخلوقات وأنواعها، أكثر من كل ما يمكن أن يتصوره العقل البشري، مهما امتدّ به المدى.

٢ـ إن المخلوقات الموجودة في هذه المجموعة الكونية التي خلق البشر في جانب محدود منها، أكثر من أن يستطيع العقل البشري إحصاء أنواعها أو أجناسها، وأما أصنافها، وأقسامها، وتفاصيلها... فلا يحصيها غير الله.

وكثرة المخلوقات في هذه المجموعة الكونية التي خلق البشر في جانب محدود منها، مقتضى القدرة المطلقة.

فإذا كان جسم بشري واحد، يعج بأنواع مختلفة من المخلوقات ـ التي يعبر عنها اليوم بالميكرون ـ ، فما ظنك بكل هذه المجموعة الكونية، التي خلق البشر في جانب محدود منها؟!

وإذا كانت أنواع الأشعة المختلفة المتفاعلة حولنا، أكثر من أن يحصيها العلم، فما بالك بالمخلوقات المتطورة من الأشعة؟! ومع تقدم العلم، يكتشف أشياء جديدة، لو طرحت اليوم على العلماء لاعتبروها أضغاث أحلام. ولكن لا بد من الاعتراف إجمالاً ـ بأن المخلوقات، حتى في هذه الزاوية الكونية التي

نعيشها، أكثر بكثير من كل ما يمكن أن يتصوره العقل البشري، مهما امتد به المدى.

٣ـ لا شـــك أن مصادر الوحي كانت ملمة بكثير من المخلوقات، ولكنها لم تكشـــف الستار عنها للناس الذي يعيشون مرحلة ما قبل الرجعة، لأسباب أهمها:

الأول: أن العقل البشري ـ في مستواه العام ـ لا زال يسلخ فترة الطفولة، فلا يتحمل أكثر مما ألقي عليه. أليس في الحديث: (لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله)(١٥٧)؟! أليس في سيرة موسى (عليه السلام)، أنه لما طلب من الله المعرفة لعابد، ورجع إليه من طور ســيناء، وجده مبهوتاً لا يســتطيع الكلام، فطلب من الله أن يسلبه المعرفة، ليعود إلى وضعه الطبيعي؟!(١٥٨).

الثاني: أن العقل البشري، في هذه المرحلة، لو أطلع على المخلوقات الموجودة في مجموعته الكونية، لا يستطيع التعامل معها، لأنه لم يبلغ المستوى المناسب لها، فتعريفه بها يدخله في جدل عقيم. مع الأخذ في الاعتبار: أن (الناس أعداء ما جهلوا)(١٥٩)، فكيف بما لا يستطيعون تصديقه، والاستفادة منه؟!

ولعله لســبب مشابه، لم تنقل إلينا أوساط الوحي، ســير جميع الأنبياء، ولا حتى أسماءهم، رغم أن في ســيرهم الهدى والحكمة. لأن فيها الكثير مما لا يصدقه العقل البشــري، أو لا يســتفيد منه. واكتفت برواية قصاصات من سير بعض الأنبياء، عاشوا عصوراً قريبة من عصرنا، وعقليات مشابهة لعقليتنا.

الثالث: أن العقل البشــري في هذه المرحلة، منفلتة من الضوابط. فلو تعرف على بعض القوى الكونية، واســتطاع التعامل معها كان من الطبيعي عدم الســيطرة عليها، أو استخدامها في جرائم واسعة النطاق، في الأرض أو خارجهــا، كما هو الحال بالنســبة إلى: (الذرة)، مع العلم بأنها من أبســط القوى، وأقلها فاعلية وخطورة.

فــكان من الأفضل، تأجيل التعريف بالموجودات الكونية في مجموعتنا، إلى مرحلة: (الرجعة) التي تبدأ بظهور الإمام المنتظر (عليه الســلام)، حيث يتم ضبط العقل البشــري تحت قيادة معصومة، ويكمل الفكر البشري بتوجيه المعلم الكامل.

(٧٣)

سورة المزمل (صلى الله عليه وآله وسلم)

مكية وهي عشرون آية

تربية القادة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ !

قُمِ اللَّيْلَ ،

إِلاَّ قَلِيلاً : نِصْفَهُ ، أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ. وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً .

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً

إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ : أَشَدُّ وَطْئاً ، وَأَقْوَمُ قِيلاً إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً

وَاذْكُرِ : اسْمَ رَبِّكَ ، وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ ، فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا) (١٦٠) .

هذه السورة من السور التربوية التي تعنى بتربية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، و ـ من وراءه ـ كل القادة المؤمنين. وكل المؤمنين قادة، كما في الحديث: كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته)(١٦١).

(يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ) الآوي إلى فراشه! وزع أوقاتك في الليل، فلا تخصصها للنوم، ولا تكرسها للعمل فالليل سبات. ولكن قسمها قسمين: قسماً للنوم، وقسماً للعبادة والتفكير للعمل. فـ(قُمِ اللَّيْلَ ـ إِلاَّ قَلِيلاً: نِصْفَهُ، أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ) فنم حوالي نصف الليل، وانهض من فراشك، وانفض عن جفونك النوم بقية الليل.

ويفضل: أن يخصص القسم الأول من الليل للنوم، لأنه ينفض رهق النهار. وأول الليل في اليوم يشبه الخريف في السنة، فالأفضل الهروب منه بالنوم. ويخصص النصف الأخير للعبادة والتفكير، لأن الإنسان

بعد نوم نصف الليل لا يشكو رهقاً. وآخر الليل في اليوم يشبه الربيع، فالأفضل إحياؤه للانتعاش به. ونفس الإنسان تتأثر بحركة الظلام والضياء: فمع طغيان الظلام تنقبض، ومع انحسار الظلام تنفتح ـ (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) خلال النصف الأخير من الليل، لأن:

١ـ تلاوة القرآن توجه الإنسان إلى الله، فتجعله مستقيماً متقياً في تخطيطه للغد.

٢ـ تلاوة القرآن تهيئة للارتفاع إلى قمته في تفكيره وتخطيطه، فتجربة معاناة الآخرين تهيئ لمعاناة مشابهة: فالشاعر قبل نظم الشعر ـ مباشرة ـ إذا قرأ رائعة ينظم شعراً رائعاً، وإذا قرأ سخيف الشعر يكتب شعراً سخيفاً. فمع أن الركائز المستقرة في الإنسان هي التي تنتج، إلا أن الوضع الوقتي للإنسان يترك طابعه على إنتاجه. فتلاوة القرآن حين التفكير والتخطيط ـ تبعث على إنتاج أعلى وأرفع ما يمكن.

قم الليل، وفكر، وخطط... فـ(إِنَّ لَكَ ـ فِي النَّهارِ ـ سَبْحاً طَوِيلاً) في خضم المجتمع الهائج بكل ما يربك ويجرف، وهو لا يتيح لك مجال التفكير والتخطيط، ولا يمكنك اجتيازه ـ بنجاح ـ إذا خضته بلا تهيؤ مسبق، واعتمدت على الارتجال في مواجهة مسؤولياتك فيه.

ولا يمكنك الاتكال على بقايا أفكار اليوم الماضي خطةً لليوم المستقبل، فالانطباعات التي تترسب على ذاكرتك في النهار وأنت مرهق، تحمل آثاراً من رهقك، فهي بدورها فقيرة إلى التنشيط والتمشيط. فأرجع آخر النهار إلى مأواك، وأخلد إلى النوم حتى ترتاح، ثم انهض ـ بأعصاب ريانة ـ آخر الليل، حيث الكون كله قصيدة توحي وتبعث، وأدرس عمل اليوم السابق، وخطط لليوم اللاحق بكل هدوء. فأفكار الليل، أعمق وأقوم.

(وَاذْكُرِ: اسْمَ رَبِّكَ) خلال عملك الليلي في التهيؤ، حتى لا تنتج أفكاراً لاهثة خلف الحطام بدون تقييم لأية قيمة. (وَتَبَتَّلْ ـ إِلَيْهِ ـ تَبْتِيلاً) مطلقاً. فمن انقطع عن كل الوسائل لا يمكن أن تنطلي عليه شائبة، هذا الإنسان يعمل عملاً انتحارياً هائلاً، إذ لا يجد ملجأ غير عمله، فيعمل حتى يطمئن إلى أن عمله يعصمه ويؤديه. وربك الذي تتبتل إليه، هو: رب كل ما تعيش، وما تتصور، وكل ما يمتد إليه خيالك من أقصى نقاط الأبعاد. فالمشرق الذي يمثل نقطة البداية، والمغرب الذي يمثل نقطة النهاية، خاضعان لربك:

(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) وليس هو رب المشرق والمغرب فحسب، بلا لا رب سواه:

(لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) فهو الرب المطلق الوحيد لكل شيءٍ، فاعتمد عليه ـ وحده ـ في كل شؤونك الفكرية والكونية، ولا تحاول أن تعتمد على فكرك وكونك، فأنت لا تسع حاجاتك مهما استنفدت طاقاتك.

فإذا لم تعتمد على الله، كان عليك أن تعتمد على زملاءك البشر، القاصرين ـ مثلك ـ عن استيعاب حاجاتهم: فتعتمد على الفيلسوف الذي يبرمج فكرك بأيديولوجيته، والمشرع الذي يضبط عملك بقانونه، والنائب الذي يتصرف بثقتك في مصلحته، والرئيس الذي يكرسك ـ مع مواطنيك ـ في لعبته، والمنظمات التي تستنفذك ـ وزملاءك ـ في انتماءاتها، والوطن الذي يبسمر آمالك في ترابه، ويحصر إمداداتك في حدوده... فتحرر من كل جواذب الأرض، ومشداته، وتوجه إلى المطلق الذي يدفعك إلى الانطلاق:

(فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً) تعتمد عليه في حاجاتك الفكرية والكونية.

فهو: وكيل من توكل عليه، وولي من انقاد له.

تربية القادة أيضاً

في هذه السورة إشارة إلى أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تزمل ذات ليلة ـ لعل ـ ونام، فنزلت هذه السورة.

وهذه السورة من السور التربوية، التي يربي الله بها نبيه، ومن خلال نبيه كل القياديين من أمته.

(قُمِ اللَّيْلَ ـ إِلاَّ قَلِيلاً...) فالمهم: أن على القادة أن يسهروا قسماً كبيراً من الليل (نصف، أو أكثر، أو أقل) وخاصة: القسم الأخير، بأن يناموا أول الليل، حتى ينفضوا عنهم أتعاب النهار، ويسهروا القسم الأخير من الليل، حيث تهدهدهم أنسام الأسحار في رخاء الليل البهيم وهدوءه الصافي، ليفكروا ويخططوا، ويقرأوا القرآن فيستلهموا منه الصفاء والإخلاص، حتى تصمم خططهم بروح صافية مخلصة، بعيدة عن الجنوح ونقاط الضعف والعقد. ويستلهموا منه الخطط أيضاً، فالقرآن معين لا ينضب.

(إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ: أَشَدُّ وَطْئاً، وَأَقْوَمُ قِيلاً) لعل خطة الليل، وتفكير الليل، أقوم وأثبت.

(إِنَّ لَكَ ـ فِي النَّهارِ ـ سَبْحاً طَوِيلاً) في خضم المجتمع الهائج الذي لا يهدأ، ولا يمكن ركوبه، وترحيله في اتجاه الخير، وتنزيل الخطط فيه، إلا بالفكر المسبق، والتقييم الدقيق.

(...وَتَبَتَّلْ ـ إِلَيْهِ ـ تَبْتِيلاً) انقطع إلى الله، والتجئ إليه، فإنه المصدر الأول والمنتهى الأخير ولا يكون شيء إلا بتقديره، فاستعن به (...فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً) فهو: وكيل من عمل في سبيله، وانقطع إليه.

فبدون التبتل إلى الله لا تنجح الأعمال. لأن القفزات القيادية لا توفق إلا بشيء من المغامرة، والمغامرة لا تصدر عن حساب دقيق، وإنما تصدر عن الانقطاع إلى الله، والتوكل عليه، حتى يمكن الإقدام على ما لا يؤمن مصيره، ولا ترى عاقبته.

(٧٤)

سورة المدثر (صلى الله عليه وآله وسلم)

مكية وهي تسعة وخمسون آية

فاعليّة الواقع القرآني

(ذَرْنِي وَمَنْ : خَلَقْتُ وَحِيداً ، وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً ، وَبَنِينَ شُهُوداً ، وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً .

ثُمَّ : يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ .

كَلاَّ . . . إِنَّهُ كانَ لآياتِنا عَنِيداً . سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً .

إِنَّهُ فَكَّرَ ، وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ ، كَيْفَ قَدَّرَ ! ثُمَّ : قُتِلَ ، كَيْفَ قَدَّرَ ! ثُمَّ : نَظَرَ ، ثُمَّ : عَبَسَ ، وَبَسَرَ ، ثُمَّ : أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ، فَقالَ : إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هذا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ .

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ . وَما أَدْراكَ ما سَقَرُ ! . . لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ، لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ، عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ) (١٦٢) . .

من ثقة القرآن الكريم بواقعه، أنه لا يتهيب: (الشعارات) التي ترفع ضده. وإنما يعلنها، ويسبغ عليها روعته المعجزة، حتى تكون ـ في الصيغة القرآنية ـ أشد وهجاً من الصيغة التي أطلقت بها من قبل أصحابها. ثم: لا يقف ـ عندها ـ لنسفها، وإنما يتركها لتأخذ مداهما، مطمئناً إلى أن واقع القرآن ـ وحده ـ يكفي لنسفها.

(٧٥)

سورة القيامة

مكية وهي أربعون آية

الاستيعاب عبر الإلهام

(لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنا : جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذا قَرَأْناهُ ، فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ : إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ) (١٦٣) .

إذا استبطنت آية لتستنبطها: فقد تستنفدها بعد ساعة... أو بعد يوم... فتنتهي الآية على يدك، اليوم... أو غداً... وقد تستمر ـ معك ـ أبداً.

آية من القرآن الكريم: يمكنك أن تعرف عنها كل شيءٍ، ثم تكشف أنك لا تعرف عنها شيئاً.

والمعرفة والجهل ـ بالنسبة إلى القرآن ـ لا علاقة لهما بدراسته أو عدم دراسته، فربما تدرسه ربع قرن... أو نصف... ثم تخرج إلى الشارع، لتجد كلمة مرتجلة على لسان أمي، تعطيك ـ من القرآن ـ أكثر مما أعطاك نصف قرن من دراسته.

(٧٦)

سورة الدهر = الإنسان

مدنية وهي إحدى وثلاثون آية

سؤالان

(إِنَّ الأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً . عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللهِ ، يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً) (١٦٤) .

١ـ يقولون: تأتي (بـ) بمعنى (من)، فـ(يشرب بها) يعني يشرب منها. ولكن الله كان قادراً على أن يقول:

(منهـــا)، وعندما عدل إلى: (بهـــا)، قصد معنىً خاصاً تدل عليه (بـ)، ولا تـــدل عليه (من). فما هو ذلك المعنى.

وعلى العموم: لا تستخدم ـ كلمة بدل أخرى، إلا لإيحاءٍ معين... أو دلالة خاصة...

٢ـ هل عيون الجنة ـ ومنها هذه العين ـ متفجرة جارية، فيشرب منها عباد الله، أو أن عباد الله يعملون في الجنة، فيفجرون عيونها، كما يعملون في الدنيا، فيفجرون عيونها، ويشقون أنهارها؟

النعيم العظيم والملك الكبير

(وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ، رَأَيْتَ: نَعِيماً، وَمُلْكاً كَبِيراً)(١٦٥).

فلو أرسلت النظر في جنبات الجنة ـ (رَأَيْتَ: نَعِيماً) عظيماً، لا رأته عين... ولا سمعت به أذن... ولا خطر على قلب بشـــر مهما حلق به الخيال... فالجنة، فوق خيال الشـــاعر. (وَ) رأيت: (مُلْكاً كَبِيراً) لم تر مثله في الدنيا.

وذلك الملك الكبير:

١ـ إما ملك الله ـ تعالى ـ ، لأن الجنة من ملك الله، فإذن رأيت ملكاً كبيراً.

٢ـ وإمـــا ملك الناس، لأن كل فرد في الجنة يعطى أكثـــر من كل الدنيا. فلفرد إذا دخل الجنة، رأى ملكاً كبيراً، يخوله الله إياه، كما يخوله نعيماً لم يخطر على قلبه. وربما دعم هذا الاحتمال، ما في بعض الحديث: (إن كل فرد يعيش مَلِكاً في الجنة)(١٦٦).

(٧٧)

سورة المرسلات

مكية وهي خمسون آية

(٧٨)

سورة النبأ (عليه وآله السلام)

مكية وهي أربعون آية

(٧٩)

سورة النازعات

مكية وهي ستة وأربعون آية

الملائكة

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً

وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً

وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً

فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً

فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا)(١٦٧) .

الملائكة: خلق من خلق الله، نؤمن بوجودها، ونعرف أعمالها، ولا نعر حقيقتها، بمعنى: أنه ـ إلى الآن ـ لم نلمس الملائكة بإحدى حواسنا، وإلا فنحن لا نعرف شيئاً من حقائق الأشياء. وقد كان الفلاسفة القدامى يقولون: (معرفة حقائق الأشياء، من المستحيل)، وقال إنيشتاين: (إن معرفتنا بحقائق الأشياء، أقل من معرفة الأطفال بما في أعماق البحار).

فنحن لا نعرف حقيقة الروح، ولا نعرف حقيقة الأوكسجين والهيدروجين، ولا نعرف حقيقة الكهرباء...

وما دمنا نجهل كل الأشياء، ولا نعرفها إلا بأوصافها ونتائجها، فما ضرّ لو جهلنا الملائكة، والشياطين، والجن...؟!

وقال بعض المصابين بالانهزامية المادية: (إن الملائكة، تسند إليها أعمال كونية، في الآيات والأحاديث: فهي التي تحرك الشمس، والأرض، وحتى قطرات المطر، مع كل قطرة ملكان، يضعانها في مكانها على الأرض، إذن: فالملائكة، هي القوى الكونية. والملكان اللذان مع كل قطرة مطر، هما: قوة جاذبية الأرض، التي تجرها نحو الأرض. وقوة ضغط طبقات الجو، التي تشدها ببعضها في صورة كرة، وتمنعها من التلاشي والتبخر).

ولكن: لا يمكن القول بذلك، مع الالتزام بالقرآن والحديث.

ويمكن ان نقول: إن القوى الكونية هي الملائكة، لا أن الملائكة هي القوى الكونية.

بمعنى: أن الملائكة هي التي تنفذ إرادة الله، بإجراء الكون وفق سنة الله، التي قدرها للكون. والعلماء الماديون، حيث رأوا نتائج أعمال الملائكة، ولم يؤمنوا بالملائكة، ادعوا: أن هنالك قوى كونية، تعمل هذه الأعمال.

وخلاصة قول أولئك: (إن الملائكة: لا وجود لها، وإنما هي التصور الإيماني للقوى الكونية). كأن الله لو كان يطلق التعبير العلمي، كان ينافي ربوبيته، فأوجد تعبيرات قرآنية، بصيغة ميتافيزيقية خرافية.

وخلاصة قولنا: إن القوى الكونية لا وجود لها، وإن كل الأعمال الكونية هي أعمال الملائكة، وأن

التعبير بـ(القوى الكونية) تعبير جاهل بالحقيقة.

كما يمكـــن القول: بأن القوى الكونية موجـــودة، والملائكة موجودة. فبعض الأعمـــال أعمال الملائكة، وبعض الأعمال أعمال القوى الكونية.

علوم الإنسان

(يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ: أَيَّانَ مُرْساها؟

فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها.

إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها)(١٦٨).

-١-

يقال: إن العلوم ـ كلها ـ صادرة من الله إلى الناس، بواســطة أولياءه، فليس للبشـــر علم إلا وأخذ أولياته من نبي أو وصي نبي.

وعادة: تصدر العلوم في خط عمودي، من: الله، إلى المختصين من الملائكة، إلى الأنبياء، إلى الأوصياء، إلى البشرية.

وهنالك: علوم مختصة بالله ـ ســبحانه وتعالى ـ ، فإذا صدرت من الله لا تصل إلى أحد من خلقه ـ لأنهم ـ لا يتحملونها ـ فتعود إلى الله، وتستقر عنده. فكل علم لا يخرج من الله إلا إليه، علم فوق طاقة الخلق، لا يوجد أحد ـ من: الملائكة، والنبيين، وغيرهم... ـ يستطيع احتماله ، فيبقى مختصاً بالله. لا بخلاً من الله في إفاضته على الخلق، وإنما عجزاً من الخلق عن استيعابه:

كما أن آذاننا المجردة، لا تســتطيع أن تســتوعب الأصوات، إذا كانت فوق درجة معينة، أو تحت درجة معينة. ولا تسمع الأصوات اللاسلكية. لا لأنها غير موجودة حوالينا، وإنما لقصور فينا...

وكما أننا لا نستفيد إلا من كمية محدودة من: الهواء، والأشعة، والماء، وسائر عناصر الكون. لا لأن هنالك ما يحجبها عنا، وإنما لأن قدرتنا على اســتعابها محدودة... ألم يكن أمير المؤمنين (عليه السلام) يضرب

بيده على صدره، ويقول: (هنا... سفط العلم، لو وجدت أوعية)(١٦٩)؟!

فالعلـــم ـ كله ـ متاح، ولا يوجد ما يضن به علينا إلا عدم اســـتعدادنا لاســـتيعابه. ولـــو ألقي علينا أكثر مما نســـتطيع احتماله، لأدى إلى نتائج ســـلبية، قد يكون من أقلها: فقدان التوازن. تماماً... كما أن لكل فرد استعداداً محدوداً لاستقبال: الشعاع، والهواء، والطعام... فلو دفع إلى داخله كمية أكبر، أدى إلى مضاعفات خطيرة، أقلها: المرض. ألم يقل أمير المؤمنين (عليه الســـلام): (... بل انطويت على مكنون علم، لو بحت به، لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطويّ البعيدة)؟!(١٧٠).

ـ ٢ ـ

هـــل النبي والأئمة (عليهم الســـلام) كانوا يعلمـــون موعد ظهور الإمام المهدي (عجـــل الله تعالى فرجه الشريف) ولا يعلنونه، أو لم يكونوا يعلمون؟

وهل النبي والأئمة، كانوا يعلمون موعد قيام الساعة ولا يعلنونه، ما كانوا يحيطون به علماً؟

أولاً: الظاهر ـ من مجموعة من الأدلة المتواترة معنىً عندنا ـ أنهم كانوا يعلمون كلا الأمرين، وإذا شـــاءوا عرفوا نظائرهما، من: البلايا، والمنايا، والحوادث...

فمثـــلاً، يـــروى عن أمير المؤمنين (عليه الســـلام): (لو لا آية في كتـــاب الله، لأخبرتكم بـ : ما كان، وما يكون، وما هو كائن إلى يوم القيامة)(١٧١).

ومثلاً، ـ ينسب إلى الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (إن الله ليستحيي من عباده، أن يأمرهم بطاعة أحد منهم، ثم: يحجب عنه الغيب... وإن الإمام يعلم، حتى عدد خفقات جناح البعوض في الهواء)(١٧٢).

ومثلاً: المعروف: أن الملائكة كانت تحدث فاطمة الزهراء بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، لتسليتها عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ ، فتخبرها بكثير من: ما كان، وما يكون، وما هو كائن إلى يوم القيامة. فكانت تملي ذلك على الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، ويكتبه الإمام في كتاب، عرف ـ فيما بعد ـ بـ : (صحيفة فاطمة)(١٧٣).

والمعروف: أن أهل البيت (عليهم الســـلام) أعطوا لســـلمان الفارســـي (رضوان الله عليه) علم: (المنايا، والبلايا)، وأنهم أخبروا كثيراً من مواليهم بما يجري عليهم، ثم: جرى كل شيء كما أخبروا.

وليس موعد ظهور الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشـريف)، ولا موعد قيام السـاعة، إلا من جملـة الأحداث المسـتقبلية، الداخلة في نطاق الغيب. والله يطلع بعض رسـله على الغيب، وقد يسـمح لبعضهم أن يطلعوا آخرين على أشياء من الغيب، بمقتضى قوله تعالى:

(عالِمُ الْغَيْبِ، فَلا يُظْهِرُ ـ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً ـ إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُـولٍ، فَإِنَّهُ يَسْـلُكُ ـ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ ـ رَصَداً)(١٧٤).

وبمقتضـى قوله عزَّ وجلَّ: (ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى مـا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ. وَما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ. وَلكِنَّ: اللهَ يَجْتَبِي ـ مِنْ رُسُـلِهِ ـ مَنْ يَشـاءُ. فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ)(١٧٥).

والثابت: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان أعظم رسل الله، فأطلع على كل غيب أطلع عليه رسـول، ولا شك: أنه أطلع على كثير من الغيب، لم يطلع عليه سواه من الرسل، لمكان الأفضلية. وقد ورد في: (الزيارة الجامعة) ما يشير إلى الآيتين السابقتين: (ارتضاكم لغيبه، واختاركم لسره)(١٧٦).

ولا يوجد ما يدل على أن موعد ظهور الإمام المنتظر (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وقيام الساعة، من العلـوم المختصة بالله، فهما من جملة الحـوادث، التي تختلف على هذه الأرض. وفي بعض الحديث: (إن الأرض للإمام، كالدرهم في كف أحدكم: يقلبه كيف يشاء)(١٧٧).

فمـن الطبيعـي: أن يكـون النبي (صلى الله عليه وآله وسـلم) عالمـاً بهما. وإذا علـم النبي (صلى الله عليه وآله وسـلم) بهما، علمهما للوصي، بمقتضى ما ينسـب إليه: (ما من علـم علمنيه ربي، إلا وعلمته علياً...)(١٧٨).

ثانياً: لا شـك أن النبي كان يعلم كثيراً من المستقبل، كـ: شهادة الإمام علي، وفاطمة، ومقتل الحسين... وغيبة المهدي (عليهم السـلام)، وظهور الخلفاء ثم الأمراء ثم الملوك ثم الجبارين... وإلى هذا الحد، كان يعلم بعدم ظهور المهدي حتماً. ثم: يأتي وقت ـ كسـنة ألفين مثلاً ـ لا تكون له أحداث ثابتة، فكل شـيء ـ في علم النبي (صلى الله عليه وآله وسـلم) ـ إما أن يجري بهذا الشكل أو بذاك الشكل، لأن المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشـريف) إذا ظهر تجري الأحداث بشـكل وإذا لم يظهر تجري الأحداث بشكل آخر. فإذا وجد الارتباك في العلم بالأحداث، يظهر أنه موعد ظهور المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف). وهكذا... بالنسبة إلى الساعة.

ثالثاً: من المسلمات الإسلامية أن روح النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ وأرواح عدد من الأنبياء العظام ـ كانت تتصل بـ : (اللوح المحفوظ) للإطلاع على المعلومات المسجلة فيه. ومن المسلمات ـ أيضاً ـ أن المعلومات الواردة في: (اللوح المحفوظ) للتنفيذ، فهي حتمية الوقوع، وليست من نوع المعلومات الواردة في: (لوح المحو والإثبات) التي هي للتجربة، فليست حتمية الوقوع. و(اللوح المحفوظ) يحتوي حتى على الجزئيات، فكيف يغيب عنه أحداث في حجم: ظهور المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، وقيام الساعة؟!

فالظاهر: أن النبي والأئمة، كانوا على إطلاع بموعد جميع الحوادث، بما فيها: ظهور المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وقيام الساعة. ولا يوجد ما يوحي بخلاف ذلك، إلا بعض الأدلة:

من جملتها هذه الآية:

(إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها).

ولا بد ـ هنا ـ من أن نقول: إن هذه الآية، قد يمكن اعتبارها من الأدلة على علم بعض الخلق بموعد الساعة. لأن هذه الآية، تشير إلى الوازع من حركة هذا العلم، بـ :أن يصدر من الله، ويصل إلى بعض خلقه، ثم يعود إليه. وهذه الحركة لا بد أن تشمل بعض الخلق، وإلا لا يبقى مبرر لها. فمجرد صدوره من الله، دليل على اتجاهه نحو بعض خلقه. أقصى ما هنالك: أنه لا يصدر من الله لينتشر في الخلق، وإنما يصدر منه ليشمل عدداً معيناً من الخلق، يحتفظون به ليعيدوه إليه، فإذا سئلوا عنه، لم يبوحوا به، وإنما اكتفوا ـ في الجواب ـ بقولهم المعروف: (الله أعلم).

ـ ٣ ـ

يبقى ـ هنا ـ مجال لمحاولة التعرف على سبب كتمان هذين الموعدين، وزجهما في دائرة الأسرار الإلهية. ويمكن احتمال ما يلي:

بالنسبة إلى موعد قيام الساعة: كان المعاصرون لنزول القرآن، يعتقدون: أن الساعة تكون عندما تبيض عظامهم في ظلام القبور، ومع ذلك: كانوا يتجهون نحو إنكارها، مستغربين حياتهم بعد تساقط لحومهم عن عظامهم، فكانوا يقولون:

(وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا: هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ ـ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ـ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ!؟

أَفْتَرى ـ عَلَى اللهِ ـ كَذِباً؟ أَمْ بِهِ جِنَّةٌ؟ بَلِ: الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ، فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ)(١٧٩).

ويضيفون: (وَقالُوا: أَ إِذا كُنَّا عِظاماً، وَرُفاتاً، أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً؟! قُلْ: كُونُوا: حِجارَةً، أَوْ حَدِيداً، أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ. فَسَيَقُولُونَ: مَنْ يُعِيدُنا؟ قُلِ: الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ. فَسَيُنْغِضُونَ ـ إِلَيْكَ ـ رُؤُسَهُمْ، وَيَقُولُونَ: مَتى هُوَ؟ قُلْ: عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً يَوْمَ يَدْعُوكُمْ، فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ، وَتَظُنُّونَ: إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً)(١٨٠).

فإذا كان النبي يقول لهم: (إنكم تبعثون بعد مائة مليون من السنين ـ مثلاً ـ ، وبعد أن جرى فيكم ألف تحول من بشر، إلى تراب، إلى نبات، إلى حيوان مأكول، إلى حيوان آكل، إلى أطوار... وأطوار...) فربما كان جميعهم، أو أكثريتهم الساحقة ـ على الأقل ـ تتأصل في عدم القناعة به.

بالنسبة إلى موعد ظهور الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف):

أصبح بعض الناس يشكون فيه، رغم انهم ـ منذ غيبته الصغرى ـ كانوا يحتملون ظهوره في أي يوم، فلو كان والده الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) يقول لشيعته: (إن ابني المهدي، لا يظهر إلا بعد خمسة آلاف من السنين ـ مثلاً ـ) فلا شك أن أكثرهم كانوا ييئسون من دركه، وينكرون: بقاءه، وجدواه. أو كانوا يجهدون أنفسهم دائرة احتمالاته، فلا يهتمون بأصل فكرة: (المصلح المنتظر)، ولا يحفظونها للأجيال الصاعدة من خلفهم، حتى تتلاشى الفكرة، وتغيب عن قاموس التشيع.

(٨٠)

سورة عبس = الأعمى

مكية وهي إثني وأربعون آية

(٨١)

سورة التكوير = كورت

مكية وهي تسعة وعشرون آية

(٨٢)

سورة الانفطار

مكية وهي تسعة عشر آية

(٨٣)

سورة المطّفّفين

مكية وهي ستة وثلاثون آية

(٨٤)

سورة الانشقاق

مكية وهي خمسة وعشرون آية

الخط الفاصل بين العظماء والتافهين

(يا أَيُّهَا الإِنْسانُ !

إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً ، فَمُلاقِيهِ .

١.فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ :

فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً .

وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً .

٢.وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ :

فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً ،

وَيَصْلى سَعِيراً .

إِنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً .

إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ .

بَلى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً) (١٨١) .

من الخطأ تقسيم الناس إلى: (عظماء) و(تافهين) بمقياس إنتاجهم. فكل إنسان مزود بطاقة هائلة، لو قدر لها أن تلتقي بما تنسجم معه، لأنتجت الكثير... ولو قدر لها أن لا تلتقي بما تنسجم معه، ولانعكست في نفس حاملها، خنوعاً لا يعالج...

والعظماء: هم: الذين وفقهم الله ـ تبارك وتعالى ـ للالتقاء بما ينسجمون معه، فأنتجوا الكثير. والتافهون، هم: الذين لا يحاولون الالتقاء بما ينسجمون معه، فتحطموا ـ كأية طاقة متحفزة مكبوتة ـ .

كما... أن الجوهرة الضخمة، التي تتواجد على سـطح: (الزهرة)، لا تجد طريقها إلى جيد... أو تاج... ولو كانت أغلى من كل الجواهر، التي تتدحرج على صدر الحسان، أو تتكبر على قمم التيجان. لا لبؤسها، وغناء جواهر الأرض، وإنما لأن ظروفها الخاصة، طردتها عن مجالها المناسب.

وكما... أن الإنسان الموهوب، الذي يولد في المجاهل، يبقى وحشاً مقيتاً، لا يستقبل إلا السلاح، ولو كان أوفر الناس مواهب. لا لإفلاسه وعبقرية الآخرين، وإنما لأن ظروفه الخاصة، طردته عن مجاله المناسب.

كذلك: أكثر التافهين ـ أو كلهم ـ ، فإنهم لا يختلفون عن أكثر العظماء، إلا بأنهم لم يكتشـفوا، لجهل المجتمع بهم، أو تجاهل المجتمع لهم.

ولذلك: يجب أن يقاس الإنسان بمقياس ذاته، لا بمقياس إنتاجه.

فقيمة الإنسـان الحقيقية، بذاته. ولكن المجتمع لا يفهم ذات الإنسـان بقيمه، بـل: بجريانه الذي يحدد نشاطه ومن وراء نشاطه نتاجه.

(٨٥)

سورة البروج

مكية وهي إثنان وعشرون آية

(٨٦)

سورة الطارق

مكية وهي سبعة عشر آية

(٨٧)

سورة الأعلى

مكية وهي تسعة عشر آية

(٨٨)

سورة الغاشية

مكية وهي ستة وعشرون آية

دور الأنبياء

(فَذَكِّرْ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)(١٨٢) .

-١-

فدورك، يا محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)! ـ كدور بقية الأنبياء (عليهم السلام) ـ هو: دور (المذكر) الذي يعيد إلى الأذهان منسي نعم الله ـ تبارك وتعالى ـ ودفين الابتداء منه والانتهاء إليه، كما قال الإمام أمير المؤمنين بصدد فلسفة بعثة الأنبياء:

(فبعث فيهم رسـله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستهدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول)(١٨٣).

فلا تفترض أنك مسؤول عن تغيير الناس حتى تتكلف أكثر من رسالتك، وتذهب نفسك عليهم حسرات عندما تعجز عن تغييرهم، فتتهم نفسك بالتقصير، وتنقم عليها، فتستهلك من أعصابك مع نفسك ـ عبثاً ـ ما تستطيع استثمار مع الناس، فـ: (إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ) فقط، و(لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) حتى نكلفك بتغييرهم بالفعل.

وهذه الآية من المؤسسات القرآنية التي تبرعمت عنها مدارس كثيرة اجتماعية... وسياسية... وينتمي إليها القادة الذين سلخوا من العالم نزق الصبا، وحاولوا قيادته إلى الحنكة والنضوج.

فالإصلاح ـ بعكس الإفساد ـ ليس له زرّ يمكن أن يضغط عليه فيكون، كما يضغط على أزرار فتنطلق الصواريخ للتدمير... وكما يضغط على أزرار فتنفجر الكهرباء لاكتساح الظلام... بل من الخطأ والخطر معاً، محاولة حل المشاكل ـ ومنها المشاكل الفكرية ـ بأسرع من قدرة الأحداث على التلاقح والتطور، لأن المشاكل لا حلول لها ـ ولا حتى أنصاف حلول ـ يقول لها الإنسان كوني فتكون، وإنما هي مرهونة بتفاعلات اجتماعية... وسياسية... أو اقتصادية... أو بتفاعلاتها جميعاً... وهذه التفاعلات تكون تدريجية، ولا يمكن إيقافها ولا استعجالها، كما لا يمكن إيقاف أو استعجال حركة التاريخ.

وإذا كان حل المشاكل ـ وقتياً ـ مستحيلاً، فالممكن الوحيد هو: السيطرة على المشاكل وتوجيها، بأن تترك الصراعات مفتوحة للتفاعل التاريخي، وتطوق توتراتها بحصار يضمن عدم التهابها، وتفتح لها نوافذ نحو حلول معقولة هادئة، بحيث تتضح آفاق السلامة لمن أرهقه الكفاح العقيم. وتظل الطواحين تدور، ويهرب منها العقلاء الذين يربأون بقدراتهم عن الطواحين، ويهرب منها المتعبون الذين طحنتهم بلا جدوى، وهكذا... يتجمع الناس على الحلول، فلا تجد الطواحين ما تجرف.

تمامـاً... كما لو أردت أن تجمع فراشـات الليل، فإنـك تعجز عن اصطيادها إلا بـأن توقد مصباحاً وتمضي، فإنها ستجتمع دون أن تكلفك جهداً.

كذلك أنت، يا محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تستعجل تجمع الناس على الحق، فذلك لا يكون، كما لا تثمر البذرة لحظة اسـترخاءها في التراب... وكما لا تتكور الذرات كوكباً يوم انسـيابها من النجوم... وكما لا ينضج الطفل ساعة ميلاده... وإنما يكفي أن تدل الناس على السعادة ليخلفوا وراءهم الشقاء، وتريهم النور ليتخلوا عن الظلام، وتفتح عليهم أبواب النعيم ليهربوا من الجحيم. فليست رسالتك إلا إراءة الطريق، وأما إيصالهم إلى الحق: فذلك بيد الله، فـ : (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ، وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)(١٨٤).

ـ ٢ ـ

فرسـالة القائد الأعلى للأمة، هي: تجربة الإنسـان بوضع محاولة الإصلاح إلى جانب محاولة الإفسـاد، وترك الإنسـان متأرجحاً بين المحاولتين، حتى يمكنه التعبير الكامل عن واقعه بالترجح إلى جانب إحدى المحاولتين، لتتمّ تجربة الإنسان.

وليسـت رسـالته هي: جرجرة الإنسـان بإذابة إرادته في محاولة الإصلاح، وقهره على الالتزام، وإبطال محاولة الإفسـاد مطلقاً، بحيث لا يجد الإنسـان ـ أمامه ـ إلا خياراً واحداً لا بديل عنه، لأن احتواء الإنسـان بـكل مؤثرات المجتمع، وتفريغه في بوتقة الصلاح، تبطل حركة الإنسـان بين المحاولتين، فلا تتم تجربة الإنسان.

وتنعكس رسـالة القائد الأعلـى للأمة في كل فرد ينعكس فيه التصدي لمحاولة الإصلاح، فمسـؤوليته تنحصر في وضع محاولة الإصلاح إلى جانب محاولة الإفسـاد فقط، وذلك: بلمس ذبذبة الضمير في داخل الإنسان، حتى تتحرك نزعة الخير لمقاومة نزعة الشر، فيستقيم ميزان القوى المتصارعة فيه.

فكما لا يصح ترك الإنسان حتى تستأثر به قوى الشر المدعمة بالمغريات، كذلك لا تصح السيطرة على الإنسـان بشـكل تبطل إرادته وتكبت قوى الشرّ. ففي كلتا الحالتين يختلّ توازن القوى الذي لا يمكن إلا به تجربة الإنسان ـ التي هي فلسفة الحياة ـ .

فالتجربـة ـ أية تجربة ـ تحتاج إلى المنـاخ الملائم الذي يربي كل عناصر المادة المعرضة للتجربة حتى يبلغ كل عنصر مداه. وتجربة الإنسـان ـ كتجربة ـ تحتاج إلى المناخ الملائم. ولا يمكن توفير هذا المناخ

إلا بإيجاد نوازع اجتماعية ـ خيّرة وشرّيرة ـ وفتح الإنسان عليها جميعاً، حتى تتجاوب في داخله النوازع الاجتماعية والداخلية، فيلقى كل نازعة اجتماعية مع زميلتها: النازعة الداخلية، لتشجيعها وتبلغ بها أقصى امتدادها، ليجد الإنسان نفسه على مفترق طريقين مردداً بين خيارين، حتى ينساق ـ أخيراً مع النازعة الاجتماعية التي تتجاوب مع ذاتيته، فيكون خيراً... أو شريراً... بإرادته الحرة المطلقة.

وهذه الآية تحدد رسالة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) ومهمة كل من يتصدى للعمل الديني. فهي ليست في إطغاء نازعة الخير الاجتماعية على البشر، وإنما هي في تصعيد نازعة الخير حتى تعادل نازعة الشر، وترك الإنسان بين نازعتين متكافئتين يختار مصيره.

وهذه الآية ـ من خلال تحديد الرسالة... والمهمة ... ـ تحدد نوعية الممارسة التي تفرغ هذا الهدف.

(٨٩)

سورة الفجر

مكية وهي ثلاثون آية

(٩٠)

سورة البلد

مكية وهي عشرون آية

(٩١)

سورة الشمس

مكية وهي خمسة عشر آية

المقصود بـ ما ؟

-١-

(وَالسَّماءِ وَما بَناها . وَالأَرْضِ وَما طَحاها . وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها)(١٨٥) .

المفسـرون على أن: (ما) فـي: (...وَما بَناها... وَما طَحاها ...وَما سَـوَّاها) موصول، يرجع إلى الله تعالى، وعندما يصطدمون بالقاعدة اللغوية العامة، التي تقول: (إن (من) يستعمل لذوي العقول، وأن (ما) يستعمل لغير ذوي العقول)، يبررون اسـتعمال (ما) ـ في هذه الآيات ـ لله تعالى، بأن تلك القاعدة ليسـت عامة، وأن (ما) يستعمل لذوي العقول أيضاً. وأقوى أدلتهم، هذه الآيات.

وأتصور: أن من الممكن إدعاء أن (ما) ـ في هذه الآيات ـ يرجع لغير الله تعالى.

لأن الله ـ تعالى ـ خلق مخلوقاته بواسـطة مخلوقات سـابقة عليها. كما أنه يخلق الشـر بواسطة البشر، ويخلق الحيوان بوسـاطة الحيوان، ويخلق النبات بواسـطة النبات... ثم: إنـه وزع إدارة الكون على بعض مخلوقاته، بانتظام دقيق حكيم حسب مجموعة من الأحاديث ـ :

فجبرئيل، موكل بالرسالات، وعقوبة المتمردين عليها.

وميكائيل، موكل بالأرزاق. وهكذا... فلعل: السـماء بنيت بواسـطة قوى كبرى، والأرض دحيت بواسطة قوى أخرى، والنفس البشرية سويت بواسطة قوة ثالثة... كالنسبية العامة، أو كروح الولاية.

ولعل تلك القوى ـ رغم قدرتها على العمل ـ ليسـت عاقلـة بالمفهوم الخاص للعقل، كالعقول الآلية ـ مثلاً ـ . فصح إطلاق حرف: (ما) عليها.

وأتصـور ـ أيضـاً ـ : أن من الممكن إدعاء أن (ما) ـ في هذه الآيات ـ ليس موصولاً، وإنما هو للتعجب، لتوجيـه الأذهان إلى عظمة هذه الأشـياء التي يحلف الله عليها. لأن الناس ـ إذا تعودوا شـيئاً ـ غابت عنهم عظمته، مهما كان عظيماً. فكان من المناسـب، إلفاتهم إلى عظمة أشـياء تعودوها ثم يجدون الله ـ تعالى ـ يحلف بها، ليستوعبوا الحلف بها.

ـ ٢ ـ

لعـــل فـــي التعبير: بـ :(ما) دون: (من)، دلالة على أن الله تعالى لم يخلق الســـماء ـ مثلاً ـ مباشـــرة، وإنما خلقها بالنظام المتوالد، الذي يجعل به الكون متوسعاً مستمراً، وفق مقاييس ومعادلات ثابتة، دائمة الحركة والتطوير. فالذي بنى الســـماء، هو: ذلك النظام ـ بالشـــكل الكوني ـ الذي نرى به توســـع وتوالد الحياة على الأرض.

ولعل إلى ذلك، يشير بقوله:

(وَالسَّماءَ بَنَيْناها ـ بِأَيْدٍ ـ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)(١٨٦).

فالأيد ـ المفســـر بالقوة ـ هو: ذلك النظام، الذي ينتج عنه اســـتمرار الحياة وتوســـعها، وفق نظام التوالد. فلولا التوالد في العناصر المفردة وفي التشكيلات، لما استمرت. لأن الزمان دائب في أكل العناصر، وتفتيت التشـــكيلات. ولولاه لما توســـعت الحياة، لأن تكاثر العناصر المفردة، وتكاثر وتطور التشكيلات، ناتج عن نظام التوالد الدائب، الذي يسبق الزمان في الإفناء والتفتيت، فينتج نظام التوالد أكثر مما يفني الزمان.

جهاز التفريق بين الفجور والتقوى

(فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها)(١٨٧) .

(فَأَلْهَمَها) بخلق (الجهاز العقلي) الذي يلتقط الأمواج الكونية الدقيقة، التي ليست لها صراحة (الوحي)، فيحكـــم: بأن هذا... فجـــور، وبأن هذه... تقوى، لأن كل شـــيءٍ، وكل عمل، له اهتـــزازات من نوعه. وهذه الاهتزازات، تتموج حاملة معها طابع مصدرها، فيلتقطها العقل الباطن ويفســـرها، فيميز بين الخير والشرّ، تمييـــزاً خفيفاً قابلاً للتشـــكيك، فلا يؤدي إلى القطع الجازم، ليكون حجـــة كافية، للتغلب على العواطف والعقد الصارخة في عمق الإنسان.

فلذلك: كان العقل ـ بما فيه العقل الباطن ـ إحدى حجتي الله على الإنسان. فهو حجة خفيفة باطنة، ولأنها خفيفة التأثير لا يصح الركون إليها وحدها، ولأنها باطنة تلفت الثقة إليها، لأن الإنســـان لا يحجد نداءه في عمقه، ولا يتهم أحد وجدانه. فهو سند للحجة الظاهرة، يصدقها ويؤيدها. وهي مدد له، تزوده بما يعجز عن اســـتيعابه، وتجهر له ـ بوضوح ـ عما يجد همســـه الغامض، كما في الحديث: (إن لله على الناس حجتان:

رسول باطن هو العقل، وعقل ظاهر هو الرسول)(١٨٨).

(٩٢)

سورة الليل

مكية وهي واحد وعشرون آية

(٩٣)

سورة الضحى

مكية وهي إحدى عشر آية

(٩٤)

سورة الانشراح

مكية وهي ثمانية آيات

العزاء والتوجيه الإلهيان، للنبي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحى * وَاللَّيْلِ إذا سَجى * ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولى * وَلَسَوْفَ يُعْطيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتيماً فَآوى * وَوَجَدَكَ ضالاًّ فَهَدى * وَوَجَدَكَ عائلاً فَأَغْنى * فَأَمَّا الْيَتيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) (١٨٩) .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً *

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ)(١٩٠) .

انقطع(١٩١) الوحي عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أربعين يوماً، فقلق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قلقاً شديداً. لأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يتحدى العالم وحده. يتحدى الأديان، ويتحدى النظم الأخلاقية، والسياسية، والاجتماعية...، ورصيده الوحيد هو الوحي. فلما انقطع عنه فترة أربعين يوماً، قلق وتعذب، وربما ساورته الشكوك حول سبب انقطاع الوحي:

هل انتهى الوحي وانتهت الرسالة، وهو لا زال يشعر بأن للرسالة بقية لم تكتمل؟. أم صدر منه شيءٌ مقته الله عليه، فقطع عنه الوحي؟ وإذا كان ذلك: فكيف يمكنه الاستمرار في الرسالة التي يراها ناقصة، وبلا إشارة انتهاءٍ، وبلا وضع حد وإطار للرسالة، أو خاتمة تعلن انتهائها؟ وإذا كان هذا: فماذا يكون؟ وكيف يمكنه العمل على إزالة سبب المقت وهو لا يعرفه؟ فالرسول الواثق من نفسه، والمطمئن من علاقته بالله، يعلم انه تحت تربية الله(١٩٢)، ولا يأمن أن يكون قد صدر منه ما لا يليق بمستواه(١٩٣)، فأراد الله أن يعاقبه أو يعاتبه بقطع الوحي عنه.

فنزلت هاتان السورتان، لوضع اللمسات الأخيرة على الحد الذي اكتمل به الدين يوم نزلت الآية الكريمة:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً)(١٩٤).

(وَالضُّحى): يميناً دافئة بهذا الوقت الدافئ من النهار، الذي هو أفضل النهار، ودفق النور والدفء فيه.

(وَاللَّيْلِ إِذا سَجى ويميناً مريحة بهذا الوقت المريح من الليل.

فاليمين بأفضل ساعات النهار والليل: بنور ودفء النهار، وسجو الليل الذي يسدل ستوره لترتاح الأعصاب المرهقة المتوترة. وفي اليمين بهذين الوقتين، مناسبة دقيقة مع ما يشعر به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما يعاوده الوحي.

(ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ): فما انتهى الوحي، ولا انتهت الرسالة.

(وَما قَلى) ك، فلم يمقتك.

وكيف يمكن أن يهملك ربك وينساك؟! وهو الذي رعاك في كل أدوار حياتك الحساسة، التي يتردى كل من يتردى في أحد هذه الأدوار:

ففي الدور الأول: دور الطفولة الباكرة، المرفقة باليتيم، الذي يعرض فيه الأطفال للعقد والانحراف:

(أَ لَـمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى) ك، ورعاك: برعايته المباشـرة، وبتوجيه جـدك (عبد المطلب) ثم عمك (أبي طالب)، إلى إيوائك؟!

وفي الدور الثاني: دور الشباب الهائج المرفق بالجهل الذي يعرض فيه الناس للإنزلاق والتردي:

(وَوَجَـدَكَ ضَـالاًّ فَهَـدى) ك بالوحي، ووجهـك توجيهاً كنت به موجـه العالمين، وسـيد الموجهين والمعلمين.

وفي دور الكهولة، المرفقة بالفقر، الذي يعرض فيه غال الناس للذلة والهوان:

(وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنى) ك، وسخر لك غنى الآخرين، حيث جعلك رئيس الدولة الإسلامية.

وأكـد القرآن حاجـة النبي إلى الرعاية، عندمـا أرفق كل دورمن تلك الأدوار بما يسـاعده على التردي والهلاك: فأرفق الطفولة باليتم، وأرفق الشـباب بالجهـل، وأرفق الكهولة بالفقر، لتضخيم نعم الله عليه في هذه الأدوار.

هذا الإله الذي أنقذك في تلك الأدوار الثلاثة، كيف يمكن أن يهملك وينساك الآن؟!

فالآن ـ يا محمّد! ـ عليك، ويطلب منك: أن تقوم بالشكر العملي، فترعى الناس في تلك الأدوار الثلاثة، كما رعاك الله:

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ) الذي هو في مثل دورك الأول، (فَلا تَقْهَرْ) ه، بل أغمره بالتربية.

(وَأَمَّا السَّائِلَ)سـائل العلم الذي هو في مثل دورك الثاني، وسـائل المال الذي هو في مثك دورك الثالث، (فَلا تَنْهَرْ) ه، بل أسعفه كما أسعفك الله في ذينك الدورين.

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)، وانشر على ظاهرك نعم الله: فلا تتظاهر بالفقر وأنت تجد الغنى، ولا تتظاهر بالجهل وأنت تجد العلم، على عادة الذين يردون السائل: فيقولون لطالب المال: (ما عندي)، ويقولون لطالب العلم: (ما أدري).

ولتأخير الوحي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، عامل تربوي:

١ـ للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، حتى قد لا يأخذه ما يشبه الغرور بأن الوحي أصبح جزءاً لا يتجزء من واقعه، فيستطيل به. وحتى يبقى ـ بعد انتصاره الكبير ـ في التجاءه إلى الله، كما كان في ابان غربته وتشرده، بلا تغيير.

٢ـ وللآخرين، حتى لا يتصوروا أن الوحي من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه. فها... هو قد انقطع عنه، فاضطرب، ولا يجد إليه سبيلاً. ولو كان منه، لما كان ينقطع عنه.

كما أن في تذكير النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بـ :

١ـ يتمه السابق.

٢ـ وجهله السابق.

٣ـ وفقره المعاصر.

عاملاً تربوياً أيضاً. فقد مرّ ـ هو ـ بثلاثة أمور هي أقسى ما يمر بالإنسان، وهي: اليتم في الطفولة، والجهل في الشباب، والفقر في الكبر. ففي تذكير النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذه... عامل تربوي، حتى يتذكر مرارة ما عانى، فيشفق على كل من يعاني من أحد هذه الأمور.

ولكن السورة هذه لم تنته بعد ـ رغم نزول البسملة التي تضع حداً للسورة السابقة عادة ـ لأن هذه السورة لم تستنفد بعد أغراضها، فقلق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من انقطاع الوحي كان أكثر من أن تهدئه هذه الكمية من التسلية. فالفكرة المهيمنة على السورتين واحدة، وهي تأهيب الإنسان لاستقبال الإنعطافات التي تحدث في ملتويات الحياة. والإطار واحد، وهو التسلية التي تأتي غبّ التجربة. وإن كانت السورة لا بد أن تنتهي وتفتتح لأسباب فنية:

١ـ إن الاســتفهامات التذكيرية تفقد روعتها إذا توالت كثيراً، ولا بد من تذكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بها.

٢ـ إن نوعية الاســتفهامات تختلف، والغرض الذي يقصد استخلاصه من هذه الاستفهامات يختلف، فلا بد من تقسيمها في سورتين.

فالســورة مســتمرة ـ كما يقول الفقهاء: (إن ســورة الضحى والانشــراح) واحدة، لا يكتفي بإحداهما في الصلاة) ـ فالتسلية لا زالت مستمرة:

(أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) عندما كنت تتضايق من الصعوبات التي تعترض طريق امتداد الرسالة؟!

(وَوَضَعْنــا عَنْكَ وِزْرَكَ): فقد كنت مذنباً عند الناس، فيعتبرونك خارجاً مارقاً، ولكن بانتصارنا الســاحق اكتسبت صفة الشرعية، فلا تعتبر خارجاً ولا مارقاً، وإنما يعتبر من لم يجر في تيارك خارجاً ومارقاً. فعندما عززناك بالنصر، وضعنا عن كاهلك الوزر الذي كان عليك في الذهنية العامة.

والفقهاء ـ كما سبق ـ يعتبرون السورتين: (سورة الضحى، وسورة الإنشراح) سورة واحدة، فروح السورتين واحدة، وكلتاهما محاولة واحدة للتسلية عن صدمة انقطاع الوحي عند فترة أربعين يوماً، وكلتاهما تذكران النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بنعم الله القديمة والحديثة عليه.

ماذا يملك الإنسان، وماذا لا يملك؟؟

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحى * وَاللَّيْلِ إِذا سَجى * ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولى * وَلَسَوْفَ يُعْطيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتيماً فَآوى * وَوَجَدَكَ ضالاًّ فَهَدى * وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنى * فَأَمَّا الْيَتيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) (١٩٥).

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ) (١٩٦).

ماذا يملك الإنسان، وماذا لا يملك؟؟

قبل الإجابة على هذين السؤالين، لا بد أن نعرف مبدأ الإنسان، مبدأ روح الإنسان ومبدأ جسده:

أما مبدأ روح الإنسان، فطاقة خامة، كالطاقات الخامات الأخرى التي لم تتحرك من مصادرها: كالكهرباء المختزنة في قطعة حجر، كالشاعرية المطمورة التي تتذبذب في صدغ الطفل، كالطاقة الذرية النائمة في كثير من الموجودات... فالروح ـ في ابتداء تكونه ـ خامة غامضة، كالبذرة التي لم تتفتح.

وأما مبدأ جسد الإنسان، فمجموعة من عناصر الكون، مركبة تركيباً أشبه بتركيب أجسام الحيوانات.

وكلاهما لم يكونا ثم أفاض الله عليهما نعمة الوجود، أي أوجدهما بعد أن لم يكونا، دون أن يكون ـ في وجودهما ـ رأي أو يد للإنسان نفسه. فهما خلقان لله ـ تعالى ـ ، وبعض ممتلكاته.

وأما في نموهما: فالروح ينمو بالإستفادة من تجارب الموجودات، البشرية، أو غير البشرية. والجسد ينمو بالسيطرة على المزيد من عناصر الكون، وصهرها في بناءِ كيانه: الجسد. وتجارب الموجودات التي ينمو بها الروح، وعناصر الكون التي ينمو بها الجسد، كلها من ممتلكات الله

وإذا كان الإنسان ـ في مبدأه ونموه ـ بعض ممتلكات الله، فهو لا يملك نفسه: لا روحه ولا جسده.

ثم الإنسان ـ في حياته ـ يسيطر على أشياء يدعي أنها ممتلكاته، والله يعتبرهما ممتلكاته: لوضع مقياس يخفف من عنف الصراع على الأشياء التي يتنافس عليها الناس، ولإيجاد نوع من التوازن بين الإنتاج والإستهلاك، ولسن نوع من العدالة في التوزيع... ولكنه ـ في الحقيقة ـ لا يملك شيئاً من تلك الأشياء. فهو لم يوجدها، وإنما سيطر عليها:

فالنائب ـ في البرلمان ـ لا يكون نائباً إلا بما سيطر عليه من أصوات الناخبين، والرئيس لا يكون رئيساً إلا بما سيطر عليه من آراء الناس ـ كيفما كانت طريقة توليه الرئاسة ـ ، والعالم لا يكون عالماً إلا بما سيطر عليه من أفكار الناس، والغني لا يكون غنياً إلا بما سيطر عليها من أموال الناس... وهكذا... كل من يتدرج في قوس الصعود.

سواء أكانت سيطرته بالطرق السليمة أو غير السليمة، فالسيطرة هي السيطرة ذاتها: لأن الطرق السليمة

هي طرق الإقناع، والطرق غير السليمة هي طرق الإرهاب والخداع. وهذا الفارق لا يغير جوهر القضية، فهو ـ في الحالتين ـ لا يوجد شيئاً، وإنما يستولي على أشياء.

فالإنسان الذي ينمو ويتوسع إنما يأخذ من الحياة والأحياء، فهو مدين للحياة والأحياء بمقدار نموه، واتساعه، فعليه: أن يسدد ديونه للحياة، بتصعيدها وتطويرها إلى الأفضل. وأن يسدد ديونه للأحياء، بتصعيدهم وتطويرهم إلى الأفضل، وألا يكون ظالماً سرق الحياة والأحياء، وعاش على أكتافها وأكتافهم عالة ومخادعاً.

فالإنسان الكبير هو الذي كانت له القدرة على الأخذ، فأخذ، يكون كبره بمقدار قدرته على الأخذ. والإنسان الصغير هو الذي لم تكن له القدرة على الأخذ، فلم يأخذ، بل أعطى، لأن القادرين على الأخذ أخذوا منه. لأن الإنسان ـ في صراع الحياة ـ إذا لم يكن قادراً على الأخذ فعليه أن يكون قادراً على العطاء، وألا يسحق: فصاحب الصوت الواحد والفكرة الصغيرة والمال المحدود، إنما يعطي المنتخب والعالم والغني، فيتخلف في قوس النزول، لأنه أعطى، فهو دائن.

والمنتخب والعالم والغني، أخذوا، فهم مدينون. صحيح: أنهم أصحاب مواهب، ولكن ماذا تعني المواهب سوى القدرة على الأخذ؟!

فكل من ارتفع ـ في قوس الصعود عليه أن يسدد ديونه لمن هم في قوس النزول.

إذن: الأحياء سواسية ككفتي الميزان، فلا يرتفع أحد إلا على حساب غيره.

وإلى هذه النظرية العلمية التربوية ربما تشير السورتان:

(أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً) ليست له مكانة اجتماعية، (فَآوى) ك بمن لف حولك من المؤمنين؟! (وَوَجَدَكَ ضَالاًّ) في دروب الحياة، لا تجد الخطة المنسجمة مع مواهبك، (فَهَدى) ك بما وضع أمامك من خطة: الإسلام.(وَوَجَدَكَ عائِلاً) ترتفع في جنبات قلبك صرخات المظلومين والمحرومين، (فَأَغْنى) ك بما مكنك بها من دولة تستطيع أن تقيم بها العدالة في المجتمع.

لأن فقر الشخصيات الكبار ليس بأن لا يجدوا ما يعتاشون به، كما أن غناهم ليس بأن يجدوا ذلك.لأن عيالهم ليسوا أفراد آسرهم فقط، وإنما عيالهم كل من يحتاج إليهم، إلى حيث يصل إشعاعهم. ففقر الفرد العادي يختلف عن فقر رئيس دول، أو مصلح اجتماعي.

فأنــت ـ يــا محمّد! ـ ارتفعت في قــوس الصعود، فأنت مدين ـ وإن كنــت ارتفعت بحق وجدارة ـ . فانعطف نحو دائنيك الذين تركتهم في قوس النزول:

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ) الذي يعاني من النقص الاجتماعي، (فَلا) تحطم معنوياته، ولا (تَقْهَرْ) ه حتى يستســلم أو يتعقد.

(وَأَمَّا السَّائِلَ) الذي يعاني من النقص الاقتصادي، (فَلا) تنكر دينه الذي لديك، ولا (تَنْهَرْ) ه حتى يحوله رد فعلك إلى متفجر يخترقك ـ ويخترق نفسك معك ـ باعتناق أي مبدأ هدام.

وإنما عاملهما كما عوملت أنت، فآوِ اليتيم وأحســن إلى الفقير، لتكون قد ســددت بعض ديونك التي حملناها إياك: بإيوائك عندما كنت يتيماً، وهدايتك عندما كنت ضالاً وإغنائك عندما كنت عائلاً.

صحيــح: أنك ـ يا محمّــد! ـ صاحب الفضل الكبير على كل الذين ورثوا منــك ـ أو نالوا بتوجيهاتك ـ شيئاً.

وصحيح: أنك ـ يا محمّد! ـ تحملت أكثر مما تحمله الأنبياء قبلك، وضحيت ـ في ســبيل إرشــاد الذين حملوك ما لا يحتمل ـ بإخلاص أكبر من إخلاص كل من سار على هذا الدرب قبلك أو بعدك.

ولكــن الصحيح ـ أيضاً ـ إلى جانب هــذا... وذاك... أنك بنيت تكاملك على نواقصهم: فلو لا فقرهم لما نلت شــرف العطاء، ولــو لا جهلهم لما بلغت درجة المعلم، ولو لا ضلالهم لمــا علوت رتبة الهادي، ولو لا تعنتهم لما ارتفعت فوق الصابرين، ولولاهم كما هم لما تســنمت المســتوى الذي تسنمته. فأنت أسست نفســك على أنقاضهم، فتذكر أنهم هم الذين رفعوك إلى ما أنت عليه. وحتى الذين مارســوا تجاهك دوراً لئيماً، ومارســت تجاههم دوراً كريماً، إنما أتاحوا لك فرصة (مقابلة الســيئة بالحســنة) فنلت ما لم يكن باستطاعتك أن تناله بدونهم.

كيف يتصور الضلال في النبي؟

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً ، فَآوى؟ !

وَوَجَدَكَ ضَالاًّ ، فَهَدى)(١٩٧) .

-١-

(أَ لَمْ يَجِدْكَ) الله (يَتِيماً) غاب عنك أبوك قبل ميلادك وغابت عنك أمك في صباك الباكر، (فَآوى) ك إلى جدك (عبد المطلب) ثم إلى عمك (أبي طالب) حتى قاما لك بدور الأب؟!

(وَ) لقـد (وَجَدَكَ) الله (ضَالاًّ) عن الخط القويم، الذي ينتهي إلى الهدف المنشـود، (فَهَدى)، أي فهداك إليه.

ولعل من الأفضل أن نبدأ بسؤال يفرض نفسه على كل من يتأمل هذه الآية الكريمة، وهو: هل كان النبي (صلى الله عليه وآله وسـلم) ضالاً، وقد بعثه الله ـ تعالى ـ لإنقاذ البشـرية من الضلال؟ وكيف يضل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي خلقه الله من نوره؟

ويمكن الإجابة عن هذا السؤال بما يلي:

١ـ إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ على عظمته ـ لا يعدو كونه خلقاً من خلق الله. وخلق الله محتاج إلى الله: في وجوده، وفي اسـتمرار وجوده، وفي جميع مواهبه... لأنه فقير بالذات، وليس غنياً بالذات. فكما كان النبي (صلى الله عليه وآله وسـلم) محتاجاً إلى الله في رزقه وفي علمه، فيقول: (اللهم! أغنني بحلالك عـن حرامك)(١٩٨)، و(رَبِّ زِدْنِي عِلْمـاً)(١٩٩)، هكذا... كان محتاجاً إلى الله فـي هدايته، وكان الله يهديه بالوحي. فالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إشارة الهدى على درب الخلائق أجمعين، بالنسبة إلى الخلائق. وأما بالنسـبة إلى الله: فهو مخلوق ضعيف ذليل، يدعوه تضرعاً وخيفة، ويسـتغفره، ويسـتهديه، ويبكي ويستغيث... فلم يكن هادياً بالذات، وإنما كان هادياً بهداية الله إياه. ولو لا ذلك: لم يكن الله يهديه بالوحي، ولم تبق حاجة إلى تسديده بالملائكة، ولا وجد مفهوم للعصمة.

٢ـ لعل الضلال ـ هنا لا يعني الضلال (الروحي والفكري) الذي يساوي الإنحراف عن الدين الحق، وإنما يعني الضلال (الاجتماعي) الذي يسـاوي الضياع بين الناس. ولقد كان النبي (صلى الله عليه وآله وسـلم) ضائعاً في مجتمعه: فلقد عامله (مجتمع الحجاز) ـ قبل البعثة ـ على أساس كونه يتيماً فقيراً، حتى اضطر ـ رغم مواهبه الهائلة ـ إلى: تعاطي الرعي، ثم التجارة في جملة وكلاء زوجته (خديجة الكبرى).

وعامله (مجتمع الجاهلية) ـ بعد البعثة ـ على أسـاس كونه خارجاً على كل أوضاع المجتمع، فقاطعه، وتآمر عليه، وشرده: مرة إلى (شعب أبي طالب)، وأخرى إلى (الطائف) وثالثة إلى (يثرب).

وهـــل يوجد أكثر ضياعاً، من أكبر عباقرة الحياة يجنى عليه حتى يقول ـ بحق ـ : (ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت)؟!(٢٠٠).

هكذا... بقي النبي ضائعاً، حتى هداه الله ـ تعالى ـ إلى الطريقة التي ارتفع بها في مجتمعه ذاته، حتى قال رسول (ملك اليمن) ـ في تقريره إلى الملك ـ بعد زيارة النبي: (والله ما هبت أحداً كهيبة هذا الرجل)(٢٠١).

٣ـ لعل المقصود من (الضال) مفهومه المادي وهو الضياع في الصحراء، وليس مفهموه المعنوي روحياً كان أو اجتماعيـــاً. كما أن المقصود من (اليتيم) مفهومه المـــادي وهو فقيد الأب، وليس مفهمومه المعنوي الذي يساوي فقيد الرعاية الروحية، الذي عبر عنه الشاعر بقوله:

ليس اليتيم: الذي قد مات والده ۞۞۞ إن اليتيم: يتيم العلم والأدبِ

ويدعم هذا المعنى، ما ورد في بعض الســير من: أن النبي (صلى الله عليه وآله وســلم) ضاع ـ مرة ـ في الصحراء حتى أشرف على الموت، ثم هداه الله، فاهتدى إلى الطريق.

ـ ٢ ـ

الهداية ليست ذاتية للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كما أن أصل الوجود ليس ذاتياً له، فلو لا الله لم يكن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا كان هادياً، وإنما هداه الله كما أوجده.

صحيح: أن الله اشـــتقه نوراً من نوره، فلم يكن ـ في أي وقت، أو حال ـ ضالاً، ولكن صح هذا التعبير، لأن أصل الوجود سابق ـ رتبة ـ على كل الصفات العرضية، وإن اقترن وجودها بوجوده.

ثم: علينا أن نفرق بين وجدان الخالق للمخلوق، وبين وجدان المخلوق للمخلوق. وإن كنا لا نســتطيع فهم معنى وجدان الله لمخلوقاته، فربما كان أصل وجود النبي (صلى الله عليه وآله وســلم) ـ في وجدان الله ـ سابقاً على استقامته نوراً من نوره.

على: أن الضال ليس هو الضال عن (الألوهية) فقط، فالضلال عن كل شــيءٍ عدم الهداية إليه. ولا يمكن النقاش في: أن النبي (صلى الله عليه وآله وســلم) كان ضالاً ـ في أصل وجوده ـ عن أشــياء كثيرة، هداه الله إليها فيما بعد وجوده، وحتى فيما بعد ميلاده ومبعثه وإلا لكانت توجيهات الله له، بلا جدوى.

الذكر النبوي المرفوع

(وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ)(٢٠٢).

كما أن مطامح الطفل تدور بين لعبه، فإذا راهق ترتفع مطامحه إلى ثيابه وهندامه وغرفته وأصدقاءه، فإذا شب تسمو مطامحه إلى عمله ومكتبه وعائلته، هكذا... أول ما يفتق الوعي لدى الإنسان يفكر في مكانته عند أسرته وأصدقائه، فإذا ارتفع مستواه يفكر في شهرته في الأوساط العامة، فإذا ارتفع مستواه أكثر يفكر في كرسيه، حتى إذا أصبح رئيس دولة يفكر في تموجاته على الصعيد الدولي. ومن عادة الإنسان، أنه كلما ارتقى درجة يستهين بسابقتها.

فالنبي العظيم (صلى الله عليه وآله وسلم)، لا شك انه لم يكن يحلم بارتفاع ذكره على (المنابر) و(المآذن) حتى يمتن الله عليه برفع ذكره بهذا الشكل، وإنما الذي يستأثر باهتمام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ وهو في ذلك المستوى الرفيع من الوعي العام الذي تصغر فيه الحياة ـ هو: امتداداته الفاعلة في الوجود، وموجاته المطورة للخامات البشرية.

فرفع ذكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يكون بتصعيد إشعاعاته، وتوسيع آثاره.

ولعل كلمة (ذِكْرَكَ) استخدمت لعقم اللغة عن كلمة تملأ الفراغ الذي تشعر به شخصية كالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، كما أن كملة (نُورٌ)(٢٠٣) استخدمت في التعريف عن الله لعقم اللغة عن كلمة تتطابق مع الله ـ تعالى ـ .

ولعل (لِسانَ صِدْقٍ)(٢٠٤) الذي ورد في دعاء (إبراهيم الخليل) (عليه السلام) من هذا النوع، لا مجرد (لِسانَ صِدْقٍ) حسب مفهومه البسيط الساذج في أذهاننا نحن البشر العاديين.

العسر مدخل إلى اليسر

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)(٢٠٥).

هل يمكن أن يستمر العسر؟

كلا... وإلا انقلبت حالة طبيعية فلا يكون عسـراً، والناس يبحثون عن اختراقه فيفقد وطأته. فمثلاً: لو كان الجوّ طوال السنة (ربيعاً)، لعدّ (الصيف) عسراً ولاعتبر (الشتاء) أزمة. ولكنهما ـ الآن ـ يعتبران عاديين، لأنهما اسـتمرا كل عام، أخذهما الناس بهذا الاعتبار، فما جزعوا ولا فرغ صبرهم، وإنما تطورت أمزجتهم وفقههما، وبحثوا عن وسـائل لاختراق الصيف والشتاء فعملوا سـابقاً: الملاجئ الباردة للصيف، والمخابئ الدافئة للشتاء. وحديثاً صنعوا المبردات، والمدافئ. فانكسر نبض الصيف والشتاء، وسخرهما الإنسان.

فالشدة قسمان:

١ـ شدة ناتجة من تفاعلات الكون. وهذه... تستمر. ولكن الإنسان يتطور حتى يصبح قادراً على احتماله، ويبحث عن وسائل لاختراقها، فلا تعدّ شدة.

٢ـ شـدة ناتجة من تفاعلات البشـر. وهذه. هي المفهومة من كلمة: الأزمة، الشـدة، المحنة، المشكلة، ونظائرها، وهذه... تؤذي، لأنها تفاجئ الإنسـان قبل أن يسـتعد لاحتمالها مزاجاً، ويتهيأ لاختراقها وسيلة. وهذه... لا تستمر:

أولا: لأنها لا تستند إلى تفاعلات كونية مستمرة، وإنما تنطلق من فعل البشر، وفعل الشر محدود الزخم والمدى.

وثانياً: لأنها ظالما لا تستند إلى تفاعلات كونية مستمرة، فكل العوامل الكونية تعمل لنقضها وإعادة الأمر المتأزم إلى مجراه. فهي... لا تستمر وإنما تكون لها دورة معينة، فتتفاقم وتعنف حتى تبلغ مداها، ثم يأخذ زخمها في التناقص من جهة، ومن جهة أخرى: يتهيأ الإنسـان لها مزاجاً، ولاختراقها وسـيلة متاحة، فتبدأ بالانحسار حتى تنتهي.

ونفهم من كل ذلك:

١ـ إن كل أزمة محدودة، لأنها حالة غير طبيعية، فهي تهيج كالعاصفة وتموت كالعاصفة، فقبلها لم تكن وبعدها لا تكون. فكل شدة مضغوطة بفكي كماشة، هما: رخاء سابق ورخاء لاحق. وإلى هذا... يشير ما يروى عن الإمام علي (عليه السلام):

إذا ضاقت بك الدنيا ❁❁❁ تفكر في: (ألم نشرح)

تجد يسرين مع عسرٍ ❁❁❁ إذا فكرتها تفرح

٢ـ إن لكل أزمة زخماً لا يمكن أن تنتهي ما لم تستنفد فورة ذلك الزخم، فاشتداد الأزمة يدل على بلوغ الزخم فورته، وهذا... يعني أنه آخذ في الانحسار. فلكل أزمة ذروة، لا بد أن تبلغها حتى تنتهي. وإلى هذا... يشير الحديث المروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):

(اشتدي ـ أزمة! ـ تنفرجي)(٢٠٦).

ثم: هل يمكن أن يستمر العسر أبداً؟

كلا... وإلا لكان الكون عاجزاً عن السيطرة على تفاعلاته، ولكان الإنسان قاصراً عن تدبير أموره. وعندما يعود الكون عاجزاً، لا يستقبل الإنسان. وعندما يعود الإنسان قاصراً، يبشر بالموت.

(٩٥)

سورة التين

مكية ثمانية آيات

فلسفة أَيمان اللّه

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحاكِمِينَ)(٢٠٧).

اليمين لا تكون إلا بشـــيء مقدس: كالله، والنبي، والقرآن... أو بعزيز: كالعينين، والنفس، والأولاد... ولا يوجد مقدس ـ بمعنى التقديس ـ عند الله تعالى، ولا يوجد بالنسبة إليه عزيز ـ بمعنى العزة ـ ، فكيف يحلف الله.

الجواب، يتلخص فيما يلي:

١ـ الأشـــياء ـ كلها ـ عند الله سواســـية. فالله الذي يخلق كل شيء بمجرد إرادة، لا يفرق بين سهل وصعب. لأن الســـهل هو: ما دون الطاقة، والصعب ما في مستوى الطاقة، والمستحيل: ما فوق الطاقة. وكل شيء دون قدرة الله. فلا سهل... ولا صعب... ولا مستحيل بل كل شيء أسهل من السهل.

ثم: لا فرق بين كبير وصغير، فالذرة والمجرة ـ عند الله ـ ســـواء، لأنه ـ بإرادة واحدة ـ يخلق أيهما شـــاء. فلو وجد إنسان يكون طلب الشاي بالنسبة إليه كإسقاط رئيس بمجرد كلمة، يكون الأمران لديه سواء.

٢ـ إن الله هو يعطي القداســـة والعزة، كالأنبياء، والملائكة، والكعبة... فلو أراد التأكيد ـ على قدر عقول الناس في التأكيد باليمين ـ فبأي شيء حلق، أعطاه القداسة والعزة. فيحلف بأشياء، لتركيز الإهتمام عليها.

إنسجام السورة:

وترابط الآي، يكون كالتالي:

التين والزيتون، لهما تركيبات علمية ذات أهمية، للأهمية المادية. وسيناء، لهما أهمية مؤقتة، ومكة، لها أهمية دائمة. فهما، مثلان للمادة التي لها صفة معنوية. والإنسان ـ بتركيبته العلمية، وبصفاته المعنوية ـ أهم من الجميع.

وأجر المؤمنين غير مقطوع، لأن الملائكة تكتب له ـ في الهرم، وبعد الموت ـ كلما تعود من الصالحات. بينما الكافر ينطقع أجره الدنيوي بإنقطاعه عن العمل، فيسقط عن التكريس أو الإنتاج.

الخط العام للسورة:

بعد هذه الأيمان التي توجه إلى دقة النظام الكوني العام، الذي يتجسد ـ تكوينياً ـ في كل شيء، حتى في النبات: كالتين، والزيتون. وفي الجيولوجيا = طبقات الأرض: كطور سيناء (سيناء، هذه القطعة الاستراتيجية، التي وقعت عليها ســـتة آلاف حرب في التاريخ المكتوب، وتنزل عليها الوحي. ولا نعلم ـ بالضبط ـ ما هي المكونات العظيمة، التي جعلتها هكذا...) وفي الجغرافيا: كمكة: (وَهذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ).

بعد هذه الأيمان المركزة، يبين القرآن: أن دقة النظام الكوني العام تشمل الإنسان أيضاً، وبصورة أكثر

دقة وإحكاماً:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ).

وكما أن كل شـــيء يتقدم نحو مداه في الكمال، حتى إذا بلغه يتراجع إلى الوراء منســـحباً، ليفسح مجال التجربة لغيره، كذلك الإنسان: فهو ـ أيضاً ـ خاضع لنفس النظام، ولا يستطيع ـ رغم قواه الإضافية، ومميزاته الكثيـــرة ـ أن يســـتمر في خط الصعود، ولا ـ حتى ـ أن يبقى في قمته، فـــلا يبلغها حتى يأخذ في الانحدار نحو الشـــيخوخة، التي هي وجه آخر للطفولة. فكل إنسان يشـــيخ، وتهرم طاقاته الروحية كما تهرم طاقاته الجســـدية، ويتوتر أمله كما يضعف عمله. فكل إنســـان يهرم، إلا المؤمـــن، فالمؤمن لا يهرم، أي: لا يهرم روحياً، فلا تترسب على روحه مظاهر الشيخوخة.

(إِلاَّ: الَّذِينَ آمَنُوا، وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ. فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ):

فالذي يؤمن ويعمل الصالحات، إنما يزود نفســـه بعناصر الفتوة والبقاء، فلا يهرم، لأنه لم يهمل نفســـه حتـــى يتأثر بالمؤثرات التي تأكل الأحياء تدريجياً. فالمؤمن العامل، له أجر إســـتمرار شـــبابه. وهذا... أجر أكتســـبه ـ هو ـ بجهد إيمانه وعمله، الذي أمد شـــبابه الطبيعي بشباب معنوي هو الناتج من الإيمان والعمل الصالح. فهو أجر غير منون، إذ لا منة لأحد عليه به.

فالإيمان والعمل ـ اللذين قننهما الإســـلام ـ جزء من نظام الكون العام، يمد النظام المادي بالشـــق الثاني منه. فكما يمد شباب الفرد ويمدده، كذلك: يمدد شباب كل شيء. فهو إذن ـ بالنسبة إلى النظام المادي: الشق الثاني، وبالنسبة إلى النظام الكوني العام: جزء مكمل، وهو الجزء الأهم.

فبعـــد ذلك: كيف تكذب بالدين، وأنـــت لا تكذب بالنظام المادي، الذي هو الجـــزء غير الأهم؟! وأولاً تصدق أن الله الذي قرر هذا النظام بشقيه، هو: أحكم الحاكمين؟!

الإنسان، والإنسان المؤمن

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ.

ثُمَّ: رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ.

إِلاَّ : الَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ .

فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)(٢٠٨) .

١ـ (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم): فزودناه بكل الطاقات، التي تؤهله للقيام بدور الإنسان، عبر رحلة البلورة والنضوخ، في الحياة الدنيا. زودناه بكل الطاقات: الفكرية، والروحية، والعضلية... التي يجمعها إطار اسمه: (الشباب). ومن أبرز تلك الطاقات:

أولاً: الطاقة الفكرية، القادرة على: التلقي، والهضم، والإنتاج. والمسماة بـ : (الذاكرة).

ثانياً: الطاقة الروحية، الموحية بالأمل عبر العقبات، والنكسات، لمواصلة السير التكاملي. ويمكن التعبير عنها بـ : (الطموح).

ثالثاً: الطاقة الروحية التضحوية، التي تلخص الاهتمام في الهدف، وتقلص الاهتمام بكل شيء دونه، ويعبر عنه بـ : (الإيثار) ـ بمحتواه الواسع ـ .

رابعاً: الطاقة الجسدية على احتمال الخطوب برحابة. ويصح التعبير عنها بـ :(الصمود)، أو بـ : (الصبر).

فالله تعالى، خلق الإنسان ـ أول ما خلقه ـ مزوداً بهذه الطاقات، التي تمكنه من ممارسة الحياة، بالشكل المناسب لنداءات الحياة.

٢ـ (ثُمَّ: رَدَدْنَاهُ) من ذلك المستوى المتناسب مع الحياة (أَسْفَلَ سافِلِينَ) فسحبنا منه تلك الطاقات، فإذا هو هرم، فاقد الطاقات التي تؤهله للقيام بدور الإنسان، عبر رحلة البلورة والنضوج، في الحياة الدنيا. فاقد لكل الطاقات: الفكرية، والروحية، والعضلية... الإيجابية. وتضور فراغها، ولد ـ عنده ـ صفات سلبية، يجمعها في إطار اسمه: (الهرم). ومن أبرز تلك الصفات.

أولاً: النسيان: فقد، فقد الطاقة الفكرية، القادرة على: التلقي، والهضم، والانتاج. وتولدت ـ عنده ـ صفة النسيان، التي أفقدته الكثير مما اختزنته ذاكرته في عنفوان حياته.

ثانياً: وأصبح ـ مع الأيام ـ يشـــعر بانتهائه، وان ما بقي ـ من أيامه ـ تعد بالأشـــهر، وربما بالأيام. ففقد الأمل في مســـتقبله، فلا يشـــده الطموح بالأهداف العالية البعيدة. وإنما يســـمره الخنوع في الأرض، شـــأن اليائسين.

ثالثاً: وينظر إلى نفسه فقط، فلا تمتد آماده إلى أبعد من حدود قميصه، فلا يرى هدفاً يهتم به أو لا يهتم. فكلما يحاوله هو: أن يقضي بقية أيامه في رخاء وعافية، فلا يضحي بنفسه، ولا يؤثر على نفسه، بل يضحي لنفهس، ويستأثر على حساب غيره.

رابعاً: وتوانت عضلاته، فلا يتحمل ما يعانيه إلا بضيق وجزع.

وهكذا... استبدل الذاكرة بالنسيان، والأمل باليأس، والإيثار بالاستئثار، والصمود بالجزع.

وبتفاعل هذه الصفات ونتائجها، يوجد ـ عند الفرد ـ شـــعور بالانهزام الحياتي، الذي يطبع كل نبضاته... وتصرفاته... فيكون سلبياً، ويوجد ـ في قرارته ـ مركب النقص، فيتحسر كلما صدمته حركة رشيقة من أحد الشـــباب الآخذين في الارتفاع، وتتحكم فيه عقدة الحســـد التي تتحرك لكل مظهر من مظاهر الشباب فإذا من اســـتخدم سمع ذاكرته، حســـده، لأنه كان ـ أيضاً ـ يستخدم ذاكرته، ثم خسرها... وإذا عرف طموحاً من منطلق عبر نكســـة، حســـده، فقد كان هو ـ مثله ـ يذلل العقبات، ثم فقد طموحه وإذا بلغه إيثار من مضح، حسده، فهو ـ كذلك ـ كان يؤثر، ولا يقدر الآن على الإيثار... وإذا رأى صابراً، حسده، فقد كان صبوراً، ثم غدى جزوعاً....

وهذه الخسائر الكبيرة، التي تكبدها بدون إرادته، تترك ـ في واقعه ـ فراغاً ملحاً، يستوحش منه في كل محاولة حياتية. لأنه طالما تعود تجربة المحاولات الحياتية، وكانت تأتيه النجدة من رصيده الوفر من طاقات الشباب، وهو الآن يجرب المحاولات الحياتية ـ كما كان يجربها سابقاً ـ ثم لا تأتيه النجدة، فيستوحش من الفراغ الملح، الذي تركه رصيده من طاقات الشباب. فيشعر بالفقر والإفلاس، ويحاول أن يملأ ذلك الفراغ بكل ما يمكن أن يملأه، فلا يجد ما يملأه، وهل يوجد شـــيء يملأ فراغ طاقات الشـــباب؟! فيحاول ـ عبثاً ـ أن يملأه بما يمكن أن يحصل عليه من مال وجاه، فتستحكم فيه عقدة الحرص.

واسترســـالاً مع مولدات الانهزام الحياتي، تتوالد... وتتسلســـل... فيه العقد التي ترفض أي علاج، حتى تجعل منه ـ جســـدياً ـ لحماً ناشـــفاً، وعظاماً نخرة، و ـ روحياً ـ تافهاً، مؤذياً، لا يطيق احتماله أشفق الناس عليه. فهو (هرم) بكل دلالات (الهرم).

ولكن المؤمن لا يهرم. فطاقات الشباب تسلب من كل من تجاوز سن الشباب، فيردّ أسفل سافلين.

٣ـ إِلاَّ: الَّذِينَ آمَنُوا، وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ) فإنهم لا يهرمون بما للهرم من دلالات. ففيما تذوي أجسادهم تبقى أرواحهم شابة.

لا تحمل شيئاً من مظاهر الهرم، لأنهم، كلما اقتربوا من نهايتهم في الحياة الدنيا، كلما اقتربوا من مستقبلهم العظيم، الذي جندوا له الوفر من طاقاتهم، فألحوا على السير، وتأكدوا من صدقهم... وإخلاصهم... حتى لا يخطأوا الهدف. فمن يعرف نفسه في (الجهاد الأكبر)(٢٠٩). ضد نواقصه ـ كما في بعض الحديث ـ ، وقد وصل إلى الساعة الحاسمة، ينزل بكل طاقاته إلى المعركة، ومن نزل بكل طاقاته، إنتصر... أو أعذر...

وبذلك: يبقى المؤمن ـ مهما كبر سنه ـ شاباً، لا يحتمل شيئاً من آثار الشيب فيه:

أولاً: فالطاقة الفكرية، تبقى لديه شابة، وتنمو، لأنه لا يهملها. والطاقة الفكرية ـ كأية طاقة ـ تنميها الحركة، ويبذلها الإهمال.

ثانياً: والطاقة الروحية الموحية بالأمل، تبقى فيه شابة، وتزداد لديه عنفواناً... ونهماً... لأن الأمل يتفتح كلما اقترب من الهدف.

ثالثاً: والطاقة الروحية التضحوية، تبقى فيه شابة، وتتبلور حماساً... واندفاعاً... لأن الذي يتقاعد عن ممارسة الحياة، تهون عليه التضحية، وخاصة: بالنسبة إلى من تعود التضحية والحياة صاغرة له، فكيف به والحياة مستنكفة عنه.

رابعاً: والطاقة الجسدية على احتمال الخطوب برحابة، تبقى فيه شابة، وتتوفر عليه. لأن الطاقة الجسدية على الاحتمال برحابة، أقل ـ لدى الإنسان ـ من الرحابة بقفزة ذبابة... أو قرصة بعوضة... وإنما تنبعث هذه الطاقة، وتحدد، بمقدار ما يتوقعه الإنسان من مكاسب. فتوقع المكاسب، هو الذي يبرر احتمال الخطوب. وبمقدار ما يزداد التوقع، يزداد الاحتمال، وبرحابة مطلقة، حتى أقصى التضحيات التي يتلاشى دونها الجسد، والتاريخ يجند ألف دليل... ودليل... لذلك، بدءً من الإمامين: علي، والحسين (عليهما السلام)... ومروراً بعمار بن ياسر، وميثم التمّار... ولا انتهاء لهذه المثل إلا بانتهاء الحياة.

وبتلاقح هذه الصفات ـ صفات الشباب ـ في المؤمن، رغم الشيخوخة، تتولد فيه نتائجها الإيجابية،

فيشــعر بالإنتصار الحياتي، ويبقى إيجابياً، ولا تتعلق به صفات الشيوخ، فلا تتولد فيه نتائجها السلبية، فمثلاً: لا يركبه الشعور بالنقص حتى يحسد، ولا يتسرب إليه الشعور بالخسارة حتى يقاومه بالحرص.

فالمؤمن لا يشيب رغم الكبر.

(٩٦)

سورة العلق

مكية وهي تسعة عشر آية

الطغيان والإيمان

(كَلاَّ . . . إِنَّ الإِنْسانَ لَيَطْغى

أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى)(٢١٠) .

(الطغيان) هو: الاستعلاء مع الغمور، فيقال: طغى الماء على المزرعة، إذا غمرها حتى لم يظهر منها شيء. والإنسان إذا استعلى على شيءٍ حتى غطاه، فقد طغى عليه.

(والطغيان) من المرتكزات الأساســية في الإنسان. فيجب أن يكون هو، وأن لا يكون عليه حاكم، وأن لا يكون له ندّ: لا من الناس، ولا من المبادئ، ولا من الأشياء.

وهــو يحب والديه، وأولاده، وإخوانه، وأصدقائه، وأشــياءه... ولكن بشــرط أن يكــون كل ذلك تحته، يتصرف بها كنقوده، ليمارس من خلالها تلك الركيزة.

وهــذه الركيزة تحكم الإنســان حتى الموت. فيضحي براحته، وأعصابه، وكل ما يحب ـ وحتى بنفســه ـ لممارســتها. ولا يتخلى عن هذه الركيزة إلا إذا اضطر إلى التخلي عنها، لأن الواقع يبقى فوق الإنســان، وللواقــع أحكامه المفروضة على الإنســان: فيطيــع أباه، لا احتراماً له، وإنما لحاجتــه إليه. ويقدس مبدأه، ليشق به طريقه في الحياة. وينتهج الصدق، ليفرض كلامه على الآخرين. ويتظاهر بالدين، ليسخر به بعض الناس... وإذا وجدنا إنساناً خاضعاً لشيءٍ، فعلينا أن نفتش عن الاضطرار الذي أجبره على هذا الخضوع.

والذي يدل على أن الإنســان لا يحني رأسه إلا مضطراً، هو: أنه لا يرفع هذا الاضطرار إلا ويرفع رأسه. وإذا وجد المجال مفسوحاً، يستعلي على ذات الشيءِ ـ الذي كان يحني له رأسه ـ ، ويدوسه، متجاوزاً نحو الأعلى.

وقد يفلســف خضوعه الأول واســتعلائه الأخير بمبدئية معينة، ولكنه لا يكلف نفسه بهذا التفلسف إلا تكريساً لسيطرته على من حوله عن طريق التظاهر بالمبدئية، بدليل:

أنه لا يطمئن إلى اشــتداد وطأته إلا ويســتغني عن التفلســف لتصرفاته أمام من لا يشرطون انقيادهم له بشــرط معين، فيتعرى أمامهم عن ركائزه التي كان يسترها عنهم، فيصبح هو المبدأ والمقياس. فبعدما كان يقــول: المبــدأ يفرض علي أن أعمل كذا... أو لا أعمل كذا... يقول: أنــا أعمل كذا... وأنا لا أعمل كذا... وأنا أحب كذا... وأنا لا أحب كذا... فهو الذي يتخذ القرار، وبوحي من رغباته الشخصية، لا بوحي من أي مصدر يحق له الإيحاء بالتوجيه.

وقد شــهد التاريخ أناساً استحكموا ســيطرتهم على الجماهير التي شعروا بالاستغناء عن التظاهر أمامها بالتمذهب والتمســلك، فأعلنوا انســلاخهم عن المذهبية والمســلكية. وعرف التاريخ أناساً آخرين شعروا باســتحكام ســيطرتهم على الجماهير أكثر من أولئك، فاســتغنوا حتى عن الاعتراف بالله، وادعوا الربوبية لأنفسهم.

فركيزة (الطغيان) المتأصلة في الإنســان، ركيزة لا يمكن كبحهــا إلا بالاضطرار. ولذلك: جاءت الأديان لتوجد شعوراً أقوى ـ في قرارة الإنسان ـ بحاجته المستمرة إلى الله، مهما بلغ من حول وقوة في الدنيا.

وهذا الشعور الذي يبقى الإنسان ـ في كل الحالات تحت إرادة الله، هو: (الإيمان).

فإذا تمكن الإيمان من نفس الإنســان، حتى وجد نفســه ـ بالفعل ـ محتاجاً إلى الله في كل الحالات، فإنه يمكن أن يلتزم بمسلكية معينة، لأنه تحلى بالاستقامة الذاتية، فالإنسان لا يمكن أن يحظى بالاستقامة الذاتية طالما فيه نزوات الأرض، وحتى الأنبياء. لأن أقصى ما في الأنبياء، أنهم عملوا حتى اســتحقوا أن يعصمهم الله. ولو أنهم نالوا الاستقامة الذاتية، لما احتاجوا إلى أن يعصمهم الله، ولما كان لـ(العصمة) معنّى.

فالتزام المؤمن بمســلكية معينة، ناتج من أنه بقي محتاجاً إلى الله، الذي فرض عليه تلك المسلكية. فلم يستغن: ولو استغنى، لطغى، لأن ركيزة (الطغيان) أصيلة فيها.

من هنا نعرف:

١ـ أن الإيمان في نفس الإنسان، لا يظهر إلا من خلال نوعين من تصرفاته:

أ ـ تصرفاته المستورة عن الآخرين.

ب ـ تصرفاته أمام من استحكمت عليهم سيطرته، حتى اطمأن إلى أن انقيادهم له غير مشروط، وحتى أطمئن إلى أن أبناءه لا ترشح منهم.

٢ـ إن أي مبدأ لا يمكن أن يلزم بمسلكية معينة:

أ ـ لأنه يمكن للإنسان أن يشعر بحاجته المستمرة إلى مبدأه، حتى خلال تصرفاته في غياب الآخرين، وحتى خلال تصرفاته في حضور من يطمئن إليهم.

ب ـ سرعان ما يستغني الإنسان عن الالتزام ببعض توجيهات مبدئه. فيتخلى عنه بذلك المقدار.

وبمدى تقدمه في السيطرة، يتقدم في الاستغناء عن مبدأه، ويستمر في التخلي عما استغنى عنه، حتى يصل إلى الوقت الذي يعتبر نفسه مبدءاً، ويسخر مبدأه لرغباته. وكم شهد التاريخ من استغنى عن مبدئه، فسخره، وحرّفه، حتى كأنه صيغ ثوباً له فقط، لا له ولسواه.

(٩٧)

سورة القدر

مكية وهي خمسة آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) (ليلة القدر) (٢١١).

(إِنَّــا أَنْزَلْنــاهُ): أنزلنا (القرآن) دفعة واحدة من (اللوح المحفوظ) إلى (البيت المعمور) ـ في الســماء ـ الرابعة ـ (فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)، تمهيداً لإنزاله نجوماً ـ وحسب المناسبات ـ خلال ٢٣ سنة.

(وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ) أهمية وعظمة، فهي ليلة عظيمة شريفة منحها الله لك ولأمتك ـ يا محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)! ـ مقابل ما أخذ منك ومن أمتك خلال ألف شهر.

وذلــك: أن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وســلم) رأى في المنــام أن (قردة) تنزو على منبره، وعرف أن تفسير هذه الرؤيا أن منبره ـ الذي هو رمزه ـ يعرض لإفراد يحملون بين جوانحهم نفوس القردة، ومعنى ذلك أن خلافته تخرج من أهلها، فحزن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حزناً شديداً، ونزل عليه (جبريل) فأخبره بأن (بني أمية) يستخلفونه (ألف شهر). فأراد الله أن يسرّي عن نبيه، فأنزل عليه هذه السورة، ومنحه وأمته (ليلة القدر)(٢١٢).

(لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ) لك ولأمتك ـ (مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) تصادر فيها الخلافة منك ومن أمتك.

ذلك، أن لليلة القدر ثلاث خواص: إحداها مشــتركة بينــك وبين أمتك، والثانية خاصة بك وبخلفائك، والثالثة خاصة بأمتك. وهي بالتتابع:

١ـ نــزول (القرآن) في هذه الليلة المباركة. ونزول القرآن يعني إيضاح الرســالة لك، وإيضاح الطريق في الحياة لأمتك.

٢ـ عرض (أقدار الناس) عليك في حياتك، وعلى خليفتك القائم بالأمر في كل زمان. فتنزل (الملائكة) ـ من أول المغرب إلى طلوع الفجر ـ على (المعصوم) القائم بالأمر في كل زمان، فتعرض عليه أقدار الناس، ويتاح له التدخل فيها بالدعاء على أن يغيرها الله، إن كانت حكمته تقتضي ذلك.

لأن الله يقرر أقدار الناس لسنة كاملة في هذه الليلة، فهي ليلة تقرير الأقدار من قبل الله. وإن ساغ التشبيه لقلنا: إن في هذه الليلة يوقع الله الأقدار المعلقة فتصير محتومة. فكما أن (المحاكم) تصدر أحكامها ولكنها تبقى معلقة حتى يوقع عليها الملك أو رئيس الجمهورية فتصح معلقة، حتى تكون ليلة القدر فيقررها الله ـ تعالى ـ فتصبح محتومة وتوضع موضع التنفيذ.

وفي هذه الليلة يعرض الله ـ بواســطة الملائكة ـ أقدار العباد لسنة كاملة على المعصوم القائم بالأمر، لما يشبه أخذ الموافقة: فإذا كان موافقاً قررها الله، وإذا كان يرغب في تغييرها دعا الله أن يغيرها فيستجيب الله

لدعاءه ويغيرها وفق رغبته.

وهذا... نوع من إشراك المعصوم في أقدار العباد، فهو تشريف له وتكريم له إلى أقصى درجات الأشراف والتكريم.

(تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ) الذي هو من أعظم ملائكة الله، (فِيها): في ليلة القدر، (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) وبفضل ربهم وتكريمه للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة (عليهم السلام) من بعده، (مِنْ كُلِّ أَمْرٍ) من أقدار الناس. وتستمر الليلة كلها من المغرب حتى الفجر، فـ(سَلامٌ هِيَ): الليل (حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ).

ولم تكن (ليلة القدر) لسائر الأنبياء (عليهم السلام)، فلم تكن تعرض عليهم أقدار الناس قبل تقريرها، وإنما أكرم الله بها نبيه العظيم محمّداً (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة الطاهرين (عليهم السلام) من بعده.

وبهذا المعنى يكون لليلة القدر معنى فوقي، فهي تجري ـ من فوق الناس ـ بين الله ووليه المعصوم على الأرض، دون أن يكون لهم إلا التوقع والانتظار، شأن الواقف في (المحكمة) لا يعلم: هل سيصدر الحكم له أو عليه؟ فليس له أكثر من الترقب.

٣ـ إفساح المجال لكل الناس أن يتدخلوا في أقدارهم بـ: (الدعاء، والتضرع، والالتجاء إلى الله... فإن الله يفتح أبواب الدعاء في هذه الليلة، ويرحم الداعين التأئبين، ويعتق رقابهم من النار. ففي هذه الليلة يتاح لكل فرد أن يسأل الله كل ما يحلم به خلال عامه القادم، والله يجعل الدعاء في هذه فرصة ذهبية للتدخل في أقداره. فتشبه هذه الليلة ما لو سمحت (المحكمة) للقائم فيها أن يتدخل في الحكم الذي سيصدر بحقه، ويسأل تغييره، وقطعت المحكمة على نفسها وعدا بتغييره إذا طلب الواقف فيها ذلك.

وهذا المعنى يجعل (ليلة القدر) فرصة ذهبية لكل إنسان، من أمة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى يوم القيامة.

فكل فرد يعرف ذلك ينهمك هذه الليلة في: الدعاء، والصلاة، وتلاوة القرآن، والخيرات، وكل ما يقربه إلى الله...

ولذلك: أخفيت (ليلة القدر)، لأن الناس إذا عرفوها عبدوا الله فيها وتركوا العبادة في سائر الليالي، فأخفيت حتى يكرس الناس أكثر من ليلة للعبادة. كما يفهم من الحديث الوارد عن المعصوم (عليه

السلام): أن رجلاً سأل الإمام عن ليلة القدر، فأجاب الإمام جواباً عرف منه السائل أنها إحدى ليلتين: إما الواحدة والعشرين، أو الثالثة والعشرون من شهر رمضان المبارك. فسأل الرجل من الإمام تحديدها في ليلة، فقال الإمام: (وما ضرك أن تعبد الله في ليلتين)(٢١٣)؟!

وقد بحثنا عن ليلة القدر في تفسير الآيات الأول من سورة (الدخان).

ويمكن تفسير (ليلة القدر) بمعنى آخر يحتاج إلى بيان مقدمة، وهي:

إن (الصوم) يحرر الإنسان من أغلاله وتمسكاته الذاتية، فإذا صام الإنسان وأضرب عن الطعام والشراب والجنس... أياماً متوالية، يقل نزوعه إلى هذه الأشياء، وتستهلك فيه كمية كبيرة من الخلايا الفضولية التي لا حاجة إليها. فتنشط روحه، ويحد فكره، فتتضح رؤيته.

ويرتاح قلبه ـ نتيجة لهذا الإضراب ـ فتتحرك أحاسيسه بشكل أرهف.

كما يتعود (الصبر). وصلة الصبر بالصوم صلة عضوية بررت للقرآن الكريم التعبير عن الصوم بالصبر، فقال:

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ...)(٢١٤). أي بالصوم والصلاة، كما في بعض التفاسير. فعلى أثر الصوم تبطؤ (الدورة الدموية) في جسم الإنسان، فتهدأ أعصابه، فيستطيع احتمالاً أكثر... وترويا أكثر...

كل هذا... من ناحية.

ومن ناحية أخرى.

هناك صلة وثيقة بين الصوم والدعاء، سمحت لآية الدعاء: (وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ. فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي، وَلْيُؤْمِنُوا بِي، لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)(٢١٥) أن تأتي بين آيات الصوم.

وإذا اتضحت رؤية الإنسان، وأرهفت أحاسيسه، وتعود الصبر، واتجه إلى الله لتعديل حياته وتصحيح مسيرته، في هذه الحالة حيث يريد الإنسان، دفع الشر وكسب الخير، لا بد أنه يدرس حياته برؤية أوضح وأحاسيس أرهف وتوئدة وأناة. في عملية استكشاف لنقاط الضعف والقوة، حتى يطلب من الله إنقاذه من نقاط الضعف وتقوية نقاط القوة فيه.

وعندما نصح الإنسان بالإكثار من (تلاوة القرآن) في شهر رمضان، ربما كان لأن يبقى متصلاً بالقرآن حتى تتم دراسته لحياته على وعي القرآن. وعندما استحب للإنسان أن يكثر (الأدعية الموجهة) في شهر رمضان، ربما كان لأن يأخذ منها المشورة الأمينة الهادفة.

وعندما تتكرر عملية دراسة الإنسان لحياته ـ في أيام شهر رمضان الرخية، ولياليه الهادئة ـ فمن الطبيعي أن يتجه إلى وعي شديد لواقعه، وما لا ينبغي أن يتكرر في حياته وما ينبغي أن يتجدد في حياته.

وبتكرار هذه العملية من جهة، وبتبلور صفاءه ـ على أثر الصوم ـ من جهة أخرى، لا بد أن يبلغ ـ في إحدى الليالي الأخيرة من الشهر المبارك ـ قمة وعيه، فيتخذ القرار، ويقرر مصيره. وهكذا... يكون هذا الشهر، شهر قرار المصير.

ولعل من الممكن استنتاج ذلك، بجمع ثلاث مجموعات من الأحاديث:

١ـ تقول المجموعة الأولى: إن (ليلة القدر) ليلة من ليالي العشر الأواخر من شهر رمضان.

س٢ـ تقول المجموعة الثانية: إن (ليلة القدر) مستمرة إلى يوم القيامة.

٣ـ تقول المجموعة الثالثة إن لكل إنسان (ليلة قدر).

فليلة قدر كل إنسان هي الليلة التي يبلغ وعيه فيها ذروته: فيفحص ماضيه ويختار منه خيره، ويفحص مستقبله على ضوء ظروفه وإمكاناته، فيتخذ قراراً مصيرياً بشأن مستقبله، يكون خطة عمله لسنة واحدة على الأقل.

فإذن، لليلة القدر معنيان:

١ـ المعنى الإلهي: وهو أن يقدر للعباد أقدارهم في هذه الليلة، ويعرضهما على (القائد البشري الأعلى): تكريماً له، وليتيح له فرصة (الشفاعة لمن يراه أهلاً للشفاعة. وفي نفس الوقت: يتيح للعباد ـ أنفسهم ـ حق الاشتراك في تقرير أقدارهم بالدعاء، وقد وعد الإجابة بشروطها.

٢ـ المعنى البشري: وهو أن يتبلور الناس بالصوم، ويقرأوا القرآن والأدعية، ويتأملوا في ماضيهم وحاضرهم، حتى يتخذوا لأنفسهم قراراً يقررون به خطة حياتهم المستقبلية.

(٩٨)

سورة البينة

مدنية وهي ثمانية آيات

عبادة اللّه وعبادة الشخصية

(وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ، إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ.

وَما أُمِرُوا إِلاَّ: لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، حُنَفاءَ، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ. وَذلِكَ: دِينُ الْقَيِّمَةِ)(٢١٦).

العبادة الخالصة، هي: التي تأخذ مستواها بمستوى الإيمان الدافع بها إلى الوجود، فهي بمقدار ذلك الإيمان.

أما العبادة التي تظهر في (العلن) وتختفي في (الخفاء)، فهي ليست خالصة لله، وربما تكون خالصة لغير الله.

وأما من يخدم العالم الديني المعروف، ولا يخدم العالم الديني المطمور، وإن كان، بمقياس الدين، أفضل من الأول ـ فهو يعبد (الشخصية) باسم الله.

(٩٩)

سورة الزلزلة = الزلزال

مدنية وهي ثمانية آيات

(١٠٠)

سورة العاديات

مكية وهي إحدى عشر آية

(١٠١)

سورة القارعة ـ القارعات

مكية وهي إحدى عشر آية

(١٠٢)

سورة التكاثر

مكية وهي ثمانية آيات

(١٠٣)

سورة العصر

مكية وهي ثلاثة آيات

الإنسان الرابح

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ :

إِنَّ الإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ .

إِلاَّ :

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ،

وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ ،

وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ)(٢١٧) .

(العصر) اسم للزمان كلل، وهو: اسم للأصيل أيضاً.

وهذه السورة المباركة، من السور المفتتحة باليمين، للتأكيد على صحة ما فيها. واليمين بالعصر لـ :

١ـ أهميته، والتوجيه إليه، لجعله موضع دراسة وتحليل، والإفادة منه.

٢ـ للتدليل على أن العصر شيءٌ مقدس، كالتين، والزيتون، والشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها... باعتبار: أن كل الموجودات الكونية، أشاء مقدسة. لأنها أشياء مؤمنة بالله، وخاضعة لله. وإنها في سجود، وتسبيح، وصلاة ـ دائماً لله، ـ على ما يفهم من بعض السور.

ثم: إن اليمين بالعصر ـ لو أريد به مطلق الزمان ـ مناسبة لما في السورة، من الإلفات إلى أن الإنسان في خسارة مستمرة للعمر.

ولو أريد به الأصيل فقط، ففيه دلالة على: أن الإنسان يعيش عمراً يشبه الأصيل، في أنه معرض للزوال

باستمرار.وأن طبيعته تشبه طبيعة الأصيل، التي تحمل في ذاتها دليل قصره، وإنذارها بالزوال.

(إِنَّ الإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ): فكل إنسان في خسران مستمر للعمر، لأنه يفقد ـ يومياً حصة من رصيده، وورقة من كتاب حياته، وجزءً من أمده.

(إِلاَّ: الَّذِينَ آمَنُوا): فبالنسبة إليهم، ليس نقصان الزمان، خسراناً. لأن المؤمن خلق مرتبط بالله، مستمر في عمق المستقبل، قوي بارتباطه بالله، فلا يشكو التهافت والذوبان. ويتخطى جدار الموت، فالموت ـ بالنسبة إليه ـ مجرد انتقال تكاملي من بيئة إلى بيئة، ومن مناخ إلى مناخ. فالزمان ـ بالنسبة إليه ـ لا يعني شيئاً.

(وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ): فالإيمان والعمل الصالح مقترنان، لأن العمل الصالح تعبير عن جريان الإيمان في الجوارح، وعدم جموده في الذهن، فليس خاطرة غريبة في كيان الإنسان، وإنما هو منتشر فيه فكراً ولفظاً وحركة، لأنه صادق ومتمكن منه. ومن هنا: يقترن الإيمان بالعمل الصالح، في العديد من آي القرآن.

ذلك: أن المؤمن ـ إذا لم يمارس إيمانه ـ يتهافت إيمانه ويندثر، كما أن الحيّ ـ إذا لم يمارس حياته ـ تتهافت حياته وتندثر. فهما مقترنان.

(وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ): فالفرد المؤمن لا يتماسك ولا يستقيم إلا في المجتمع المؤمن، كما أن الشجرة لا تتماسك ولا تستقيم إلا في البستان. والمؤمن في مجتمع غير مؤمن غريب لا يداوم، كما أن الطائر الوحيد لا يقطع الأبعاد. فعلى كل مؤمن: أن يسعى لإيجاد المجتمع المؤمن، الذي يضفي هو عليه بإيمانه، ويضفي مجتمع عليه بإيمانه، ليتماسك ويستمر، ولذلك: تحرم الهجرة إلى بلاد الكفر، التي لا يستطيع المؤمن أن يقيم فيها شعائره. فالروح الجماعية لا توجد في الفرد، مهما كان قوياً.

(وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ): فالمثابرة على الإيمان ـ الذي هو الحق ـ يحتاج إلى الصبر. وليس إلى الصبر الطبيعي وحده، وإنما إلى الصبر الجماعي الذي يمده التواصي.

فكل مؤمن أوجد مجتمعاً مؤمناً، يوصيه بالحق والصبر، ويوصى فيهم الحق وبالصبر، فليس بخاسر. ومن لم ينجح في إيجاد مجتمع مؤمن كذلك، فهو في خسر.

وإذا لم ينجح في إيجاد المجتمع المؤمن الكبير، فعليه أن يوجد المجتمع المؤمن الصغير في: بيته، أو في معمله، أو في مكتبه...

الإنسان الرابح أيضاً

أولاً: العصر هو: الزمن، أو آخر النهار، وفي هذه الفاتحة مناسبة دقيقة مع ما يأتي، فالسورة تبحث في مقارنة الإنسان بالزمان. فالزمان في حركة دائمة، والإنسان ـ في كل لحظة ـ يخسر شيئاً من رأس ماله، فهو في خسران لا إرادي دائم. ولكنه يستطيع أن ينتصر على هذا الخسران، ويحول الزمان المتحرك المنصرم الفاني إلى شيءٍ خالد وثابت، ولكن بشرائط أربعة:

١ـ الإيمان.

٢ـ العمل الصالح.

٣ـ التواصي بالحق.

٤ـ التواصي بالصبر.

ثانيا: فالمؤمن إذا عمل الصالحات، يبقى بتلك الصالحات ما بقيت. ففي الحديث: (إذا مات ابن آدم، انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، وولد صالح يستغفر له، وكتاب علم ينفع به)(٢١٨)، وكل ما من قبيل هذه الأمثلة الثلاثة: كاختراع مستمر، وتلميذ يمدد في حياته الدينية، وفكرة ينتفع بها...

فالإنسان إذا أعطى، يبقى ببقاءِ عطاءه، سواء أكان: في صيغة مؤسسة خيرية، أو في صيغة تربية صالحة، أو في صيغة أفكار وأحلام تنير الدرب أمام الإنسان. فهو ـ بإحدى هذه الثلاث ـ يحيا حياة حقيقة معطاءة، وإن استحال جسمه في ذرات التراب.

كما يمكنه أن يكتب لنفسه الموت الحقيقي، بأن ينقطع عن العطاء، ويتحول إلى أخذ، فيفقد إرادة الحياة، وينجرف مع الشارع، فإنه ميت حقيقي، وإن كان يتموج مع الأحياء ألم يقل الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): (... فالحياة في موتكم قاهرين، والموت في حياتكم مقهورين)(٢١٩) .

فما دام الإنسان يملك إرادة التغيير ـ وهي أجلى ظواهر الحياة ـ فهو حي. وإذا خسر إرادة التغيير، واستسلم للمغيرات، فانساق، وسمح للشارع أن يدخل في: مجتمعه، أو في بيته، أو في عائلته، أو في نفسه... فقد خسر الحياة.

وهكذا... فالمؤمن الذي يعمل الصالحات، لا يخسر شيئاً بانصرام الزمان، وإنما يحوله إلى عمل ثابت غير منصرم، فهو خالد ينمو وينتشر. بينما غير المؤمن، يخسر ـ كل لحظة ـ قسطاً من رأسماله، حتى يفنى رأسماله كله، ولا يبقى شيء منه، فينتهي.

(وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ): فالإنسان الفرد، مهما أوتي من قوة الإرادة وصلابة الإيمان، لا يستطيع أن يبقى مقاوماً لكل عوامل التغيير المتحكمة فيه، وإنما عليه أن يحول إيمانه الفردي إلى عمل جماعي، بأن: يؤسس مجتمعاً إيمانياً، يكون بمثابة الدرع التي تردع كثيراً من عوامل التغيير، قبل أن تتحكم فيه.

المؤمن، إن لم يحول إيمانه إلى مجتمع، يكون كالبطل الواقف على الرمال المتحركة، كلما تحرك غاص فيها. وأما إذا وجد المجتمع المؤمن، فإنه يصبح كالمحارب الرابض في خندقه، لا تصل إليه القواتل، إلا احتمالاً بنسبة الضعف في استحكاماته.

فالمؤمن، إذا أوصى غيره بالحق والصبر، يتركز في عمقه الإيمان بالحق والصبر. فمن يحمل الآخرين على جناحه، يقول جناحه.

وإذا أوصاهم الآخرون بالحق والصبر، يلافون نقاط ضعفه، ويعوضونه عن نقائصه، فيصمد.

فالمؤمن، في المجتمع المؤمن جزء في مجموعة متداعمة: تتلافى ضعف بعضها، وتتركز في الدفاع عن بعضها. وذلك: كالطائر في سربه.

أما إذا بقي وحيداً: فإن عوامل التغيير، ونقاط ضعفه، تتغلب عليه ـ ولو شيئاً قليلاً ـ وتعرض إيمانه للضمور والتلاشي.

فللإيمان ثلاثة شرائط:

١ـ العمل الصالح: لأن الإيمان ـ كأية طاقة ـ إذا لم يمارس يتضائل وينتهي.

٢ـ التوصية بالحق والصبر: لأن الإيمان، إذا لم يمتد إلى الآخرين، لا يكون إيماناً متحركاً، فلا يكون إيماناً كاملاً. بل جامداً، ناقصاً، لا خير فيه.

٣ـ قبول الوصية من الآخرين بالحق والصبر: لأن الإنسان ـ مهما كمل ـ تبقى فيه نقاط الضعف، التي

تحوجــه إلى تســديد الآخرين. فإذا ظن أنه أصبح في غنى عن تســديد الآخرين، فقــد أقر نقاط ضعفه، وثبتها، وحرم نفسه من التكامل.

والمؤمن ـ بهذه الشروط ـ هو الذي يأخذ من الزمان أداة تعينه على خلوده، ولا يسمح للزمان أن يسلل ـ كل لحظة ـ منه لبنة حتى يتركه رمماً.

(١٠٤)

سورة الهمزة

مكية وهي تسعة آيات

نار الدنيا ونار الآخرة

(نارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ)(٢٢٠).

النار ـ المتداولة بأيدينا ـ تتقدم تدريجاً: فتشعل الأقرب إليها، ثم تتقدم نحو الأبعد عنها. فإذا سقط إنسان في النار، يشتغل ظاهر جسمه، أولاً، ثم تتسرب النار إلى جوفه. وقياساً على ذلك، تبرز علامتا استفهام:

الأولى: كيف تصل نار جهنم ـ مباشرة ـ إلى القلوب الموجودة في أجواف أهل النار؟

الجواب: إن النيران على قسمين، لكل قسم منهما خواصّه.

القســم الأول: النار العفوية التي تترك على سجيّتها، كالنار الملتهبة في الهواء الطلق. وهذه تحرق كل ما تمسه ـ تدريجياً ـ بعفوية وبراءة.

القســم الثاني: النار الموجهة إلى نقطة خاصة. وهذه لا تحرق كل ما تمسه تدريجياً، وإنما تحرق النقطة التي توجه إليها، وتتجاوز الأجسام التي تمر بها فلا تحرقها. كأشعة (لايزر) التي تستخدم ـ طبياً ـ لاستئصال أو إحراق الزوائد التي تتواجد داخل الجسم، فتغني عن إجراء عمليات جراحية.

والله ـ تعالى ـ أوجد نيران الدنيا، وسخرها للبشر، ليستخدمها في أغراضه. فهي بريئة، مطواعة، تتحرك

بإرادة البشـــر. فكلها من القســـم الأول. فيما أوجد الله ـ ســـبحانه ـ نيران جهنم، وسلطها على البشر. فهي موجهة، تتحرك بإرادة خزنتها (من الملائكة) حســـب الذنوب. وحســـب تعبير الحديث، هي نار (مسجّرة)، أي: موجهة. كما ورد في قول الإمام علي (عليه السلام) لأخيه عقيل في القياس بين النارين: (أتئِنّ من حديدة أحماها إنسانها للعبه، ولا أتِنّ من نار سجرها جبارها لغضبه)(٢٢١).

الثانية: لماذا تخصيص القلوب بالاحتراق دون سائر الأعضاء؟

الجواب: يمكن تعليل هذا التخصيص بوجوه.

أ: لعل المقصود بيان: أن نار جهنم تختلف عن نار الدنيا، بأنها لا تحرق ظاهر الجســـم أولاً ثم تتســـرب إلى باطنه، وإنما هي تحرق الظاهر والباطن، وفي وقت واحد، وعلى حد سواء. وقد ذكر (القلب) لا لتسرب النار إليه فقط، وإنما رمزاً إلى الأحشاء.

واختياره رمزاً للأحشـــاء: ربما لأنه أهم الأحشاء. وربما لأنه أرهف الأحشاء، فتألمه بالنار أكثر. وربما لأنه عضو رئيسي، يحرص الإنسان على سلامته أكثر من حرصه على صيانة بقية أحشاءه.

ب ـ لعل نار جهنم توجه إلى (القلب) بصورة مركزة، لأن القلب قائد الجسد، ولا يتحرك أي عضو من الجســـد إلا بوحي منه، وإن كانت الأعضاء تســـاهم معه في أداء المعاصي، إلا أن دوره في مخالفة الله دور رئيس، فيقدر عذابه بقدر دوره، فلا ينجو من النار بكونه في باطن الجسد، وإنما تركز عليه النار حتى ينال عقابه العادل.

ج ـ بما أن (القلب) مركز النوايا، ومجمع العواطف والشهوات، وتقتضي العدالة أن لا يعذب المجرم إلا بمقدار ما انطوى عليه من شر، ونار جهنم عاقلة تتحرك في اتجاه كل مجرم بقدر استحقاقه، فلعل المقصود مـــن (إطـــلاع نار جهنم على الأفئدة): أن النار تفحص قلب كل من يدخلها، فتعذبه بمقدار ما تجد في قلبه من النوايا السوء.

فتفيد الآية تهديد المجرمين بأن كتمان الســـرائر في القلوب لا ينجي من عذاب جهنم، لأن نارها ليســـت عشـــواء تلتهم كل ما يلقى فيها كما تلتهم الهشـــيم، وإنما تقدر ـ بوعي دقيق ـ مدى اســـتحقاق كل مجرم للعقاب.

كما تفيد الآية سيادة العدالة في جهنم، فلا ينال أي مجرم أكثر من استحقاقه.

(١٠٥)

سورة الفيل

مكية وهي خمسة آيات

(١٠٦)

سورة قريش

مكية وهي أربعة آيات

الفيل وقريش والمبعث الشريف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ : كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِـ : (أَصْحابِ الْفِيلِ)؟ !

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ؟ !

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)(٢٢٢) .

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لإِيلافِ : (قُرَيْشٍ) ، إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ : الشِّتاءِ ، وَالصَّيْفِ .

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ ، الَّذِي : أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ، وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)(٢٢٣) .

-١-

لقد كان (إبرهة) مندوباً من قبل (النجاشـــي) ـ ملك الحبشـــة ـ على اليمـــن. وحيث كانت اليمن فقيرة، ليست لها موارد اقتصادية، ترفع مستوى المعيشة فيها إلى مستوى البلاد الغنية، كالشام والحبشة، فكر في إيجاد مورد اقتصادي سهل لبلاده. فوجد (مكة) بلداً ليست لها موارد طبيعية، ولكنه تعيش مستوى أرفع من مستوى بلاد اليمن، بسبب استراتيجية (الكعبة) من ناحيتين:

١ـ أن وفود الحجاج تنفق فيها أموالاً طائلة، هي نفقات الحج الطبيعية.

٢ـ أن التقاء الناس ـ من كل البلاد ـ في مكة، جعلها سوقاً رائجة رابحة: فأهل مكة ـ في الشتاء ـ يسافرون إلى اليمن، فيشـــترون خير ما فيها. وفي الصيف، يســـافرون إلى الشام، فيشـــترون خير ما فيها. ويبيعون ما يشترون ـ من اليمن والشام ـ في رجب: موسم العمر، وفي ذي القعدة وذي الحجة محرم: موسم الحج.

فأراد (أبرهة) أن يوجه الناس إلى اليمن، فبنى ـ في اليمن ـ بيتاً على هندســـة الكعبة، حتى يحجه الناس كما يحجون الكعبة في مكة، ولكن الناس ما زاروا بيته في اليمن. فالشرعية التاريخية ـ منذ هبوط آدم (عليه السلام) ـ ، وذكريات الأنبياء (عليهم السلام)، ومقابرهم الكثيرة في المسجد الحرام... هي التي تشد الناس إلى الكعبة، لا هندسة البناء، ولكن (إبرهة) لم يشأ أن يفهم الكعبة إلا بناءاً بهندسة خاصة.

وعندمـــا وجـــد الناس منصرفين عن بيته إلـــى الكعبة، أراد أن يهدم الكعبة، ليضطـــر الناس إلى بيته في اليمن. فجند جيشاً جراراً، اتخذ الفيلة بدلاً عن الخيول ـ والفيل أقوى من الخيل في احتمال الجراح، وكان يستخدم لهدف الأبنية القديمة ـ ، وقاد جيشه إلى مكة. وكانت أخباره تنشر القلق في نفوس أهل مكة، الذين وجدوا أنفســـهم غير قادرين على مقاومته. فلما أشـــرف على مكة، أرسل الله أسراباً من الطيور، ألقت على ذلك الجيش، كميات من حصوات طينية، حطمت الجيش.

وكانت هذه الحادثة ظاهرة معجزية، تكشف عن حماية الله:

للكعبة، ولأهل مكة، فتباشر أهل مكة، لـ :

١ـ نجاتهم من ذلك الجيش القوي، الذي لم يكونوا يحلمون بالانتصار عليه، فاستسلموا له، ولم يتأهبوا لمقاومته.

٢ـ إن الحادثة كشفت: أن الله بجانبهم. فارتفعت معنوياتهم، وانخفضت معنويات أعدائهم.

فاتخذوها مداراً للتاريخ، بما يؤرخوا الحوادث. ولولا أن الإسلام أعقب تلك الحادثة بهجرة الرسول لبقية حادثة الفيل مداراً للتاريخ العربي.

وعندما جاء الإسلام، قرر أن تلك الحادثة كانت معجزة سماوية، منّ الله بها على أهل مكة.

(أَ لَمْ تَرَ: كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ؟!)، وهم (أبرهة) وجيشه. وعبر القرآن عنهم بأصحاب الفيل تحقيراً لهم، فهم أصحاب الفيل. أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ؟!)، فجعل سهمهم طائشاً، وكيدهم تخبطاً في ضلال.

(وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ) أي: أسراباً... أسراباً... كانت تأتي الطيور، فتقصفهم، بتكتيك جوي متبع حتى اليوم في المجالات العسكرية. فالقاذفات، تقصف على موجات، لمفاجأة العدو فكل موجة، تنحسر يخرج العدو من ملاجئه، ليهيء نفسه للمقاومة . أو لهجوم معاكس، فتغمره موجة أخرى. وتتوالى الموجات، بفواصل مختلفة، حتى تقضي عليه.

(تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ). فالإنسان عندما يحارب الله، يصبح حقيراً حقيراً... مهما اشتد بأسه في أنظار الناس. فالله لم يحطم ذلك الجيش المزود بالفيلة، لا بالصواعق، ولا بالعواصف، وإنما حطمها بأحجار صغيرة من الطين اليابس، كانت الطيور تحملها بمناقيرها وأرجلها، فتلقيها على أصحاب الفيل.

(وسجيل) كلمة معربة من كلمتين فارسيتين، هما: (سنك پل)، أي: (حجارة الطين)، وهي قطع الطين اليابسة.

(فَجَعَلَهُمْ) الله، بتلك القنابل الصغيرة، (كَعَصْفٍ) وهو: التبن، (مَأْكُولٍ). فأصبح منظر ذلك الجيش الرهيب في الصحراء، أشبه بمنظر التبن الذي يتساقط من أفواه الحيوانات عندما تأكل.

هذه معجزة ـ لا شك ـ ، لأنها ظاهرة غير طبيعية، ولكن كيف تمت تلك المعجزة؟

١ـ يقال: إن ميكروبات أصابت جيش (أبرهة)، فهلك بنوعٍ من الأوباءِ.

وهذا غير صحيح، لأن التعبير عن مكيروبات بـ : (طَيْراً أَبابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ)، تعبير فيه

كثير من المبالغة المشـــوهة. وبعض من شهدوا الحادثة بأعينهم، سمعوا هذا الوصف القرآني بآذانهم. لأن الحادثة كانت قريبة العهد من نزول القرآن، فعام الفيل هو عام ميلاد الرســـول (صلى الله عليه وآله وسلم)، أي: كانت الحادثة قبل بدء نزول القرآن بأربعين سنة.

فلو كانت الميكروبات سبب هلاك أصحاب الفيل، لأنكر الناس على القرآن التعبير بـ : (طَيْراً أَبابِيلَ...)، ولم ينكروا ذلك. فإذن: كان سبب هلاك أصحاب الفيل: (طيراً)، لا ميكروبات.

٢ـ يقال: أن طيراً من نوع الجراد، عصفت بهم في موجات، فأكلتهم، وتركت بقاياهم كعصف مأكول.

وهـــذا غير صحيح أيضاً. فالقرآن يقول: (تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِـــجِّيلٍ)، ولو تم هلاكهم بواســـطة طيور تأكلهم، لكذّب القرآن من عاصر الحادثة ونزول القرآن.

فلعل أسراباً من الطيور، كانت قد حطت على شواطئ البحر الأحمر، وحملت بأرجلها كميات من رمال الشواطئ، فلما حلقت على جيش (أبرهة)، رمتها بتلك الرمال. وربما كانت تلك الرمال، موبوءة بميكروبات فتاكة، فتسمم الجيش، وتفرقت أعضاء الجنود والفيلة بشكل سريع.

فالله تعالى، أهلك جيش (أبرهة)، ليحفظ: الكعبة، وأهل مكة.

و(لـ) يحفظ لهم (إِيلافِ قُرَيْشٍ: إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّـــتاءِ) إلى اليمن، (وَالصَّيْفِ) إلى الشام. (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ): البيت الحرام، وهو المسجد الذي تعلو فيه الكعبة. (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ)، فلم يدع (إبرهة) يقطع عليهم مورد ارتزاقهم، (وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) فلم يترك (إبرهة، يبيدهم كما كان ينوي.

وهذه اللام في: (لِإِيلافِ قُرَيْشٍ) لام التعليل، أي: إن الله أباد جيش (أبرهة) لِإِيلافِ قُرَيْشٍ.

فلمـــاذا حفظ الله أهل مكة، وكثير من الحروب تشـــن على كثير مـــن البلاد، فلا يحفظ الله أهلها بالطرق المعجزية؟

لأن الله كان يريد إبقاء أهل مكة، ليحملوا ـ بعد ســـنوات ـ أشعة الإسلام، ويتجاوزوا بها الفيافي إلى كل بعد.

صحيـــح: أن أهل مكة وقفوا ـ في بادئ الأمر ـ ضد الإســـلام، ولكنهم اندمجوا ـ أخيراً ـ فيه، وخدموه

خدمات جليلة، وكانت لهم مواصفات عديدة ساعدت على انتشار الإسلام، وربما كانت السبب في أن الله اختار نبيه من بينهم.

وبعض الأحاديث تدل على أن هاتين السورتين: (سورة الفيل و سورة قريش) سورة واحدة، وإن فصل بينهما ببسم الله، وفقهائنا يعتبرونهما واحدة. فروح السورتين واحدة، والسورة الثانية تعلل السورة الأولى.

- ٢ -

هل هذه الطير كانت:

١ـ حيوانات سامة، وجدت في تربة سامة، نتيجة لتفاعلات. فنهضت من الأرض، ووجهها الله للانقضاض على (أبرهة) وجيشه؟

٢ـ أو طيور معروفة باسم: (بنات الهند والسند)، التقطت قطعاً من تربة سامة، وألقتها على جيش (إبرهة)؟

٣ـ أو أن العملية ـ كلها ـ كانت معجزية؟

يمكن أن يكون أي من ذلك. ولكن يأتي هذا السؤال:

إن الله أرسل جيشاً أبابيل، يبيد جيش (أبرهة)، عندما أراد أن يهدم الكعبة، فلماذا لم يرسل مثل ذلك الجيش عندما ضرب (الحجاج) الكعبة؟

الجواب: إن الله ـ تعالى ـ غالب على أمره، ويحفظ دينه في كل وقت بشكل: ففي الوقت الذي يوجد المؤمنون يحفظه بالمؤمنين، وعندما لا يوجد المؤمنون يحفظهم بجيش أبابيل ـ مثلاً ـ . وعندما ضرب الحجاج الكعبة، كان المؤمنون، الذين حفظوا الكعبة ولو بعد حين.

ثانياً: في مجال الامتحان الإلهي قد يكون ما يلي:

عندما يوجد المسؤول عن شيءٍ، يترك الله الأمر له، وإن لم يؤد مسؤوليته فالله أرسل ذئبة ترضع نمرود، عندما كان طفلاً رمته الأمواج على الساحل. ولكن إذا مات طفل ـ إلى جانب أمه ـ جوعاً، فإن الله لا يرسل

عادة، ذئبة ترضعه، لوجود أمه المسؤولة عنه. وهكذا... في كل مجال، ومنه مجال حفظ الكعبة.

سؤال آخر: إن الله حفظ الكعبة عندما كانت قاعدة الأصنام، ولم يحفظها وقد طهرها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من الأصنام؟

الجواب: إن الكعبة مقدسة، وجدت الأصنام على ظهرها ولم توجد، فقداستها لا تذهب بتعليق الأصنام حولها.

ثانياً: إن فترة الأصنام محدودة، والكعبة مستمرة، ولا تهمل الكعبة المستمرة للأصنام المحدودة الزمان.

- ٣ -

قصة: (الفيل) وردت في القرآن والسنة، مثالاً على أن الله قد يؤاخذ في الدنيا. فصارت مثلاً من جملة الأمثال القرآنية، التي تتظافر على أن الله يمهل ولا يهمل، حتى إذا أحاطت بقوم سيئاتهم، جاءت ضرباته عارمة ماحقة. كقصص: قوم عاد، وقوم ثمود، وأصحاب الرّس، وقوم نوح، وقوم سبأ، وقروناً بين ذلك كثيراً...

وقد تذكر قصة الفيل، مثالاً على أن الله ـ تعالى ـ يحمي بيته الحرام، وسائر مقدساته، ولو بالطرق المعجزية.

وقد تذكر دليلاً على علم عبد المطلب، بأن الله سيهلك جيش (أبرهة)، فلم يكلف نفسه الدفاع عن الكعبة، واكتفى بالدفاع عن إبله.

وقد تذكر دليلاً على عظمة عبد المطلب عند الله، عندما لم يخيب أمله، فلم يهمل كلامه الذي كان كالدعاء، رغم أنه لم يكن دعاءاً بالمعنى الدقيق.

وسواء أكان كل ذلك ـ أو بعضه ـ صحيحاً أو لم يكن، فإني أتصور:أن أصل القضاء على جيش (أبرهة) كان إرهاصاً لميلاد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في جملة الإرهاصات التي سبقت ميلاده الكريم ـ لإشعار الناس بأن الله يستوعب حوادث الأرض، ويهيمن عليها: فيترك ما يشاء انتهاءه إلى أجله، ويقضي على ما يشاء القضاء عليه. وليس الإرهاص إلا تذكيراً بأن الإرادة الإلهية، التي جعلت للكون نظاماً شاملاً، لم تفقد سيادتها على الكون ونظامه، ولم يأخذ النظام السلطة منها، وإنما هي ـ لا تزال ـ صاحبة السيطرة

المطلقة، من تمرير النظام واختراقه.

فلم يكن صدفة ميلاد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في عام الفيل، وإنما كان إرهاصاً بميلاد الميمون. ولــولاه: فكم من قوم طغــوا وبغوا، ولم يعجل الله عليهــم بالعذاب؟! وكم من مــرة تهدمت الكعبة بفعل الســيول، أو هدمها الملحدون أو المســلمون، ولم يحم الله بيته الحرام؟! وكم من دعاء انفجرت به أعماق نفس عبد المطلب، فما اســتجاب الله له؟! ولكن تحقق كل ذلك، عندما اقتضت الحكمة الإلهية، أن تجدد عهد الناس، وتذكرهم بأن الإرادة الإلهية ـ لا زالت ـ تمارس ســيادتها وعنايتها على الأرض. حتى لا يفاجأ الرأي العام. بنبوة النبي (صلى الله عليه وآله وســلم) الذي ســيبعث بعد فترة من الرســل، بل يبقى متوقعاً لمفاجآت السماء، وفي أي وقت... وفي أية مناسبة.

(١٠٧)

سورة الماعون

مكية وهي سبعة آيات

المسلم والمتأسلم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ: الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ؟

فَذلِكَ:

الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ

وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ:

الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ

الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُنَ.

وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ. (٢٢٤).

... وبعد أن قربت ـ يا محمّد! ومن وراءك المسلمون ـ من نهاية القرآن، لا بد أن نعرفك على المصدق بالدين تصديقاً واقعياً، وعلى المكذب بالدين تكذيباً واقعياً. فأمامك الآن جماهير المسلمين: كلها تردد أصداءك، وكلها تنفذ أقوالك. ولكنهم لا يقفون موقفاً واحداً أمام الدين.

فهنالك: من ملكه الدين، فهو يتصرف به في خطه.

وهناك: من اتخذ الدين ليتصرف به في مصلحته، فهو يلتزم إذا كان لحسابه، ولا يلتزم به إذا كان على حسابه، فلا يأخذ بالدين كله، وإنما يأخذ ببعضه ويترك بعضه، فيما الدين كل لا يتبعض: فإما أن يؤخذ به كله، وإما أن يترك كله. والذي يأخذ ببعضه دون بعض، مكذب به، وليس مصدقاً له.

(أَ رَأَيْتَ) يا محمّد ـ ومن خلالك المسلمون ـ أ رأيت: (الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ) تكذيباً عملياً، مهما كانت تظاهراته وادعاءاته؟! أتريد أن تراه؟ سنريك نماذج منه، (فَذلِكَ الَّذِي) يكذب بالدين أقسام:

١ـ الذي يقبل الدين شعارات وعبادات: فيصلي، ويصوم، ويحج... ولكن إذا وصل أمير الدين إلى دفع المال، لا يقبله، فهو بخيل بمعروفه. وإذا أمر بإيواء اليتيم وتكفله، لا يؤويه، ولا يكفله، وإذا سعى إليه اليتيم طالباً منه حقه، لا يدفعه إليه، بل (يَدُعُّ الْيَتِيمَ) دعّاً، فيدفعه على عقبيه دفعاً قوياً.

٢ـ الذي لا يبخل بمعروفه فحسب، وإنما يبخل بمعروف الآخرين، فلا يشجع غير على إطعام المساكين. بل إذا ذكر المساكين عنده، بخل الآخرين عليهم، فذكر: كذبهم، وغناهم، وما يقزز عنهم... حتى لا ينفقوا عليهم، خشية أن ينفق الآخرون فيعذبه ضميره، أو يعذبه مجتمعه، فيعتبره متخلفاً عن الخير، ويضطر إلى الإنفاق. فلا يكتفي بامتناعه هو عن إطعام المساكين، (وَ) إنما (لا يَحُضُّ) غيره (عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ).

وهذان النموذجان يقفان في صف واحد: فهما يقبلان الدين صلاة، ويرفضانه زكاة.

٣ـ الذي يقبل الدين ترفاً كمالياً، ولا يقبله ضرورة حياتية. فهو يريده تسلية تريح ضميره من كابوس الحياة كلما شعر بالإرهاق، ولا يريده نظاماً إلزامياً يقطع عمله كلما حان وقته. وهذا النمط من المتدينين،

لهم ويل من دينه: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ: الَّذِينَ هُمْ ـ عَنْ صَلاتِهِمْ ـ ساهُونَ) فهم من المصلين، ولا يترددون في الإيمان بالصلاة، وفي أي إيمان يسبق الإيمان بالصلاة، ولا يتركون الصلاة تركاً كلياً، وإنما لا يلتزمون بها، ويعتبرونها من الثانويات التي لا تستأثر باهتمامهم، فيسهون عنها كثيراً، ككل شيءٍ لم يهتم به الإنسان.

٤ـ الذي يريد الدين وسيلة للدنيا، لا هدفاً من الدنيا: فإذا رأى الدين مكسباً يشتري به عواطف الناس، أو يخطب ودهم واحترامهم، سارع إليه، مهما كلفه الأمر. وإذا وجد شيئاً من الدين لا يؤدي إلى الشهرة، ولا يكسب وجاهة، أعرض عنه، مهما كان بسيطاً. وهذا النمط من الناس مراؤون، الذي يعملون للناس لا لله: (الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ) بخيراتهم، فيعملون الكثير... الكثير... إذا وجدوه متجراً، (وَ) إذا لم يجدوه متجراً (يَمْنَعُونَ الْماعُونَ) عن جارهم إذا طلبه موقتاً، للاستعانة على حاجته البيتية.

وهذان النموذجان يقفان في صف واحد: فهما يقبلانه ترفاً ومربحاً، ويرفضانه نظاماً جاداً.

وهذه النماذج الأربعة ـ كلها ـ تكذب بالدين. فالدين: نظام متكامل لا تبعيض فيه، ونظام جادّ لا يمكن إهماله أو الاتجار به.

فالذي يريد الدين عملاً آخروياً يكذب بالدين، والذي يريد الدين عملاً دنيوياً يكذب بالدين. فلا آخرة على حساب الدنيا، ولا دنيا على حساب الآخرة.

المراؤون أيضاً

الذين يراؤون، لا يتحركون بطاقة الإيمان في اتجاه الله. وإنما يمغنطهم إغراء، فيتحركون نحو مصدره، فهم يتكسبون بالعمل ـ الذي يشبه العمل الديني في هيكله، لا في جوهره ـ فلهم ما اكتسبوا به من الدنيا التي تحركوا إليها، لا الآخرة لأنهم لم يتحركوا نحوها. وربما اكتسبوا إثماً، لأنهم خدعوا الرأي العام بعملهم المزيف، فابتزوا منه ما تحركوا نحوه. وتبسيطاً: يمكن اختصار الفرق بين من يعرض بضاعة خالصة ومن يعرض بضاعة مزيفة، فالأول يستوفي ثمنه حقاً والثاني يطارده العقاب.

والمراؤون ـ دائماً ـ لا يتحركون بطاقاتهم الداخلية، وإنما يتحركون بطاقات غيرهم، حتى تموت طاقاتهم مع التوغل في الرياء، فيكسلون في السر عما ينشطون له في العلن.

وضرب القرآن مثلاً من أبرع المرائين، فهم: الذين يراؤون بالمثاليات في هندسة تصرفاتهم، وإذا وصلوا إلى الجد، تنكبوا عن أدنى الأعمال، حتى يمنعون الماعون عن جارهم، الذي يطلب التعاون في أبسط

شؤونه البيتية.

(١٠٨)

سورة الكوثر (عليها وذريتها السلام)

مكية وهي ثلاثة آيات

(١٠٩)

سورة الكافرون

مكية وهي ستة آيات

(١١٠)

سورة النصر

مدنية وهي ثلاثة آيات

نصر اللّه يستتبع التسبيح، والاستغفار

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْواجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً)(٢٢٥) .

-١-

أحرز النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ قبل الهجرة ـ انتصارين إيمانيين (أو سياسيين) هما:

١ـ انتصاره بإسلام (النجاشي) ملك (الحبشة)، على أثر توجيهه رسائل إلى (ملوك الدنيا) يدعوهم فيها إلى الإسلام. فاستجاب (النجاشي)، وأرسل إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هدايا كثيرة، مشفوعة برسالة جوابية أعلن فيها إسلامه ووقوفه إلى جانب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). وإذ لم يجد ـ في مركزه السياسي ـ ما يؤمن له النجاح إذا تصدى دينياً، في الوسط الأفريقي الذي كان يتذبذب ـ يوم ذاك ـ بين الوثنية والمسيحية، لم يعلن إسلامه لشعبة. إلا أن مجرد إسلامه ووقوفه إلى جانب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، كان انتصاراً باهراً.

٢ـ انتصاره بإسلام (الأنصار)، الذين وجهوا وفداً منهم إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في مكة ـ ذاهباً من المدينة ـ ليعلن إسلام أعداد كبيرة من أهل المدينة، ويستقدم مبعوثاً خاصاً من قبل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام. فأرسل إليهم النبي (مصعب بن عمير). فعاد ـ في العام القابل ـ إلى مكة على رأس وفد كبير، يعلن إسلام المزيد من أهل المدينة، ويدعو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الهجرة إلى المدينة إذا لزم الأمر.

هذان الانتصاران شكلاً للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عمقين بشريين ضمن قاعدتين في الحبشة وفي المدينة. فكانت للمسلمين هجرة إلى الحبشة بقيادة (جعفر بن أبي طالب) (عليه السلام)، ثم كانت للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هجرة إلى المدينة. وإذا كانت قاعدة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الحبشة عمقاً غير طبيعي ، لبعد الحبشة عن مكة، فلقد كانت قاعدته في المدينة عمقاً طبيعياً، لقربها من مكة.

ومقابل هذين الانتصارين، جوبه بثلاث مؤامرات:

الأولى: مؤامرة(المقاطعة) الصارمة. التي أعلنها أهل مكة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والمسلمين جميعاً، وكتبوا بها (الصحيفة الملعونة) التي علقوها بسقف الكعبة، من الداخل. وقد أدت هذه المؤامرة إلى لجوء النبي والمسلمين إلى (شعب أبي طالب) لمدة ثلاث سنوات حتى أكلت الأرضة (الصحيفة الملعونة) ما عدا (بسم الله)، وأخبر جبرئيل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بذلك، فأعلنه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) دليلاً جديداً على صدق نبوته.

الثانية: مؤامرة (المضايقات) اللا إنسانية، التي أدت إلى هجرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى (الطائف). غير أن أهل الطائف تحاموه، خشية أن يثير اعتداءهم عليه حفيظة (قريش)، فأغروا به الأطفال والسفهاء ليستقبلوه بالأشواك والأحجار، فعاد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من الطائف ورجلاه تشخبان دماً.

الثالثة: (المؤامرة الكبرى)، التي اشترك فيها (أربعون قبيلة) ـ بما فيها قريش ـ ممثلة بأربعين رجلاً من أسراتهم، وأجمعوا أن يفتكوا ـ جميعاً ـ برسول الله، حتى يهدروا دمه بين القبائل، وطوقوا دار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ليلاً، وحددوا ساعة صفر تتفق من انطلاقة السهم الأول من أسهم الفجر في الفضاء. وتجمعت عقارب الساعة على الصفر، لتجمع حياة (الجزيرة العربية) كلها، وتضعها في ملفّ كتب عليه: (الجاهلية، ليحفظ كأسوأ ملفّ في التاريخ. وقد أدت هذه المؤامرة البشعة إلى (هجرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)) ـ نهائياً ـ من مكة، وطبعت مكة المكرمة ـ وهي: أم القرى التي دحيت منها الأرض، وأرضية الكعبة، والبلد الحرام ـ بأسوء ما طبع أهل مدينة مدينتهم، وكتب الله عليها إلى الأبد:

(قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ)(٢٢٦).

أما بعد الهجرة، فقد أحرز النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انتصارين إيمانيين (سياسيين) لعلهما أبرز انتصاراته، هما:

١ـ انتصاره بـ(صلح الحديبية)، حيث جلست معه (قريش) ـ لأول مرة ـ على مائدة مفاوضات، واعترفت به ـ عملياً ـ قوة لا تقهر ـ وأعطته شروطاً كلها كانت ضدها ولصالحه، وإن لم يفهمها أكثر المسلمين في بادئ الأمر، حتى قال أحدهم: (ما شككت في نبوة محمّد إلا يوم الحديبية). ووقع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وثيقة، غير مبالٍ باستنكار أكثر المسلمين. وكشفت السماء جانباً من الستار عن الواقع الذي رآه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يره المسلمون:

(إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)(٢٢٧).

وتابع التاريخ ضوء القرآن، فوضع الدليل تلو الدليل على أن (صلح الحديبية) من أبرز انتصارات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

٢ـ انتصاره بإسلام (أهل اليمن)، حيث أعلن شعب كامل إسلامه بلا قيد ولا شرط، وأعلن خضوعه المطلق لأوامر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإسلام أهل اليمن ـ بلا قتال ـ كان يعني الكثير... الكثير... لأسباب:

الأول: أن الإسلام بعد أن كان يعرف ـ من قبل أهل مكة ـ تمرداً موضعياً، أصبح ديناً أممياً يضم أكثر من شعب. وأن المسلمين بعد أن كانوا ـ بالفعل ـ كمية بشرية مضطهدة ـ أو محاربة في مدينة صغيرة ـ ، أصبحوا أمة لها امتدادات في أكثر من بلد.

الثانـــي: ـ إن اليمن ـ باعتبارها العمق الطبيعي للحجاز ـ كســـرت الطوق عن المســـلمين، فأصبح في إمكانهـــم طلب النجدة من اليمن أو اللجوء إليها، بعد أن كانـــوا مطوقين داخل المدينة المنورة، ومعزولين عـــن العالم، حتى اضطر النبي (صلى الله عليه وآله وســـلم) إلى أن يخندق حـــول المدينة لما تحالف عليه المشركون في (حرب الأحزاب).

الثالث: اتصال اليمن بـ(الحبشـــة)، جعلها عمقاً طبيعياً للمدينـــة، بعد أن كانت عمقاً غير طبيعي بينهما البحر، فأصبحت البلاد الإسلامية سلسلة متصلة الحلقات.

الرابع: أن مكة ـ لفقرها المادي ـ كانت ممدودة اليدين إلى الدنيا لتعيش يداً إلى الشـــام، ويداً إلى اليمن. فلما أسلمت اليمن قطع يمينها، فلم يبق أمام مكة سوى رحلة الصيف إلى الشام. وبقي في استطاعة المدينة أن تقفل خط الشـــام، لتحكم الحصار على مكة حتى الاستسلام. وحتى لو لم تقطع هذا الخط، فماذا عسى تجني الرحلة الواحدة، لتأمين حياة مدينة ســـنة كاملة؟! فإســـلام اليمن أحكم الحصار على مكة، بمقدار ما فك الحصار عن المدينة.

ـ ٢ ـ

هذه الســـورة نزلت بعد انتصار النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وســـلم) على أهل مكة في (فتح مكة). وكان انتصار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الغزوة انتصاراً استراتيجياً:

١ـ لأن قريش ـ بتراص صفوفهم نتيجة القربى بينهم، ووحدة كلمتهم، وحاجة الناس إلى (الحج) في مكة التي كانت تحت ســـيطرتهم، وصفتهم الدينية باعتبارهم سدنة (الكعبة)، وسعة مكة باعتبارها (أم القرى)، وشجاعتهم الموروثة والتاريخية، وكونهم في سلالات (الأنبياء)، وعوامل أخر كثيرة ـ كانوا يشكلون محوراً في الجزيرة العربية) كلها. فكان أي انتصار يحرزه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، جانبياً وغير حاسم ما دامت مكة تحت سيطرة قريش.

٢ـ لأن قريش كانوا أقرباء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وعدم اعترافهم بدين محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يعني أنه ليس الدين الحق، وإلا لكان أقرباء صاحب الرسالة أولى بالإيمان به.

٣ـ لأن قريش ـ بما كان لديهم من معنويات ثقافية وعلمية ـ كانوا: الدليل على صحة ما يعتقدون، ودليل الشك فيما لا يعتقدون.

فكانت قريش تمثل الجبهة الداخلية للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم): التي ما لم يسيطر عليها تكون سيطرته على سائر الأفراد والقبائل غير راسخة، وكانت سيطرته عليها دليل رسوخ رسالته وحكمه.

وفي هذه السورة توجيهات تربوية: ـ

١ـ (نَصْرُ اللهِ). فالنصر الذي يحرزه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس نصره، وإنما هو نصر الله:

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ، وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(٢٢٨) فهو وديعة الله وأمانته، لتركيز معاني العدل في المجتمع. وليس مكسباً لفرد أو لمجموعة، يبررون به التنفيس عن أحقادهم. فيلزم أن يكون هذا النصر، مدعاة للتسبيح.

٢ـ إن عزة النصر ليست في محلها، فهو نصر الله، الذي لا يدعو إلى شعور أي فرد بالاعتزاز. بما أنك ـ يا محمّد! ـ لا يملكك مثل هذا الشعور، فإنه لا يليق بمثلك فاستغفر الله تواضعاً لله:

(وَاسْتَغْفِرْهُ، إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً).

ولذلك: دخل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مكة مطأطئاً مستغفراً، ثم لم يبطش ولم ينتقم، وإنما عفى عمن أساء وأجترم.

وهذه... نقطة يجدر بنا الوقوف عندها قليلاً، لأنها تلقي الضوء على عمق من أعماق الإنسان.

فالمؤمن الذي يلتزم بمقتضيات إيمانه في الحالات الاعتيادية، لا يعرف مدى إيمانه. وأما المؤمن الذي لا يفقد توازنه الإيماني في الحالات الانفجارية، فهو المؤمن العميق الذي يدل على تأصل الإيمان في أغواره.

وهذه الحالات هي:

حالة الفرح: (إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْواجاً ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً).

وحالة الغضب: (وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ، أَنْ تَعْتَدُوا)(٢٢٩).

وحالة الخوف: (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، وَلَتَسْمَعُنَّ ـ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ـ أَذىً كَثِيراً. وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا، فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ)(٢٣٠).

وحالة الرضى: (قُلْ: (إِنْ كانَ آباؤُكُمْ، وَأَبْناؤُكُمْ، وَإِخْوانُكُمْ، وَأَزْواجُكُمْ، وَعَشِيرَتُكُمْ، وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها، وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها، وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها، أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ: اللهِ، وَرَسُولِهِ، وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ. وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ)(٢٣١).

فهذه الحالات هي حالات الابتلاء، التي تكشف عن مدى عمق الإيمان في الفرد، ولذلك: ركز القرآن على التذكر بها.

ـ ٣ ـ

هذه السورة نزلت بعد (فتح مكة).

وكان لفتح مكة أكثر من دلالة، في حياة الرسالة والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم):

إن مكة تشبه عاصمة (الجزيرة العربية)، ففتحها يعني فتح الجزيرة كلها. بينما الفتوحات الأخرى فتوحات موضعية لا تعني شيئاً، طالما مكة محتفظة بواقعها المحارب للرسالة والرسول.

إن مكة قاعدة (الأصنام)، ففتحها يعني تحطيم الأصنام، وإعلان أنها لا تنفع ولا تضر.

إن مكة موطن (قريش)، وقريش تعني الجبهة الداخلية، والعمق الأول للرسالة، فإذا كان الإسلام عاجزاً عن التأثير على جبهته الداخلية وعمقه الأول، فمحاولاته للتأثير على الجبهات الخارجية والأعمال البعيدة، محاولات غير متداعمة، وتشبه الطفرة التي لا تعني تقدماً أو توسعاً.

(إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ).

فالنصر ليس لفرد بطاقاته وجهوده، وإنما هو نصر الله الذي جاء من عند الله لفرد أو لمجموع. لينسلخ الأفراد من (غرور النصر) الذي يخف بهم ـ عادة ـ عندما يتصورون أنهم فعلوا شيئاً، فهم لا يفعلون شيئاً عدا إعداد المقدمات:

(وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)(٢٣٢) فعليهم أن يسبحوا بحمد الله، شاكرين على (نعمة النصر) التي آتاهم. وعليهم أن يستغفروا ـ سلفاً ـ من (نشوة الغرور) التي تخف بهم ـ عادة ـ فتورطهم في أعمال لا مبرر لها.

وهذه السورة المباركة، من السور التربوية العميقة، التي توجه إلى الله في لحظة العتو والخروج على كل القيم الفكرية والضميرية، اعتماداً على (النصر) الذي يمني (الفاتحين) بأمنيات تشبه أمنيات السكارى، حتى لا يخرج (الفاتح) عن طوره، ولا يرتكب الأعمال العفوية، ولا تطيش (نشوة النصر) إلى اضطهاد الأبرياء والأبرار.

لماذا كان يستغفر النبي ‹صلى اللّه عليه وآله وسلم›؟

(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)(٢٣٣) .

ربما يستفاد من مجموع ما ورد في الآثار الصحيحة حول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما يلي:

سبِّح وكذلك استغفر، لأن جسمك لا يساعد على مجاراة روحك في عبادة الله ـ تبارك وتعالى ـ ، رغم أن جسمك مطواع إلى حد (العصمة الكاملة) حتى من رذاذ الهفواة في أمور الدنيا ولكن بطبيعته الجسمانية ـ يبقى أقل تسبيحاً من روحك. فاستغفر من الضعف الجسماني، وإن كنت متألماً من ضعف جسمك، لأن الضعف يعذر. ولكن يليق بك أن تعتذر عما لا يليق بمستوى روحك، تكميلاً للعبادة القاصرة التي لا يستطيع جسمك تكميلها أداءً.

ولذلك روي في الحديث: كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يستغفر بعد كل صلاة ثلاث مرات.

وعليك: أن تستغفر من انصرافاتك الجسمانية، فلا يليق بمثلك ـ وأنت في أعلى درجات المعرفة ـ إلا أن نتصرف إلى العبادة كلياً. فإذا انصرفت إلى تلبية حاجات الجسد، عن عبادة الله، فتراتٍ من الوقت: كالنوم، والأكل...، فعليك أن تستغفر منها وإن كان ينبغي عليك أن تلبي حاجات الجسد أيضاً، ولا يجوز لك إهمالها، إلا أن هذا الانصراف ـ نتيجة ـ يدعك في حالات لا تليق بروحك. فلا بد من الاستغفار عنها، وإن كنت معذوراً فيها. ولكن لا بد من الاستغفار: عودةً إلى مستواك الروحي، وتجميلاً لمواقفك المفروضة عليك غير الملائمة لمستواك الروحي، ولذلك روي في الحديث: كان النبي يستغفر كل يوم سبعين مرة ـ بغير ذنب ـ وربما زاد.

(١١١)

سورة المسد = تَبّت = اللهب

مكية وهي خمسة آيات

المفسدان أبو لهب وحمالة الحطب

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ * سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)(٢٣٤) .

التيـــارات المائية والهوائية التي تتحرك في البحر والجو، لا ترصد ـ لاتخاذ الموقف منها ـ بأحجامها في منطلقاتها، وإنما ترصد بمدى الزخم الذي ورائها من جهة، وبمدى الحاجة إليها في مسارها من جهة أخرى. والتيـــارات الاجتماعية لا تقاس قوّتها بحجم من يحركها، وإنما تقاس بفاعلية العوامل التي دفعت إليها من جهة، وبمدى استجابتها للحاجات المعطلة.

وعندما تحرك تيار الإســـلام، قدّره (أبو لهب) بحجـــم ابن أخيه اليتيم الفقير، فأخطأ. وتصور أن العامل الذي دفع فراغاً اجتماعياً من فراغاته فحسب، فأخطأ. ولم يعط لنفسه فرصة التفكير في ذاتيات التيار ومدى تجاوبه مع الحاجات المعطلة، فأخطأ خطأ ثالثاً. وهذه الأخطاء المكررة، دفعت به إلى ارتجال موقف سلبي من الإســـلام، تصاعد بتصاعد الإسلام، حتى أصبح أبو لهب أصعب العقبات في طريق الإسلام في فترة ما قبل (الهجرة).

ولم يكن لأبي لهب دافع إلى موقفه ذاك، سوى أنانيته التي تسوّل له حصر أطراف (الزعامة الهاشمية) فيه وفي أخوته، ووأد مفاجأة ابن أخيه، حتى لا يســـتعلي عليهم. فتطاول تيار الإسلام الجارف، وسحق ـ فيمن ســـحقه ـ أبا لهب: فخسرت جهوده، حيث لم يستطع وأد الإسلام، والاستئثار بالزعامة الهاشمية، وإبعاد ابن أخيه عنها. وخســـر هو، حيث لم يحظ بشـــرف الإسلام، وذهب ضحية أنانيته. وجاء (الوحي) ليسجله عبرة لكل الأنانيين الذين يحاربون الحق لتأمين مصالحهم، ورددت الأجيال: (تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ) وخسرت جهوده المضنية التي جندها ضد الإسلام، و(وَتَبَّ) هو نفسه، فذهب ضحية رخيصة على مذبح الأنانية.

وكان التعبير بـ (اليدين) رمزاً إلى الجهود، وأبلغ تجسيد لها. لأن أكثر الجهود يمارس باليدين، ولأن التصوير الفني يقضي بتمثلها، كما يقال: خسرت الصفقة، وفشلت أياديه.

وأبــو لهب هذا، هو (عبد العزى بن عبد المطلب) عمّ النبي. وكنّاه القرآن كراهة الاعتراف باســمه، لأنه باطل. فهو ـ في الواقع ـ عبد الله، وإن أسموه عبد العزى.

وإعداداً للآية التالية، فكنيته بأبي لهب، يهيئ الأذهان للبحث عنه في نار ذات لهب. كما تكنية فرد بأبي الخير يهيئ الأذهان لتلقي أخبار خيرة عنه، وتكنيه آخر بأبي الشر يؤدي إلى التوجّس من شروره.

وقيل: كانت كنيته ـ بالفعل ـ أبا لهب. وأطلقوا عليه هذه الكنية، لأنه كان أبيضاً مشرباً بحمرة، حتى كأنه شعلة مضطرمة، وكأن ألسنة اللهب تتموج في وجنتيه.

فأبو لهب، هذا الرجل الذي جمع الله في وســائل الخير ـ فآتاه المال الغزير، والنســب الرفيع، والمجد التليد، والأولاد الكثار ـ ما اســتطاع أن يســتفيد منها خيراً، فانقلبت عليه شــراً، وكان كأرض المستنقع لا تتفاعل مع المعصرات، وإنما تفسدها وتتحول معها إلى بؤرة للأوبئة والحشرات. فـ(ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ) الذي درّه الله عليه، (وَ) لا أغنى عنه (ما كَسَبَ) من: عريض الجاه، وأشدّاء البنين.

ورغم توفر هذه المؤهلات التي كانت جديرة بتأمينه وتخليده، خســر، وخسر كل شيء. فخسر جهوده، وخسر نفسه. ولم يخسرها في الدنيا فحسب، وإنما خسرها إلى الأبد. فـ(سَيَصْلى) وسيدخل (ناراً) مشتعلة (ذاتَ لَهَبٍ) خالداً فيها. ولم يخســر طاقاته ونفســه في الدنيا والآخرة فقط، وإنما جرّ الويلات على قرينته (أم جميل)، بنت حرب، أخت (أبي ســفيان)، فســيدخل النار هو (وَامْرَأَتُهُ) أعنــي: (حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) التي كانت تحمل الشوك والعضاة، فتطرحها على طريق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ليعقره إذا خرج في حاجة، فتخرج و(فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَــدٍ) ـ وهو ليف النخل ـ لتحمل به الحطب. متناســية مكانتها باعتبارها بنت (حرب) وأخت (أبي سفيان) وزوجة أبي لهب. فكانت تتواضع في مكانتها الرفيعة إلى مكانة حمالة حطب عادية، وتضع في جيدها حبلاً من ليف بدلاً من القلائد الثمينة، استرســالاً مع حقدها الأســود على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وهذا الإســفاف منها كان ملفتاً للأنظار بشــكل حــادّ، حتى كانت صفة (حمالة الحطــب) أبرز صفاتها المثيرة.

وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وعكرمة، والســدي: (أنها كانت تمشــي بالنميمة بين الناس فتلقي

بينهم العداوة، وتوقد نارها بالتهييج كما توقد النار الحطب، فسمي النار حطباً). وقال سعيد بن جبير، وأبو مسلم: (حمالة الحطب، معناه حمالة الخطايا، ونظيره قوله تعالى:

(وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ)(٢٣٥).

وقيل: المراد من الآيتين الأخيرتين، أنها ستتمثل في النار يوم القيامة بهيئتها التي كانت تتلبس بها لحرب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهي هيئة امرأة على ظهرها أكدس من الشوك وفي جيدها حبل من مسد مشدود به الشوك المتراكم على ظهرها.

وعلى هذا... تكون (حمالة الحطب) منصوبة باعتبارها حالاً، أي: وامرأته تدخل النار حال كونها حمالة الحطب.

ولعل الأحاديث التي تدل على أن أصنافاً من المذنبين ـ أو كلهم ـ يعذبون يوم القيامة بالهيئات التي تقمصوها ملبسين بذنوبهم في الدنيا، تدعم هذا القول.

وقد يكون من الإيضاح التوقف بعض اللحظات على نقاط تبرز في ضوء هذه السورة.

الأولى: إن هذه السورة أعلنت ـ يوم تبليغ قريش ـ : أن أبا لهب وزوجته من أهل النار. والإعلان عن مصير رجل وامرأة في ذلك الوقت المبكر، رغم تصاعد الإسلام، وتوقع دخول قريش كلهم في الإسلام أيماناً به، أو تحيزاً للنبي القرشي في سير الاحتكاكات القبلية، لا يكون إلا عن علم بالمستقبل. وهذا... من أنباء الغيب، التي تدل على صدق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والقرآن. وبالفعل: بقي أبو لهب ألدّ أعداءِ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإن كان قد تراجع بعد وفاة (أبي طالب) وانبرى للدفاع عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عدة أشهر عصيبة، إلا أنه ما لبث أن عاد إلى حرب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). وأخيراً: مات هو زوجته على الكفر.

الثانية: تساؤل يتردد على ألسنة عديدة، أمام الاختبارات الغيبية بالمصير الأسود للظالمين. ويصاغ السؤال أمام هذه السورة، بالشكل التالي:

بعد إعلان القرآن أن أبا لهب سيصلى ناراً ذات لهب، هل بقي مكلفاً بالإيمان؟ ولو آمن، ألم يكن تكذيباً للقرآن؟ ولو آمن، هل كان سيدخل الجنة؟

وبما أن هذا السؤال يكثر ترديده، وفي كثير من المحاورات، يجدر بنا منحه بعض الوقت. ويمكنه الإجابة عليه بأربعة أجوبة.

الجواب الأول: إن قضاء الله مبني على اختيار الإنسان ـ في جانبه التشريعي ـ ، كما أن قضاء الله مبني على جبر الإنسان ـ في جانبه التكويني ـ . لأن الله هو الذي أوجد عوامل الكون بقدر وحركها بنظام، فنظمها بشكل يتفق مع إرادته العامة. وبما أنه أراد تكليف الإنسان، أطلق له الحرية بمقدار ما أراد تكليفه.

فهو ـ في هذا المجال ـ يقضي وفق ما تؤدي إليه العوامل المختلفة زائداً اختيار الإنسان، ولا تناقض بينها مطلقاً لأن قضاء الله، والعوامل المختلفة، واختيار الإنسان، كلها صادرة من إرادة واحدة هي إرادة الله تعالى: فكلها متناسقة مع بعضها ـ في الجانب التشريعي من الإنسان ـ بلا تزاحم. كما أن قضاءه والعوامل المختلفة، بعيدة عن اختيار الإنسان، تتناسق ـ في الجانب التكويني منه ـ بلا تزاحم.

فقضاء الله بأن أبا لهب سيدخل ناراً ذات لهب، لا يزاحم العوامل الفكرية والاجتماعية التي توجهه إلى هذه النتيجة، ولا يزاحم حريته في اختيار هذا المصير.

الجواب الثاني: إن العلم ليس من المؤثرات. فالعلم بأن الإنسان المعين سيعمل خيراً أو شراً، لا يساوي إلزامه به وجبره عليه. وحتى نتبين هذه الحقيقة بوضوح أكثر، علينا أن نتأكد من الأمور التالية:

١ـ طبيعة علم الإنسان بالأشياء السابقة طبيعة انعكاسية، فنتطبع القضايا التي وقعت ـ في السابق ـ في ذاكرة الإنسان كما تنطبع المشاهد في المرآة أو في الفيلم. وهذا النوع من العلم، تأثر بالحادث وليس مؤثراً فيه.

٢ـ طبيعة علم الإنسان بالأحداث المستقبلية، طبيعة استنتاجية كعلم (المعلم) بأن هذا الطالب سينجح في نهاية السنة، وذلك الطالب سيرسب في نهاية السنة، استنتاجاً من اجتهاد هذا الطالب في دروسه وإهمال ذلك الطالب لدروسه، وهذا النوع من العلم، تأثر من المقدمات التي ستسفر عن الحادث عادة، فليس مؤثراً في الحادث.

٣ـ طبيعة علم الله بالأحداث الماضية والحضارة والمستقبلية، طبيعة حضورية كعلم الإنسان بمقلته، رغم أنه يرى بها ولا يراها. وكعلم الإنسان بجسمه رغم انه لا يراه في ذات اللحظة التي يفكر فيه، لأنه مستور بملابسه ـ مثلاً ـ . فمعنى علم الله ـ تعالى ـ بالأشياء، حضورها لديه.

فالأشـــياء كلها حاضرة عند الله بالاستمرار، كيفما كانت بالنســـبة إلينا: ماضية أم حاضرة أو مستقبلية. لأن الزمـــان ـ ســـواء أكان ناتجاً من حركة الكواكب كما يقول الفلاســـفة، أو كان البعد الرابع للأشـــياء كما يقول أينشـــتاين ـ فإنه يقسم الأشياء بالنسبة إلينا: إلى: ماضية وحاضره ومستقبله. لأن الزمان فوقنا على رأي الفلاسفة، ومتصل بنا على رأي أينشتاين. فهو يتحكم فينا، فهو إسم لصفة من صفاتنا هي تدريجيتنا نحن في الاستيعاب، وليس اسماً لشيء مستقل خارج الإنسان. بينما الله فوق الزمان ومحيط به، فلا يوجد بالنسبة إليه: ماض وحاضر ومســـتقبل. وحتى ولو كان الزمان جســـماً قارًّا أو مستقلاً ـ كما يقول بعض الفلاسفة ـ لا يعدو أن يكون جارياً تحت إرادة الله.

وبالتبع تكون الحياة كلها حاضرة عنده. فمثلاً: زيد جنيناً، وطفلاً، وشاباً، وشيخاً، وميتاً، ومحشوراً يوم القيامة، ومعذباً في النار أو منعماً في الجنة ـ كله، بكل مراحله، حاضر في عرض واحد. وإن كنا لا نستطيع أن نراه إلا في مرحلته المعاصرة لنا لضيق نافذتنا إليه، لا لأنه متفرق، فهو مجموع بكله في الواقع.

ويمكن التنظير لذلك: بأن فلماً صور مصارعة من عشـــرة فصول، ثم ابتدأ عرضه على الشاشة الصغيرة، والمتفرج لا يســـتطيع أن يرى ـ في أي وقت ـ إلا مشـــهدً واحداً من مشـــاهده، فيما المشاهد كلها مجموعة مع بعضها. ويمكن التنظير لذلك ـ أيضاً ـ : بأن رجلاً لو أطلّ من نافذة غرفته على الشـــارع، لرأى في كل لحظة ســـيارة واحدة من ألوف الســـيارات التي تجوب الشـــارع، فيما لو ارتفع فوق سطح بنايته وأطل على الشـــارع لرأى كل الســـيارات الموجودة في الشارع بنظرة واحدة. فضيق نافذته حدد رؤيته بسيارة واحدة في كل لحظة، وســـعة أفقه من فوق السطح مكنته من استيعاب كل تلك السيارات بنظرة واحدة، وفي الحالتين كانت السيارات تلك موجودة معاً في عرض واحد.

ولعل أبسط مثال يجسد وهمية الزمان: أنك لو دخلت غرفة على كل جدار من جدرانها الأربعة لوحة فنية، وأردت تصفحها، فإنك تستطيع ذلك تدريجياً بينما هي موجودة معاً.

مثال آخر: لو أردت مطالعة كتاب، فستقرأ كلماتها بالتتابع رغم وجود الكلمات مع بعضها.

هكذا... الأشـــياء كلها حاضرة عند الله باســـتمرار. وأما المراحل، فهي ـ في الواقع ـ مراحل وهمية. وأما الزمان فهو صفة من صفاتنا ينعكس على الأشياء ـ في تصورنا ـ ، كما أن لون النظارة ينعكس على المرئيات وهمياً.

من هذه المقدمات الأربع، يمكن استفادة أمرين:

الأول: إذا ثبت أن علم الله بالأشياء حضورها لديه، وإذا ثبت أن الزمان غير موجود بالنسبة إلى الواقع، وأن المستقبل والماضي معاصران للحاضر، فلا يمكن تخلف علم الله بالنسبة إلى المستقبل، كما لا يمكن تخلف علم الله بالنسبة للحاضر والماضي، لأنه يساوي تخلف الشيء عن واقعه، فحضور الشيء يساوي واقعه.

الثاني: إذا ثبت أن علم الله بالأشياء حضورها لديه، فإنه لا يؤثر فيها ولا يسلب منك الاختيار. كما أن علمك بمقلتك ـ أو بالدورة الدموية في جسمك ـ لا يؤثر فيها، وكما أن علم غيرك بحاضرك لا يسلب منك الاختيار.

إن وجود مستقبلك إلى جانب ماضيك، لا يعني فقدانك الحرية في إنجازه. كما أن وجود ماضيك. لا يعني أنك لا تفعله باختيارك.

ولعلنا نمثل لذلك ـ مع الاحتفاظ بالفوارق ـ : بأنه لو رافقك عقل إلكتروني منذ ميلادك، واستوعب كل نبضات خلايا دماغك، وكل المعلومات التي تساقطت إليك، حتى أصبحت شاعراً، وجلست تنظم قصيدة تؤبن بها أباك، وكان باستطاعة رفيقك الإلكتروني أن يقول كل القصيدة التي ستكتبها أنت، ولكنه صمت، وجلست أنت أسبوعاً حتى كتبت رائعة متفوقة، فهل هذه القصيدة عملك أو عمل رفيقك إلكتروني؟

ولعلنا نمثل لذلك أيضاً ـ مع الاحتفاظ بالفوارق ـ : بأنك لو أردت أن تقطع ميلاً من أرض رملية، ومشيت إلى منتصف الطريق، ثم ظهر شخص استطاع ـ بواسطة علم من المعلوم ـ أن يرسم على الرمل أمامك بدقة متناهية، بقية الخطوات التي ستخطوها أنت كما هي خطواتك مرسومة وراءك، فهمل يعني ذلك أنه هو الذي يمشي ولست أنت الذي تمشي؟

الجواب الثالث: مهما كانت كيفية انسجام قضاء الله مع العوامل الدافعة إلى عمل الإنسان، وكيفما كانت طبيعة علم الله بالأعمال المستقبلية، وسواء استطعنا أن نفهم مدى تأثير علم الله وإخباره على عمل الإنسان، فمما نشعر به ـ بوضوح ـ أننا لا نفقد اختيارنا في الأعمال، وأننا نتمتع بكامل حريتنا في الفعل والترك. وما دمنا نمارس الحرية المطلقة، فلا يعطل هذه الحرية عجزنا عن استيعاب المقدمات الطبيعية التي انتهت إلى هذه الحرية.

الجواب الرابع: إن الله العليم بكل المجريات المعقدة، أخبرنا بأنه أطلق للبشر حرية اتخاذ القرار، في العديد من آيات القرآن، فقال:

(إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ: إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)(٢٣٦)، (وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها، وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)(٢٣٧)، (مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكيلٍ)(٢٣٨)، (أَ نُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ)(٢٣٩)، (وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً واحدةً ولا يزالون مختلفين)(٢٤٠)...

وما دام الله ـ تعالى ـ أخبرنا بترك الحرية لنا فيما نعمل، فالمجريات كلها تنتهي إلى حريتنا، وإن لم نستطع تفسير تلك المجريات.

فلو أن أبا لهب سأل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قائلاً: (يا محمّد! لو آمنت بعد نزول سورة (تبّت) هل أدخل الجنة؟) لقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) له: (نعم، ولكنك بمحض إرادتك لن تؤمن). تماماً... كما لو أنه بعد موته سأل الله قائلاً: (يا رب! لو كنت آمنت بك في حياتي هل كنت ستدخلني الجنة؟) لكان جوابه: (نعم، ولكنك بمحض إرادتك لم تؤمن).

الثالثة: إن القرآن ـ باعتباره دستوراً عالمياً مستمراً إلى يوم القيامة ـ عليه أن يبقى محلقاً فوق مستوى البشرية جمعاء، لإصدار الأحكام الدستورية العامة، وأن لا يلتفت إلى الأفراد ـ ولا إلى الجماعات ـ بأسمائهم وتفاصيلهم إلا من خلال تقييم الأعمال، مهما كانت مواقفهم سلبية أو إيجابية، فكيف انعطف القرآن الكريم إلى أبي لهب وزوجته، وخصص لهما سورة كاملة؟!

ثم: ماذا كانت مواقفهما حتى أبرز القرآن بهذا الشكل الذي لم يبرز به أياً من خصومه، ولم تشفع لهما قرابتهما الحميمة من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقرابة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تعلو وتنمو، فيبقى حسبه ونسبه حيث ينقطع كل حسب ونسب؟!

والجواب:

أولاً: صحيح أن القرآن دستور، ولكنه ليس دستور نظام يكتفى منه بأن يكون مصدر قانون يحكم الناس بالقوة ومن فوق، وإنما هو دستور دين عالمي مستمر. فعليه أن يتميز عن جميع الدساتير بأن يكون مصدر نظام يتفاعل مع العواطف والعقول والأفكار، في ذات الوقت الذي يكون فيه مصدر قانون. ولا يستقي عالميته واستمراريته بالترفع عن الأفراد والجماعات، وإنما بانسجامه مع جميع الأذواق والمستويات، حتى يستطيع التفاعل معها والتأثير فيها.

ومن وسائل التأثير، استخدام الأحداث والأفراد الجماعات ـ القيمة في خطي: الخير والشر ـ مثلاً وعبراً. فلا يتردد القرآن في عرض الأحداث والأفراد والجماعات، والإكثار منها، وهو يعلن إصراره على هذا الموقف.

(إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِينَ)(٢٤١).

ثانيها: عندما أعلن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الإسلام، كان من الطبيعي والمتوقع أن يستجيب له (قريش) أو (بنو هاشم) ـ على الأقل ـ ، لأسباب عديدة ليس من أقلها:

١ـ عادة القبائل على التحيز لكل فرد منها، ومهما تدانى نسبه وتدنّت مؤهلاته، فكيف بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي تفتق عنه أرفع الأنساب، وتجاوبت فيه عليا المؤهلات؟

٢ـ التفاف كل أسرة وقبيلة وأمة حول نوابغها، وافتخارها بهم: إبتداءً من الأدباء والفرسان، ومروراً بالأبطال والكرماء، وانتهاءً بالقادة والزعماء. فهل يمكن أن تتفرق أسرة عن نبي يرفع راية عالمية، مهما تشاءم المتشائمون بها فإنها ستكون ـ على أقل تقدير ـ أعلى راية في منطقة البيارق القبلية القصار؟!

٣ـ مواهب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الشخصية: التي لقبته ـ على الألسنة الحداد ـ بـ(الصادق الأمين)، وجعلت من اليتيم الفقير (حكماً) تصالحت عليه القبائل المختلفة حول أقداس أمجاداً وهو الولاية على تنصيب (الحجر الأسود) في الكعبة(٢٤٢).

٤ـ معرفة قريش ـ وخاصة بني هاشم ـ به (نبياً عظيماً) على ألسنة (أحبار اليهود) و(رهبان النصارى)، الذين كانوا يبشرون به قبل ميلاده وحينه وبعده، ويعرفونه بالإسم والشخص والمواصفات والأحبار والرهبان كانوا معروفين ـ لدى العرب ـ بصحة أخبارهم، واستنادها إلى كتب سماوية. فلم يكن حوله ضباب يعذر المتنكبين عنه، الأمر الذي دفع (أبا طالب) إلى أن يقول:

ألم تعلموا: أنا وجدنا (محمّداً) ❁❁❁ نبياً ـ كموسى ـ خط في أقدم الكتب؟!(٢٤٣).

٥ـ الشهرة ـ التي سبقته إلى كل الأوساط الدينية، وإلى كل المراقبين للقضايا الرسالية ـ بأنه سينتصر على أعدائه، وسيحكم سلطانه من مشرق الدنيا إلى مغربها. والناس يتسابقون إلى من يتوقعون نجاحه، فكيف

بمن تتواتر النبوات بانتصاره العالمي؟!

فلـــم يكـــن في الجوّ أي مبرر لتقاعس قريش ـ وخاصة بني هاشـــم ـ عن الاســـتجابة لنداءه، وإنما كانت العوامل والمبررات تدفع إلى التجاوب معه.

ولكـــن من طبيعـــة الناس أن يترددوا في اتخاذ موقف إيجابي إذا فوجئـــوا بأمر عظيم، فهم ـ في مواجهة الأحداث ـ يبدأون بجرد التوجســـات الســـلبية قبل متابعة المغريات الإيجابية، فـــإذا طرح أمامهم موضوع مصيري خطير، لا يبادرون إليه، وإنما يترددون ويتلفتون حولهم بحثاً عن فرصة تســـعفهم، وتضع أمامهم معالم المســـتقبل المرتقب، عسى أن يســـتطيعوا ـ على ضوئها ـ تولي الاجتهاد في تقييم ذلك الموضوع، واتخـــاذ قرار بصدده. وفي هذه اللحظـــات المرتبكة، تكون الكلمات القوية بمثابـــة الصدمات الكهربائية ـ وخاصة إذا انطلقت من مصادر قوية، وبوجه أخص إذا كانت ســـلبية ـ ، أنه تقطع سلســـلة الأفكار، وتوقف تأرجح المعادلات، فتتولى اتخاذ قرار للآخرين، كما فعل (نمرود) عندما قال (إبراهيم) (عليه السلام):

(بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا، فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ. فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ، فَقالُوا: (إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ) ثُمَّ: نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ) في محاسبة لأنفسهم وعقائدهم، قائلين: (لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ).

وأخذ (نمرود) زمام المبادرة ليتخذ القرار للآخرين:

(حَرِّقُـــوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِيـــنَ)(٢٤٤)، وأندفع الناس لحرق (إبراهيم الخليل) ثأراً للأصنام المتكســـرة، بعدما أصبحوا على وشـــك رفض الأصنام، نتيجة لجملة قوية سلبية، صدرت من مصدر قوي. وهكذا... كان موقف أبي لهب، حينما أعلن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الإسلام:

(مجتمع البيان) للفضل بن الحسن الطبرسي، عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، قال: (صعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وســـلم) ذات يوم (الصفا)، فقال (يا صباحاه)! فأقبلت إليه قريش، فقالوا له: (مالك)؟ فقال: (أ رأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسكيهم، أما كنتم تصدقوني)؟ قالوا: (بلى)! قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد). فقال أبو لهب: (تباً لك، لهذا... دعوتنا جميعاً)؟!).

هذه الكلمة القوية من مصدر قوي كأبي لهب ـ وارث المجد التليد من عدنان، وابن عبد المطلب: ســـيد قريـــش المطاع، وعم النبي (صلى الله عليه وآله وســـلم): صاحب المفاجـــأة ـ ، هذه الكلمات قطعت على قريش سلســـلة التردد والتأمل، واســـتغلت الذهول الذي يعقب المفاجأة، من أجل اتخاذ القرار لهم قبل أن يهضمـــوا المفاجأة ويؤهلوا لاتخاذ قرار. وعاد أبـــو لهب أدراجه، وعادت معه قريش أدراجها، متفرقة عن

خير ما دعيت إليه. والناس ـ عادة ـ يعتمدون على الانفعال في ارتجال الكلمة والحركة، ثم تسجل عليهم، فيضطرون إلى الالتزام بها والدفاع عنها، فتتحول إلى موقف ثابت لا يجدون عنها حولاً.

ولــو أن رجلاً من وزن أبي لهب أندفع نحو النبي (صلى الله عليه وآله وســلم) مبايعاً في تلك اللحظة، لاندفعت قريش ـ ومن وراءها أهل مكة ـ أيدٍ تصفق بالبيعة على يد النبي (صلى الله عليه وآله وســلم). ولو ســكت أبو لهب ـ يوم ذاك ـ لتحرك الضمير في غيره، ولو ســكتوا لوجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) طريقــه إلى العقول والقلوب بلا معاناة. و لكن كلمة أبي لهب صدت الآخرين من التجاوب مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأصابت الرسالة بوهن جعل كل فرد يفكر ـ أكثر من مرة ـ قبل أن يقرر الاستجابة لها، واتخذت لقريش موقفاً يهدد غيرها إن وجد رغبة في تلبية نداءِ النبي (صلى الله عليه وآله وســلم). فكانت كلمة أبي لهب إحدى الكلمات التي غيرت مســار الأمة، من نوع كلمة: (منا أمير، ومنكم أمير) التي قالها سعد بن عبادة، وكلمة (لا حكم إلا الله) التي رفعها الخوارج...

ولم تكن هذه الضربة التي وجهها أبو لهب إلى الرســالة، وهي لا زالت إشاعة تلون شفاه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، هي البادرة الوحيدة التي صدرت منه، فقد بقي ـ منذ ذلك اليوم ـ رأس الحقد، وقائد حملة العنف على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، بشكل لم يسبق له مثيل:

(مجمع البيان) للفضل بن الحســن الطبرســي، قال طارق المحاربي: (بينا أنا بســوق ذي المجاز، إذا أنا بشابٍ يقول: (أيها الناس! قولوا: (لا إله إلا الله) تفلحوا)، وإذا برجل خلفه يرميه، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه، ويقــول: (يا أيها الناس! إنه كذاب، فلا تصدقوه). فقلت: (من هــذا)؟ فقالوا: (هو... محمّد، يزعم أنه نبي، وهذا... عمه أبو لهب، يزعم أنه كذّاب).).

واســتمر في حملته الشرسة على الرسالة منذ انطلاقتها المبكرة وحتى (ليلة الهجرة) كان أحد المتآمرين على حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

فكان دور أبي لهب (في مرحلة ما قبل الهجرة)، كدور أبي ســفيان في (مرحلة ما بعد الهجرة)، بفارق: أن أبا ســفيان تبرقع بالإســلام في (غزوة فتح مكة) وأما أبو لهب فقد بقي مكشــراً أنيابه، ومتجاهراً بنواياه الكالحة حتى الموت.

ولم تنفعه قرابته القريبة من رســول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، لأنه استغلها لتشديد وطأته وإحكام ضرباته. ومعروف مدى تأثير العم على ابن أخيه في المجتمع القبلي، المبني على سلّم العائلة.

وأما زوجته أم جميل: فكانت مكانتها مرموقة في بني أمية باعتبارها بنت حرب، ومكانتها حصينة في بني هاشـــم باعتبارها زوجة أبي لهب، فكانت تستغل علاقاتها السببية والنسبية للتجسس على النبي (صلى الله عليه وآله وســـلم) والمؤمنين، وإذاعة أخبارهم في المشركين. ولم تكن تتوجس القبض عليها متلبسة، لأن حصانة المرأة ـ وبخاصة المرأة الشريفة ـ كانت تمنعها من أية غائلة.

وهذان الطرفان ـ أبو لهب وأم جميل ـ عقدا مســـرى الإســـلام في (مرحلة ما قبل الهجرة) بشكل رهيب: فهذه... تتجســـس وتجمع الأخبار، وذاك... يقود حملة التشهير والعنف. وكانت الويلات التي جعلت صمود المسلمين ـ في تلك الفترة ـ أروع نماذج الصمود في التاريخ: فكان (التعذيب الوحشي) الذي يذكره التاريخ يتقزز، وكانت (المقاطعة) الصارمة التي الجأت النبي (صلى الله عليه وآله وســـلم) والمســـلمين جميعاً إلى (شـــعب أبي طالب)، وكانت (هجرة جماعة من المسلمين) بقيادة (جعفر بن أبي طالب) (عليه السلام) إلى (الحبشـــة)، وكانت (هجرة النبي (صلى الله عليه وآله وســـلم)) ـ ذاته ـ إلـــى (الطائف)، ثم كانت (الهجرة الكبرى) إلى (المدينة المنورة)، تلك الهجرة التي أصبحت مدار التاريخ إلى الأبد.

روايات

وفي خاتمة المطاف، ينبغي تسجيل بعض الروايات المناسبة:

(مجمع البيان) للفضل الحسن الطبرسي، عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: (لما نزلت هذه السورة، أقبلت العوراء أم جميل بنـــت حرب، ولها ولولة وفي يدها فهر(٢٤٥)، وهي تقول: (مذمماً(٢٤٦) أبينا. ودينه قلينا. وأمره عصينا) ـ والنبي جالس في المســـجد ومعه أبو بكر فلما رآها أبو بكر قال: (يا رسول الله! قد أقبلت، وأنا أخاف أن تراك)، قال رســـول الله: (إنها لن تراني) ـ وقرأ قرآناً فاعتصم به، كما قال: (وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجاباً مَسْـــتُوراً)(٢٤٧) ـ . فوقفت على أبي بكر ولم تر رســـول الله، فقالت: (يا أبا بكر! أخبرت أن صاحبك هجاني)، فقال: (لا، ورب البيت ما هجاك). فولت وهي تقول: (قريش تعلم أني بنت سيّدها).).

وروي أن النبـــي (صلـــى الله عليـــه وآلـــه وســـلم) قـــال: (صرف الله عنـــي أنهـــم يذمّون مذممـــاً، وأنا محمّد)(٢٤٨).

(تفسير القمي) لعلي بن إبراهيم القمي، في قوله تعالى:

(وَامْرَأَتُـــهُ حَمَّالَـــةَ الْحَطَـــبِ)، (كانت أم جميل بنت صخر تنمّ على رســـول الله، وتنقـــل أحاديثه إلى

الكفار).

وقيل: كانت لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: (لأنفقنّها في عداوة محمّد).

وعلى هذا... فمن العقاب بالمثل، مجازاتها بقلادة خشناء ـ يمكن تشبيهها بقلادة من ليف النخل ـ توضع في عنقها، بدلاً من القلادة الثمينة التي أنفقتها في عداوة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

(١١٢)

سورة الإخلاص = التوحي...

مكية وهي أربع آيات

الله جل جلاله

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ) (٢٤٩) .

هذه السورة، تلقن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) الجواب الكامل، عن كل الأسئلة التي كانت تبحث في الله، للتعرف على انتماءه النسبي، وامتدادات القربى حوله. فهي نسبة الله، أو ما يعادل (شجرة النسب)، التي كانت تثبت في لوحة على كل صنم، أو تحفظ في العوائل العريقة من ذوات الأمجاد.

ولا بد ـ هنا ـ من التفاتة إلى الوراء، لمعرفة الجوّ الذي نزلت فيه هذه السورة، ونلخصه في موضوعين:

أصل الشرك:

١ـ أصل (الشرك) ناتج من فكرة فلسفية قديمة تقول: (الواحد لا يصدر منه إلا الواحد). وجذور هذه الفكرة: أن الناس البدائيين وجدوا أن كل مادة تؤثر أثراً معيناً: فالنار تولد الحرارة، والماء يعطي البرودة... ورأوا أن لكل نبتة من النباتات خاصية معينة، وأن لكل نوع من الحيوان عملا معيناً، وأن لكل صنف من الجماد فاعلية معينة... وهكذا... سائر الموجودات. فقاسوا (الإله)على (المألوه)، وقالوا: الإله الواحد لا

يمكن أن يصدر منه إلا عمل واحد.

وبما أنهم وجدوا الأعمال الكونية كثيرة، قالوا بتعدد الإله. غير أنهم قالوا: إن هنالك إلهاً كبيراً اسمه (الله) خلق الكون، ودونه آلهة كثيرون بعدد الأعمال الكونية، لهم بالنسبة إليه أدوار الوزراء بالنسبة إلى الملك، مع الاحتفاظ لهم بصفة الألوهية، فهم مع الله من نوعية واحدة باختلاف الدرجات ـ على حدّ زعمهم ـ . فالمشاركة في الإلوهية شرك، حتى مع الاعتراف بـ(الله) إلهاً أعلى، لأنه يعني أن الله مختص بالخلق، وليست له صلاحية التصرف فيما خلف. وليس الشرك أكثر من توزيع مقام الإلوهية، وإدعاء تعدد الإلهة.

والأديان تعترف بوجود (الْمُدَبِّراتِ أَمْراً)(٢٥٠) من الملائكة، وبأن الله أعطى لكبار الملائكة بعض الصلاحيات التكوينية، ولكن هذه الفكرة تختلف عن فكرة تعدد الآلهة من جهتين:

الأولى: أن الله أعطى لكبار الملائكة بعض الصلاحيات، لا باعتبارهم آلهة، وإنما باعتبارهم عبيداً مأمورين.

(لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ)(٢٥١)، (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ: (إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ)، فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ. كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)(٢٥٢).

الثانية: أنهم ينقذون بعض المهام المناطة بهم، مع أن الله هو المسير لهم ولمهامهم، فلا يتحقق شيء إلا بإرادته، فهو ـ وحده ـ خالق الكون، والمتصرف المطلق فيه.

فتقسيم الأعمال الكونية على الآلهة، مع الاعتراف بـ(الله) إلها أعلى، أدى إلى الشرك، والأديان تعترف بـ(الْمُدَبِّراتِ أَمْراً) ولكن باعتبارهم عبيداً مأمورين بتنفيذ أعمال معينة، لا باعتبارهم آلهة.

أصل الوثنية:

١ـ ثم وجدت فكرة تمثيل الآلهة، لأن المشاعر البدائية ما كانت تمتلئ بآلهة غير مرئية، فجعلوا لكل إلهٍ صنماً يرمز إليه، ويجسد مواصفاته، حتى يملأ أحاسيسهم حين عبادته أو مخاطبته في حوائجهم. فكانت الأصنام رموزاً إلى الآلهة.

وإلى جانب الأصنام وجدت الأوثان، نتيجة لتواجد الأنبياء والمصلحين في المجتمعات البدائية، فهؤلاء الشخصيات ـ حيث كانوا يجسدون انفجارات المواهب في الأرضية البشرية المتزمتة، ويرتفعون بقوة تعلو

على قوة التزمت في مجتمعاتهم. وحيث كانوا يطرحون على الجماهير المضغوطة، أفكاراً شديدة التوهج واللمعان ـ كانوا يستقطبون ولاء الجماهير. فإذا مات أحدهم، حاولت الجماهير المتعلقة به ملء فراغه بصنع تمثال له: من معدن، أو خشب، أو حجر... وادعت للتمثال كل المميزات التي كان يتحلى بها فقيدها العظيم فازدحمت حول التمثال بذات الحوائج والخشوع التي كانت تلتف بها حول الفقيد، وقدمت إلى التمثال ذات الهدايا التي كانت ترفعها إلى الفقيد.

وبما أن الأنبياء والمصلحين ما كانوا يدعون الألوهية لأنفسهم، وإنما كان يدعون إلى عبادة الله، ويفسرون معجزاتهم بـأن الله يجريها على أيديهم، لأنهم عبيده المقربون إليه، كانت الجماهير تعتبر تماثيلهم مقربة إلى الله، وشفعاؤها لديه سبحانه. فكانت تعامل التماثيل، معاملتها للأنبياء أنفسهم.

وأما المصلحون ـ أو المتفوقون ـ فالكثيرون منهم كأننا يدعون (النبوّة)، ويرتكبون أعمالاً سحرية ـ أو شعوذية ـ للتعويض عن (المعجزات)، من أجل التعزيز بالجماهير والتمكن منها. والآخرون الذين لم يكونوا ينتحلون صفة (النبوة) كانت الجماهير تنحلهم إياها، لعدم تميز المفاهيم في الوعي العام. فكانوا ـ جميعاً ـ يعتبرون أنبياء مقربين عند الله، وتعتبر تماثيلهم امتدادات كاملة لهم.

فما كانت (القبيلة) تعتبر تمثال عظيمها (خالق السماوات والأرض)، بل كانت تقتصر على اعتباره واسطتها إلى خالق السماوات والأرض، رغم إطلاقها لقب (الإله) عليه.

وقد حدد القرآن هذه الفكرة ـ نقلاً عن المشركين ـ بقوله:

(ما نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى)(٢٥٣).

وإذا كانت فكرة (الوثنية) بدأت من التماثيل الأنبياء، ثم شملت العظماء، فقد اتسعت لإلهة المظاهر الكونية الضخمة، فصنع الناس تمثالاً لأله الشمس، وتمثالاً لإله البحر... ثم وجدوا أنهم يخافون من أشياء، فعملوا لإلهتها تماثيل، حتى يقدموا إليها القرابين، فيستدروا عطفها كلما غضبت عليهم، فكان: إله العواصف، وإله الحرب... ثم تبين لهم أن هنالك أشياء يحبونها وربما لا تتجاوب معهم، فجعلوا لها أوثاناً يغازلونها بواسطة تلك الأوثان التي ترمز إليها، فظهر إلى الوجود: إله المطر، وإله الخمر... وتمادت الفكرة حتى كان لكل ما يرغب فيه أو يرهب منه (إله)، وانتشرت الفكرة حتى امتلأت البيوت والأكواخ وحتى السفن بأوثان مختلفة الأشكال والأحجام. وكان حجم الصنم مقياساً لأهمية ما يرمز إليه، ومقياساً لأهمية من يقتنيه: فللقبيلة الكبرى صنم اكبر، وللقبيلة الصغرى صنم أصغر لا يحق لها تبديله بأكبر منه، ولرئيس القبيلة صنم شخصي كبير، ولأفراد القبيلة أصنام بأقدارهم... وكان سوق للأصنام وأسعار توازن المواد

والجهود المستهلكة في صنعها، ثم كان تعظيم الصنم وتعطيره إذا استجاب لصاحبه، وتبديله وصفعه وتحطيمه إذا لم يتجاوب معه.

ومع نشوء وانتشار فكرة (الوثنية) ـ في مجال العقيدة ـ ،نشأت وانتشرت فكرة مرضية أخرى ـ في مجال المجتمع ـ وهي فكرة (الوراثة).

فالناس البدائيون كانوا يرون أن للوراثة فاعلية ظاهرة في نقل الخواص والمميزات، تتسلسل وتوازي في امتدادها تسلسل النسب.

واستقوا هذه الفكرة من ملاحظات كثيرة تفيد: أن النبتة الفتية الغليظة تنتج الحبة المكتنزة المشبعة، وأن نواة الشجرة الباسقة، تنفلق عن شجرة باسقة، وأن الطائر الرائع الغرّيد ينجب رائعاً غرّيداً، وأن نتاج الحصان القوي الجميل مثله قوي جميل... فجعلوا: للنبات فصائل، وفي ضمن كل فصيلة عروقاً، على أساسها يتم تقسيم النبات وتقييمه. وللطيور والدواجن أصنافاً، وفي إطار كل صنف سلالات، والسلالة تطبع كل أفرادها بمواصفات معينة، وتكتب لها جميعاً تاريخاً واحداً لا يتخطاه أي واحد منها. وأما الفرس والكلب والغزال، فلها أنساب وأفخاذ تروى وتحفظ، ولكل فخذ أمجاد ومواقف تعزز مكانته وترفع سعره.

وهذا التقسيم القبلي طبع العقلية القديمة بطابع قبلي، فلكل شيء نسب وعرق يحددان هويته ومواصفاته وجرت هذه العقلية، في تقسيم وتقييم الناس قبلياً. فكانت فلسفة عصر ملوث بالجريمة، والحقد والدم، هو (العصر القبلي) الذي تمادى آلاف السنين.

وهذه العقلية عودت الناس على فهم بعضهم حسب إيحاءات العرق وفصائل الدم وأمجاد السلالة، فالفرد شريف وشجاع وكريم ومطاع، لمجرد أنه انحدر من صلب معين. والآخر مهين وجبان وبخيل وضيع، لمجرد أنه انحدر من صلب آخر... ومراكز الأفراد والجماعات ثابتة بين الأفراد والجماعات، من قبل الميلاد وإلى ما بعد الموت. وليفكروا وليعملوا كيفما يحلو لهم، فالأفكار والأعمال ـ السلبية منها والإيجابية ـ كلها ملغاة في مجال تقييم الأشخاص وتحديد أوضاعهم النفسية والاجتماعية. فلا يجد الفرد ـ ولا الجماعة ـ آية حيلة لتغيير المواقع التي وجدوا فيها، وإنما هي أقدار تلازمهم من المهد إلى اللحد دون أن يستطيعوا عنها حولاً. وحتى المجرم والمصلح صفتان تنتشران في الأفراد ـ بالرغم منهم ـ مع انتشارهم العرقي. فإذا التقى فرد بآخر، لم يسأله إلا عن نسبه لتحديد موقفه منه، فإذا أجاب عرف أن عليه أن يضع فيه ولاءه أو عداءه.

وارتفعت العقلية القبلية الطبقية ـ ذاتها ـ إلى تقييم الآلهة: فلكل (إله)نسب يرتفع سلالة تنحدر، وله أب وأم وزوجة وأولاد والانتماءات العرقية للآلهة تختلف ـ تماماً... كما تختلف سلالات الإنسان وفصائل

الحيـــوان وفجـــار النبات ـ : فهناك عرق لإلهة راقٍ، وعرق يأتي في الدرجـــة الثانية، وعرق واطئ... وعلى أساس العرق تقدر عظمة كل إله، حتى كانوا يثبتون على كل صنم لوحة يكتبون فيها نسبه.

فلما بدأ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يدق المسامع باسم (الإله الواحد)، تلقته تلك العقلية بالسؤال: (ما هو نسب إلهك؟) فنزلت سورة (الإخلاص) معلنة عدم توفر أي انتساب متصور لله، وناعته إياه بالأحدية في ذاته وصفاته وأفعاله. فتقف السورة في المقابل من لوحة النسب التي كانت تثبت على الصنم، فاعتبرت بمثابة نسب الله ونعته.

فـ(قُلْ) ـ يا محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)! ـ للمتساءلين عن نسب إلهك: (هُوَ): ذلك الذي تتساؤلون عن نســـبته، (اللهُ). وليس أي واحد من الآلهة التي تعبدونها، وليس من قبيل أي شيء من المسبقات الذهنية التي قسمتها عقليتكم المادية في خطوط قبلية طبقية، تكون أية نقطة تركزون عليها، وليدة ما قبلها ووالدة ما بعدها، في تسلسل سلالي، كما لو كانت حلقة في سلسلة متوالدة، فالله ـ تعالى ـ غير كل ما تصورتموه، وغير كل ما يمكن أن يتصوره إنسان.

و(الله) إســـم لذاته تعالى، وليس من أسماء الصفات: كالقديم، والدائم، والسرمدي... ومن أسماء الأفعال: كالخالـــق، والرزاق، والمهيمـــن، والجبار... فللذات المســـتجمعة لصفات الكمـــال، والمنزهة عن صفات الجلال، اسم واحد في كل لغة، وذلك الاسم في اللغة العربية هو (الله).

(أَحَدٌ).

و(الأحد): هو الواحد المطلق من التقاســـيم العددية، ســـواء اســـتعمل في مجـــال الإيجاب أو في مجال السلب:

فإذا استعمل في مجال الإيجاب، أفاد الوحدة التي ترفض التعدد خارجا وذهناً وعدداً.

وإذا اســـتعمل في مجال الســـلب، أفاد النفـــي المطلق، فإذا قلت: (ما جاءني من أحـــد) أفاد انه لم يأتك مطلق إنسان، لا واحد ولا أكثر. وبما أن (الأحد) يفيد الوحدة المطلقة، لا يستعمل إيجاباً إلا بالنسبة إلى الله تعالى، ولا يســـتعمل سلباً إلا لنفي الكلي المتحرر من الروابط العددية. بخلاف (الواحد)، فإنه يفيد الوحدة المحصورة في الخانة العددية، سواء استعمل في مجال الإيجاب أو في مجال السلب: فإذا قلت: (جاءني رجل واحد) يجوز أن ينضم إليه ثان وثالث ورابع، وإذا قلت: (ما جاءني رجل واحد) يجوزان يكون قد جاءك أكثر مـــن واحد. فـ(الواحد) داخل في العدد، وكل واحد له ثان وثالـــث إما خارجاً، وإما ذهناً بافتراض العقل،

فيصير بانضمامه إلى بقية الوحدات العددية كثيراً. بخلاف (الأحد)، فإنه ليس داخلاً في العدد، وكل ما افترض له ثانياً كان هو ذاته لم يزد عليه غيره، فهو ذاته محيط، لأنه المبدأ والمنتهى، ولهذا قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): (كل مسمّى بالوحدة، غيره قليل)(٢٥٤).

ويظهر الفارق بين (الواحد) و(الأحد) في استخداماتنا الدارجة للكلمات: فتستخدم كلمة (واحد) في مقام الإيجاب فتقول: (رأيت واحداً من القوم)، و(أكرمت واحداً من أقربائي). بينما تستخدم كلمة (أحد) بعد النفي، فتقول: (لم أرَ أحداً)، وما أكرمت أحداً)، وإذ لو قلتَ: (ما رأيت واحداً) يترك المجال بأنك قد رأيت أثنين أو أكثر، ولو قلت: (ما أكرمت واحداً) فلعلك أكرمت أكثر من واحد. ولهذا يقال: (ما خاطبت واحداً منهم، بل خاطبتهم جميعاً)، ولا يصح أن يقال: (ما رأيت أحداً منهم، بل رأيت اثنين منهم).

إذن: فـ(الواحد) فرد من مجموع واقعي أو ذهني، ولذلك تقول: (استمع إلى واحد منهم تعرف لغتهم)، حيث يوجد مجموع واقعي يتكلم بلغة تحاول تعريفها لمستمعك عن طريق واحد تلهج البقية بمنطقه. أو تقول: (أرسم صورة واحد تعرف صعوبتها)، حيث يفترض وجود مجموعة صور ـ دهناً ـ تحاول بيان صعوبة رسمها، بتجربة واحدة تكون البقية على نمطها بينما (الأحد)يعبر عن واحد متحرر من الخصوصات الرقمية.

بالإضافة إلى: أن (الأحد) يعطي معنى الوحدة النهائية، فحيث تقول: (ما رأيت أحداً)، تفترض آخر فرد كان يمكن أن تراه فلم تراه.

والقرآن اختص (أحد) بمقام النفي، فقال:

(وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فاسِقُونَ)(٢٥٥).

ولم يستعمله في مقام الإثبات إلا في هذه السورة، مؤكداً أن مضمون (واحد) لا يكفي للتوجيه إلى الوحدة الإلهية، وان أفضل كلمة يمكن استخدامها للإشارة إلى الوحدة الإلهية هي كلمة (أحد) لا غير.

وعندما يقال: (آحاد) لا يقصد جمع (الأحد المتكرر)، وإنما يقصد منه مجموع الأرقام التسعة الأولية مع ملاحظة كل رقم منها مستقلاً عن مرادفاته، كما يقال: عشرات، ومئات، وآلاف. فرقم (١) أحد، لأنه مستقل عما بعده، وليس قابلاً للانضمام إلى غيره، فلو انضم إلى غيره فقد ذاته، فالمفروض في رقم (١) أن يكون رقم (١) لا غيره. ورقم (٢) أحد، لأنه مستقل وغير قابل للاندماج في غيره، لأنه بالاندماج في غيره لا يكون

رقـــم (٢). وهكذا... رقم (٣) و(٤) إلـــى رقم (٩)، فكل واحد منها (أحد)، ومجموعها (آحاد). ولكن كل واحد منها (أحد) مجازاً، لأن (الأحد الحقيقي) لا يتكرر مصداقه، وما يتكرر انطباقه لا يكون (أحداً).

وبما أن كلمة (الأحد) تفيد الحصر إثباتاً والشمول سلباً، استخدمت مرتين في هذه السورة: فاستخدمت إيجابياً في أولها، لحصر الوحدانية في ذاته تعالى، واســتخدمت ســلباً في آخرها، لتعميم النفي على أي كفوءٍ يمكن أن يتصور له سبحانه.

وإذا كان الله ـ تعالى (أحداً) في وحدته، فليست له المواصفات البشرية التي عددها (الوثنيون) لآلهتهم، ومن جملتها (التسلســل الوجودي). فليس الله حلقة في (سلسلة ســلالة)، ولا عقدة في (شجرة نسب)، لا باعتباره رأس السلســلة كوالد، ولا باعتباره منتهى السلسلة كولد، ولا باعتباره حلقة مشدودة الطرفين كولد والد.

الأحدية المطلقة:

وأحدية الله كاملة مطلقة، تعني وحدانيته من جميع الجهات. ولعل من الممكن حصر جهات الوحدة في ليس ثلاث، هي:

الأولى: وحدة الذات، ووحدة الذات تعني أمرين:

١ـ الوحدة مقابل التعدد. فهو: أحد. لا اثنين، ولا ثلاثة، ولا أكثر...

٢ـ الوحدة مقابل التركب. فهو: أحد. لا مركباً من أجزاء، ولا مركباً من أعضاء.

الثانية، وحدة الصفات، بعينية الذات، فأسماء صفاته، أسماء ذاته. وفي الحقيقة: صفاته مواصفات، مثل: نارية النار، ومائية الماء... وليســت صفات كصفات: العلم، والحكمة، والشــجاعة...، التي هي ـ في الواقع ـ طوارئ: قد تخلع على الإنسان نتيجة لأسباب، وقد تخلع عنه نتيجة لأسباب.

الثالثة: وحدة الأفعال. فكل الأفعال الكونية صادرة عنه تعالى، وليست صادرة عن مجموعة آلهة مختصين، يمارس كل نشاطه بعزل عن الله.

(اللهُ الصَّمَدُ).

للصمـــد ـ لغة ـ معينان: المصمت الذي لا جوف لـــه، والمقصود. ومن المعنى الأول: الصامد: المكتنز من الأشـــياء. والصمد: الرجل لا يجوع ولا يعطش في الحرب. وصمّد الدراهم: ضمها إلى بعضها. والصَمدة والصُمدة: الصخرة الراسية المرتفعة. وصمد القارورة: جهل لها سداداً، والصماد: سداد القارورة.

ومن المعنى الثاني: صمد فلاناً وله وإليه: قصده. تصمد له بالعصا: قصد الصمد: الســـيد المقصود الذي لا يقضى دونه أمر.

وأما تلك الصور الذهنية التي يختار كل واحد من الناس إحداهما ويظنها (إله السماوات والأرض)، فهي أصنام ذهنية يختلقها الناس بالأدوات الفكرية. وهي لا تختلف عن الأصنام المعدنية ـ وغير المعدنية ـ التي كان الناس يختلقونها بأدواتهم المادية، ففضحتهم (الأديان) واعتبرتهم (وثنيين). وهل يمكن أن يكون الله ـ سبحانه ـ وليد نبضة خيال؟!

وإذا كان (القاصرون) من الناس يحبون أن يتصوروا الله بأفخم ما يمكنهم التصور، فذلك لا يعبر إلا عن أنهم لم يســـتطيعوا التحرر من أواصر المادة. فهم يتصورون الله أشـــبه بإنسان ضخم عظيم، كما أن (النملة) تتصـــور الله ـ ســـبحانه ـ نملة عظيمة لها زبانيتان ـ(٢٥٦). حســـب ما في الحديث عـــن الإمام الصادق (عليه السلام) ـ .

ولذلـــك، قال إمام الموحدين علي بن أبي طال (عليه الســـلام): (التوحيـــد: أن لا تتوهمه، والعدل: أن لا تتهمه)(٢٥٧).

وأما تفســـير (الصمد) بالمعنى الثاني ـ وهو المقصود ـ : فعليه أكثر المفسرين. لأن أصل معنى (الصمد) هـــو مطلق القصد، أو القصد مع الاعتماد. والله ـ تعالى ـ هـــو المقصود على الإطلاق في كل الحوائج: فهو موجد كل موجود، وله عالم الخلق وعالم الأمر، واليه المنتهى. فهو المقصود بالذات، وكل من يقصد غيره فهو المقصود بالعرض، يطلب منه بعض ما أفاء الله عليه، فتطمح الآمال ـ عبره ـ إلى الله.

وأظـــن: أن معنى (الصمد) هو المصمت الذي لا جوف له، وأما المعنى الثاني فيتبرعم عن المعنى الأول: فمن كان مصمتاً لا فراغ فيه، يكون غنياً عن غيره. وكل ما هو متجوف، يشـــكو فراغا يحتاج إلى من يملأ فراغه، فلا يستطيع أن يملأ فراغ غيره، فلا يكون مقصوداً.

وتنحصـــر المقصوديـــة بالذات في المصمت الذي لا يشـــكو فراغاً، ويقدر على أن يملأ فراغات ســـواه. فهو الســـيد المطلق، منه ابتدأت الشـــرافات والعظمات. إنه المصدر وليس المصب، حتى تحاولوا ـ أيها

الوثنيون!ـ تقدير شرافته وعظمته بنسبه. إنه الذي يوزع السيادة، من دون أن يكتسبهما من غيره.

وقد وردت كلمة (الصمد) معرفة بـ(ال) لإفادة الحصر، فالله ـ تعالى ـ وحده (صمد). وهذا بخلاف (أحد) في الآية، فهو ـ بما يفيده من معنى الوحدة الخاصة ـ لا يطلق على غير الله تعالى، فلا مبرر لاستخدام أداة تعريف.

وقد تكررت لفظة الجلالة في الآيتين: (اللهُ أَحَدٌ) و(اللهُ الصَّمَدُ)، لحصر الصفات الثبوتية في الذات الإلهية المعبر عنها بـ(الله)، لمكافحة الأفكار الوثنية التي كانت تعدد الآلهة وتوزع الصفات الإلهية بينها. وفي العديد من الآيات القرآنية، محاولات لتوجيه الأفكار إلى انحصار الصفات الإلهية في الله تعالى: فهو (أحد)، وهو ذاته (الصمد).

وتشبه هذه المحاولة، المحاولة الواردة في قوله تعالى:

(قُلِ: (ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ. أَيًّا ما تَدْعُوا، فَلَهُ الأَسْماءُ الْحُسْنى).)(٢٥٨).

وقيل: أن تكرار كلمة الجلالة للإشارة إلى كون كل من الجملتين كافية في تعريفه تعالى، فالمعرفة به حاصلة سواء قيل كذا... أو قيل كذا...

إنه الصمد، فلا نقص فيه ولا عجز، حتى يشكو شيئاً أو يحتاج إلى سواه.

إنه الصمد، المفعم المليء، لا فراغ فيه يملأه الزمان أو المكان، أو يملأ بالأبوة والبنوة، أو بالمصاهرة، أو بأي ارتباط وجودي بما عداه، من الأمور والاعتبارات التي تملأ فراغات الممكن وتسدّ نقائصه.

وما دام الله (صمداً) غير مركب من أجزاء، فهو إذن (لَمْ يَلِدْ): لأنه ليس مركباً من أجزاء حتى يمكن انفصال بعضها عنه فيكون ولده.

(وَ) ما دام غير ركب من أجزاء، فهو ـ إذن ـ متفرد (لَمْ يَكُنْ) ولا يمكن أن يكون في المستقبل ـ ففي مجال الواجب، إذ أمكن شيءٌ تحقق. فإذا لم يتحقق شيءٌ في مجال الجواب في الماضي، فهو مستحيل لا يتحقق في الحاضر والمستقبل. فعدم الوجود السابق، يكفي دليلاً على الاستحالة السرمدية ـ فلم يكن (لَهُ كُفُواً) وندّاً، (أَحَدٌ): لأن وجود الندّ يناقض الأحدية.

وما دام الله (صمداً = مقصوداً): لا يحتاج إلى شـــيء، ويحتاج إليه كل شـــيءٍ. فهو ـ إذن ـ منفرد ـ لا ندّ له فوجود الندّ له ينافي مقصوديته المطلقة، لأن ندّه مثله: مطمح يطمح إليه، ولا يطمح في غيره.

وما دام الله (صمداً = لا فراغ فيه): فهو ـ إذن ـ متفرد، لا زوج له. لأن وجود زوج له، يكشـــف عن فراغ فيه تملأه عاطفة الزوجية، وإذا لم يكن فيه فراغ، ولا يمكن أن يكون له زوج.

فصفـــة (الأحدية)، تنقي وجود كفو لـــه، إذا كان الندّ مراداً من الكفو. وصفة (الصمدية) تنفي وجود كفو له، سواء أكان المراد من الكفو الندّ أو الزوج.

فســـورة (الإخـــلاص) تعطي الله ـ تعالى ـ مواصفـــات خمس: اثنتان منها ثبوتيتا، همـــا: أنه (أحد)، وأنه (صمد). تتبرعم عنهما ثلاث مواصفات سلبية، هي: أنه (لَمْ يَلِدْ(وأنه (لَمْ يُولَدْ)، (لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ).

وهذه المواصفات الخمس، تكشف أن الله ـ سبحانه ـ لا يدخل في إطار الانطباعات المترسبة من الوثنيات القديمة، وأنه ـ جلا وعلا ـ يختلف عن مخلوقاته كافة، فلا يمكن أن ينعكس في الأذهان مطلقاً.

وفـــي الوقت الذي تعمل فيه ســـورة (الإخلاص) لتطهيـــر الأذهان المتجهة إلى الله مـــن مواصفات آلهة الوثنيين، وتعلن أن الله أجل وأعلى من الانتماءات الســـلالية، في هذا الوقت بالذات تعطي الســـورة مفهوماً تربوياً ـ نفسياً ـ اجتماعياً، وهو:

أن المعطيات القبلية والطبقية ليســـت واردة بالنســـبة إلى الله، فكل فردٍ... وكل شيء... خلق من خلق الله، فلا أحد... ولا شيء... أقرب إلى الله بالانتماءات النسبية أو السببية، وإنما الجميع ـ أمام الله ـ سواسية كأسنان المشـــط من حيث تكوينهم، فهم جميعاً ـ أمام الله ـ ســـواســـية أمام الله من حيـــث حقوقهم وواجباتهم. إنهم جميعاً ـ من حيث المبدأ ـ واقفون صفاً واحداً في حلبة التسابق إلى الله تعالى، ومجالات التسابق هي الأفكار والأعمال: فأقربهم إلى الله أكثرهم التزاماً بأوامر الله فكراً وعملاً، وإن كان متفجراً من أصل الله فكراً أو عملاً، وإن كان متبرعماً عن أل قريب إلى الله هو يدخل (الجنة) من أطاعه ولو كان (عبداً حبشياً)، ويدخل (النار) من عصاه ولو كان (سيداً قرشياً).

وإذا سقطت المفاهيم القبلية والطبقية، وثبتت وحدة الدم الذي يجري في عروق (النبلاء) و(عامة الناس)، فلا مبرر لخضوع فرد لفرد لمجرد أن الثاني انحدر من صلب معين، فلربما كان الأول أفضل منه وأكفأ عند الله وبمقياس الواقع. وقد كشف التاريخ ان ٩٠٪ من الأنبياء والعظماء، هم من عامة الناس.

وهذا... لا يعني إلغاء دور (الوراثة) في نقل الصفات الفاضلة، فالوراثة لها فاعليتها الملموسة، ولكنها ليست دائمة من جهة، ومن جهة أخرى: فاعلية الوراثة لا تعني انحسار المواهب عن غير المحظوظين بالأنساب الشامخة.

روايات:

وفي خاتمة المطاف، نسجل بعض الروايات المناسبة:

(مجمع البيان) للفضل بن الحسن الطبرسي، عن ابن عباس: (إن عامر بن الطفيل، وأربد بن ربيعة ـ أخا لبيد ـ أتيا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقال عامر: (إلى ما تدعونا؟ يا محمّد)! فقال: (إلى الله)، فقال: (صفه لنا: أمن ذهب هو، أم من فضّة، أم حديد، أم من خشب)؟ فنزلت السورة. وأرسل الله الصاعقة على أربد فأحرقته، وطعن عامر في خنصره فمات)(٢٥٩).

ولعل هلاك أربد وعامر حرقاً وقتلاً، كان عقاباً لاستهانتهما بالله العظيم، وإستائتهما إليه تعالى: في تعبير عامر ـ : (أمن ذهب هو، أمن فضة...؟).

وفيه عن أبيّ بن كعب وجابر: (أن المشركين قالوا لرسول الله: (إنسب لنا ربك)، فنزلت السورة)(٢٦٠).

(الكافي) لمحمّد بن يعقوب الكليني مسنداً عن محمّد بن مسلم، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن اليهود سألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا: (إنسب لنا ربك) فلبث ثلاثاً لا يجيبهم، ثم نزلت: (قُلْ: هُوَ اللهُ أَحَدٌ) إلى آخرها.)(٢٦١).

(مجمع البيان) للفضل بن الحسن الطبرسي، عن الضحاك وقتادة ومقاتل: (جاء أناس من أحبار اليهود إلى النبي، فقالوا: (يا محمّد! صف لنا ربك، لعلنا نؤمن بك، فإن الله أنزل نعته في التوراة). فنزلت السورة، وهي نسبة الله خاصة.)(٢٦٢).

وعن القاضي في تفسيره: (إن عبد الله بن سلام انطلق إلى رسول الله ((صلى الله عليه وآله وسلم))ـ وهو بمكة ـ فقال له رسول الله ((صلى الله عليه وآله وسلم)) : (أنشدك بالله، هل تجدني في التوراة رسول الله)؟ فقال: (إنعت لنا ربك). فنزلت هذه السورة، فقرأها النبي، فكانت سبب إسلامه، إلا أنه كان يكتم ذلك،

إلى أن هاجر النبي إلى المدينة، ثم أظهر الإسلام)(٢٦٣).

(الاحتجاج) لأحمد بن علي الطبرسي، عن العسكري (عليه السلام) (أن السائل، عبد الله بن صوريا اليهودي)(٢٦٤).

وهذه الروايات تكشف أن هذه السورة نزلت بعد طرح فكرة نسب الله تعالى، وتردد السؤال عنه. وهذا... لا يزيد على أن السورة نزلت في مناسبة، كجميع سور القرآن وآياته. وسواء أكان السائل بعض هؤلاء أو كلهم أو غيرهم، فليس المهم إلا أن السورة تردّ على قياس الله ـ سبحانه ـ بالآلهة المترسبة عن الآلهة البشرية.

(معاني الأخبار) لمحمّد بن علي الصدوق، مسنداً عن الأصبغ بن نباته ـ في حديث ـ عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): (نسبة الله عزَّ وجلَّ، (قُلْ: هُوَ اللهُ أَحَدٌ)(٢٦٥).

(مجمع البيان) للفضل بن الحسن الطبرسي، في الحديث: (لكل شيءٍ نسبة ونسبة الرب (سورة الإخلاص)(٢٦٦).

(علل الشرائع) لمحمّد بن علي الصدوق، مسنداً عن الإمام الصادق (عليه السلام) ـ في حديث المعراج ـ : (إن الله قال للنبي: (إقرأ: (قُلْ: هُوَ اللهُ أَحَدٌ) كما أنزلت، فإنها نسبتي ونعتي)(٢٦٧).

(مجمع البيان) للفضل بن الحسن الطبرسي، قال أبو جعفر الباقر (عليه السلام) في معنى: (قُلْ: هُوَ اللهُ أَحَدٌ) ـ : (أي أظهر ما أوحينا إليك وما نبأناك به، بتأليف الحروف التي قرأناها عليك، ليهتدي بها من ألقى السمع وهو شهيد. و(هو) أسمى مكنّى به مشار إلى غائب: فـ(الهاء) تنبيه على معنى ثابت. و(الواو) إشارة إلى الغائب عن الحواس، كما أن قولك (هذا) إشارة إلى الشاهد عند الحواس. وذلك أن الكفار نبهوا عن أدلتهم بحرف إشارة إلى الشاهد المدرك، فقالوا: (هذه... آلهتنا المحسوسة بالأبصار، فأشر أنت ـ يا محمّد ـ إلى إلهك الذي تدعو إليه، حتى نراه وندركه، و(لا نأله فيه)، فأنزل سبحانه: (قُلْ: هُوَ اللهُ أَحَدٌ). فـ(الهاء) تثبيت للثابت، و(الواو) إشارة، إلى الغائب عن درك الأبصار ولمس الحواس، وأنه يتعالى عن ذلك هو مدرك الأبصار ومبدع الحواس، وحدثني أبي عن أبيه عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (رأيت الخضر في المنام ـ قبل بدر بليلة فقلت له: (علمني شيئاً انتصر به على الأعداء)، فقال: (قل: (يا هو! يا من لا هو إلا هو!)، فلما أصبحت قصصت على رسول الله فقال: (يا علي! علّمتَ الإسم الأعظم)، فكان على لساني يوم بدر). قال: وقرأ يوم بدر: (قُلْ: هُوَ اللهُ أَحَدٌ)، فلما فرغ قال: (يا هو! يا من لا هو إلا هو! إغفر لي، وانصرني على القوم الكافرين). وكان يقول ذلك يوم صفين وهو يطارد...)(٢٦٨).

وفـــي هذا الحديث، قال: (قـــال أمير المؤمنين: (الله، معناه المعبود الذي يأله فيه الخلق ويؤله إليه. الله: المستور عن إدراك الأبصار، والمحجوب عن الأوهام والخطرات).)(٢٦٩).

وقال الباقر: (الله، معناه، المعبود الذي أله الخلق عن إدراك ماهيّته والإحاطة بكيفيته)(٢٧٠).

وقال: (الأحد: الفرد المتفرد...)(٢٧١).

وفـــي اللغة ـ الِـــهَ ـ إَلَهاً: تحيّر. يقال: أَلِهتُ عليه) أي: أشـــتد جزعي عليه. والأَحـــد: الوحيد يقال: (أَحَد الأحدين) أي: لا مثيل له(٢٧٢).

(نهج البلاغة) للإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): (الأحد، لا تأويل عدد)(٢٧٣).

(التوحيد) لمحمّد ابن علي الصدوق، عن الإمام الرضا (عليه السلام): (أحد، لا بتأويل عدد)(٢٧٤).

وذلـــك: أن (الأحـــد) هو المتفرد، فهـــو مبدء العدد وليس مـــن العدد.وقد تجاوز بعـــض اللغويين كلمة (الأحـــد)، فقالوا: إن بناء العدد من الواحد، وليـــس الواحد من العدد. لأن العدد لا يقع على الواحد، بل يقع على الاثنين).

(مجمع البيان) للفضل بن الحســـن الطبرســـي، عن الباقر (عليه الســـلام) عن أبيه زين العابدين عن أبيه الحسين بن علي (عليهم السلام) أنه قال: (الصمد: الذي قد انتهى سؤدده، والصمد: الدائم الذي لم يزل ولا يزال، والصمد: الذي لا جوف له، والصمد: الذي لا يأكل ولا يشرب، والصمد: الذي لا ينام)(٢٧٥).

ويبدو مما سبق أن المعنى الحقيقي للصمد هو: (من لا جوف له)، وأما بقية المعاني فهي لوازمه المتفرعة عنه. فإذا لم يكن لله جوف وفواصل، فمن الطبيعي، أن يكون غير متناهي السؤدد، وأن يكون سرمدياً، ومن الطبيعي: أن لا يأكل، وأن لا يشرب، وأن لا ينام.

(أصول الكافي) لمحمّد بين يعقوب الكليني، مســـنداً عن داوود بن القاســـم الجعفري، قال: قلت لأبي جعفر الثاني (عليه السلام): (ما الصمد)؟ قال: (السيد المصمود إليه في القليل والكثير)(٢٧٦).

فالمعنى الأول الذي أشار إليه الإمام الحسين (عليه السلام)، هو: (المصمت). والمعنى الثاني الذي أشار إليه الإمام الجواد، هو: (المقصود). وهما المعنيان الظاهران للصمد، وعن أحدهما تتفرع المعاني الأخرى

المروية عن أهل البيت (عليهم السلام)، وغيرهم.

(التوحيد) لمحمّد بن علي الصدوق: عن وهب بن وهب القرشي، عن الصادق عن آبائه (عليهم السلام) (إن أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي يسألونه عن الصمد، فكتب إليهم: (بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فلا تخوضوا في القرآن، ولا تجادلوا فيه، ولا تتكلموا فيه بغير علم، فقد سمعت جدي رسول الله يقول: (من قال في القرآن بغير علم، فليتبوّء مقعده من النار). وإن الله ـ سبحانه ـ فسّر الصمد فقال: (اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ)، ثم فسّره فقال: (لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)(٢٧٧).

(مجمع البيان) للفضل بن الحسين الطبرسي: (سئل علي بن الحسين زين العابدين عن الصمد، فقال: (الصمد: الذي لا شريك له، ولا يؤده حفظ شيء، ولا يعز عنه شيء).)(٢٧٨).

وقال الباقر: (الصمد: السيد المطاع، الذي ليس فوقه آمر ولا ناهٍ)(٢٧٩).

وكان محمّد بن الحنفية يقول: (الصمد: القائم بنفسه، الغني عن غيره)(٢٨٠).

وقال زيد بن علي بن الحسين (الصمد: الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له: (كن) فيكون، والصمد: الذي أبدع الأشياء فخلقها أضداداً وأصنافاً وأشكالاً وأزواجاً، وتفرّد بالوحدة بلا ضدّ ولا شكل ولا مثل ولا ندّ)(٢٨١)).

وقال غيرهم: (الصمد: المتعالي عن الكون والفساد، والصمد: الذي لا يوصف بالنظائر)(٢٨٢).

وعن عبد خير قال: (سأل رجل علياً عن تفسير سورة (التوحيد)، فقال (قُلْ: هُوَ اللهُ أَحَدٌ) بلا تأويل عدد، (الصَّمَدُ) بلا تبعيض بدد، (لَمْ يَلِدْ) فيكون موروثاً هالكاً، (وَلَمْ يُولَدْ) فيكون إلهاً مشاركاً، (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ) من خلقه (كُفُواً أَحَدٌ).)(٢٨٣).

وروى عمران بن الحصين: (أن النبي بعث سرية واستعمل عليها علياً، فلمّا رجعوا سألهم عن علي، فقالوا: (كل خير، غير انه كان يقرأ في أثناء كل صلاة بـ(قُلْ: هُوَ اللهُ أَحَدٌ). فقال: (لم فعلت ـ يا علي! ـ هذا)؟ فقال: (لحبِّي (قُلْ: هُوَ اللهُ أَحَدٌ).). فقال النبي: (ما أحببتها حتّى أحبّك الله عزَّ وجلَّ).)(٢٨٤).

ويروى: (أن النبي كان يقف عند آخر كل آية من هذه السورة)(٢٨٥).

وقال الفضل بن يسار: (أمرني أبو جعفر الثاني ـ الإمام الجواد ـ أن أقرأ (قُلْ: هُوَ اللهُ أَحَدٌ)، وأقول ـ إذا فرغت منها ـ : كذلك الله ربي)، ثلاثا)(٢٨٦).

(الدّر المنثور) لجلال الدين السيوطي، أخرج أبو عبيد في فضائله عن أبن عباس، عن النبي قال: (قُلْ: هُوَ اللهُ أَحَدٌ) ثلث القرآن(٢٨٧).

(مجمع البيان) للفضل بن الحسن الطبرسي، عن أي الدرداء، عن النبي قال: (أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة)؟! قلت: (يا رسول الله! ومن يطيق ذلك)؟! قال: إقرأوا (قُلْ: هُوَ اللهُ أَحَدٌ).)(٢٨٨).

وبهذا المعنى روايات عديدة، وقد تضاربت التوجيهات لتقريبه إلى الأذهان تبعاً لتضارب المنطلقات، وكلها استحسانية، ولعل أقربها إلى الذهن:

أن كل المفاهيم القرآنية تدور على ثلاثة أصول، هي: التوحيد، والنبوة، والمعاد.

وهذه السورة تلخص كل ما يدور على الأصل الأول من المفاهيم القرآنية، فهي ـ إذن ـ تحتوي مجمل ثلث القرآن.

وهذه السورة تسمى بسورة (التوحيد)، لأنها تعمل لتوحيد العقيدة. وتسمى بسورة (الإخلاص)، لأنها تخلص العقيدة من مفسداتها. وتسمى بسورة (الصمد)، لأن الأفكار الواردة فيها تتبرعم عن مفهوم (الصمد)، فهو قلب السورة. وتسمّى (نسبة الربّ).

وينسب إلى الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه دعى بدعاءٍ ـ عند دفن النبي ـ جاء فيه: (اللهم! إن هذا... أول العدد) فأثار سؤالاً بقي يتردد في ألسنة المحدثين: (أو ليس الله أول العدد؟!)(٢٨٩).

وفي بعض الحديث ـ عن التوحيد للصدوق ـ : (واحد لا بعدد)(٢٩٠). وهذا الحديث موضع تساؤل آخر يقول: (ماذا يعني الواحد غير العدد؟).

فقال الشيخ البهائي ـ مجيباً على السؤالين ـ : (العدد هو نصف طرفيه، فالواحد ليس بعدد).

وهذا يعني: أن (٢) من العدد، لأن طرفين: (١ + ٣ = ٤)، و(٢) نصف (٤) وأن (٣) من العدد، لأن طرفيه: (٢ + ٤ = ٦)، و(٣) نصف الستة. وأما (١) فليس من العدد، لأن بعده (٢) وهو من العدد، وأما قبله فـ(١/٢)،

والكسور نسب وليست أعداد، فلا نستطيع أن نقول: (١) نصف طرفيه، لأن طرفيه (١/٢ + ١/٢ و١ = ٢)، و(١) نصف (٢).

وإذن فماذا يكون (١)؟ إنه مادة العدد، وجوهر العدد، وبدونه لا يكون عدد، ولكنه ـ بوضعه (١) ـ ليس من العدد.

وعلى هذا... فـ (الله) واحد و(الواحد) ليس من العدد. ثم خلق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ثاني موجود ـ مع قطع النظر عن كون أحدهما واجباً والآخر ممكناً ـ ، و(٢) من العدد، وأول العدد. فكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أول العدد.

ولعلّ هذا... ما عناه الشيخ البهائي بقوله: (العدد نصف طرفيه).

والواقع: أن علماء (الحساب) تكلفوا أمثال هذا، لإخراج (١) من العدد، حتى لا يطلق العدد على الله.

ولا أرى مبرراً لمثل هذا التكلف: فـ(الواحد) ليس من العدد فحسب، وإنما هو العدد الأساسي، ولكن الله ليس واحداً بعدد، لأن العدد مبني على الكثرة، فالشيء الذي يكون قابلاً للانضمام إلى مثله من العدد، وليس لله مثل.

وأما قول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، فلعل تفسيره: أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أول ما خلق الله، فهو أول ما دخل في نطاق الحساب، فهو أول العدد.

اللغة

المصباح المنير:

والعدد بمعنى المعدود. قالوا: (والعدد هو الكمية المتآلفة من الوحدات، فيختص بالمتعدد في ذاته). وعلى هذا... قالوا أحد ليس بعدد، لأنه غير متعدد، إذ التعدّد الكثرة.

وقال النحاة: (الواحد من العدد، لأنه الأصل المبنيّ منه، ويبعد أن يكون أصل الشيء ليس منه. ولأن له كمية في نفسه، فإنه إذا قيل: (كم عندك)؟ صح أن يقال في الجواب: (واحد)، كما يقال: (ثلاثة) وغيرها.

المنجد:

العــدد الصحيح (ع ح): مؤلف من وحدات مثل ١، ٢، ٣، وتســتعمل لفظة العدد بمعنى الصحيح منه، وتأتي بمعنى الوحدة، كقولهم: (ثلاثة من العدد).

(١١٣)

سورة الفلق

مكية وهي خمسة آيات

(١١٤)

سورة الناس

مكية وهي ستة آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ) (٢٩١) .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) (٢٩٢) .

هاتان(٢٩٣) الســورتان ـ ســورتا (الفلق) و(الناس) ـ من الســور التربوية، التي تعالج مشكلة كبيرة من مشاكل الحياة، معالجة نفسية.

فالإنسان ـ فور ما يبدأ بممارسة الحياة ـ يشعر بأنه في زحمة مواجهة شرسة ضد طاقات مخيفة، تغالبه في كل كلمة وخطوة، وتكيد له بوسائل عادية وغير عادية، ويمكن أن تصطدم به في أية لحظة. وإذا اصطدمت به، فستحطمه وتقضي على حياته المادية أو المعنوية.

فالإنسان، كما هو غارق إلى قمته في عدد لا يحصى من نعم الله ـ المادية والمعنوية، الداخلة والخارجة ـ ابتداءً من السماء والأرض، والليل والنهار، والبرد والحر... ومروراً بالحيوان، والنبات، والجماد... وانتهاءاً بالأعضاء، والأنسجة، والخلايا...، كذلك هو أسير عدد لا يحصى من الأخطار والآفات، فأكبر النعم قد ينقل إلى أخطر البلايا: فـ(الماء) الذي هو مادة الحياة، كم تحول إلى طوفان مدمر؟! وكم أغرق الأفراد والجماعات؟ وكم جرف من الناس والماشية والمزارع والقرى والمدن؟! وكم حمل من الأوبئة والجراثيم؟! و(الأرض) التي هي أم الإنسان، كم انخسفت فابتلعت؟! وكم انفجرت براكين فأحرقت؟! وكمن اهتزت فنقضت ما حولها من الحياة والأحياء؟! و(الهواء) الذي لا يستغني عنه شيءٌ من الأحياء، كم اهتاج فاكتسح؟! وكمن نقل من أشعة فسمم؟! و(الحيوانات المفترسة)، و(السامة) و ـ حتى ـ الأليفة...

وبنو الإنسان، وحتى الأقرباء والأصدقاء، وحتى الأزواج والأولاد... وكمن صبوا عليه من ويلات؟! وكم قادوه إلى المخازي والنكبات؟! وكم نغصوا عليهما الحياة؟! وهكذا... كل شيء.

فلا يطمئن الإنسان إلى شيء ويحاول أن يسند إليه رأسه، إلا ويتوجس تحوله إلى خطر داهم.

وهو يعلم أن طاقاته محدودة فقوة الردع فيه محدودة، وليس وراءه سند يضمن له الانتصار، وليس له حصانة تؤمن له السلامة، فتتراقص أمامه المخاوف والأوهام. وكلما توسعت خبرته في الحياة، اكتشف مكامن جديدة للخطر. فأصبح كالأعزل في حقول ألغام، لا يحمل قدماً إلا وتصيح به المخاوف المستحكمة في أعماقه لإرجاعه إلى الوراء، حتى تشلّه عن العمل الجاد الشجاع، وتتركه فريسة سهلة للشعور بالضعف والمسكنة. وهنا... تأتيه النجدة القرآنية في عمليتين:

الأولى: توجيهه إلى السند الإلهي، بإشعاره بأنك لست وحيداً ولا مهملاً، بل وراءك الله، الذي هو أقوى من كل قوى. فاستعذبه من كل ما تخاف وتحذر، فهو يسمعك ويراك. فلا تدع المخاوف الغامضة من المجهول تعقد مسيرتك، وتقعدك عن العزائم والعظائم.

الثانية: تبديد قلقه من الاحتمالات، ابتداءاً بإحصاء مصادر الخوف تمهيداً لتصنيفها، ثم هلهلتها وتصفيتها. فيفرزها إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى وردت في سورة (الفلق)، وتتألف من أربعة أصناف، هي:

١ـ الخلق، مطلق الخلق. سواء أكان من العناصر الشريرة، التي تمارس الشر تعبيراً عن مركب الشر في ذاتها، كالشر السام والحيوان السام، الذي يعاني من سموم لا يقدر على كظمها، فينفثها لا ردعاً ولا انتقاما، وإنما ارتخاءً أمام فيضان الشر في ذاته. أو كان من العناصر الخيرة التي قد يصدر منها الشر، كالإنسان الفاضل الذي قد يتنزّى الشر منه، عجزاً عن مقاومة الشر الذي يتصارع فيه مع الخير.وكالنبات السام. والطوارئ الكونية، كالخسوف، والسيول، والفيضانات، والزلازل، والبراكين، والرياح الوحشية، والصواعق الهادفة...، التي تفاجئ الإنسان ردعاً أو انتقاماً أو تثويباً.

٢ـ عناصر الظلام. التي تسعى خلف مآرب ظالمة، لا تستطيع كسبها في النور، فتخطط لإنتهازها في غفوة الظلام. فتتسلل ـ دائماً ـ لاغتيال المصالح العادلة، بإرتكاب جرائم: القتل، والسرقة، والخيانة...

٣ـ عناصر التسلقات. التي تمزق بالوسائل الخفية، فلا تبحث عن الطرق المعتادة والمعقولة، وإنما تنبش عن الوسائل غير المعتادة وغير المعقولة ـ في الذهنية العامة ـ ، كالذين يعملون لإيجاد العقد الاجتماعية والنفسية، بهمساتهم المسمومة التي تشبه النفث وقمة هؤلاء هم (السحرة) الذين يقرأون أورادهم وينفثون في العقد ـ التي هي إحدى وسائل السحرة ـ . ويركز القرآن على هذه الصورة التي قد تبدو للبعض أسطورية، لمواجهة الواقع بكله، وعدم التكتم في شيءٌ من معاناته.

٤ـ عناصر الساقطين. الذين لم يحظوا بحياتهم، فيحسدون حظوة الآخرين بحياتهم، وينطلقون من قاعدة (الحسد) لهدم (الناجحين).

المجموعة الثانية: وردت في سورة (الناس)، وتتألف من صنفين، هما:

١ـ القوى المستورة المشككة. كالشياطين التي تهتم بإثارة الضباب حول الخيرات، حتى لا يسعى إليها روادها.

٢ـ القوى البشرية المشككة، التي تحاول إجهاض المواقف البناءة، فتتستر بالمظاهر البريئة، من: حبّ الخير، والحرص على مصلحة الآخرين، والقرابة، والفن، والعلم، والدين، والوطن، والنظام... فتعمل من وراء الكواليس، من أجل انتشار التردد، حتى لا يتخذ الناس تصميماً على عمل إيجابي قد ينفعهم.

إذن: فجميع مصادر الشر تتلخص في هذه الأصناف الستة.

وكلها تزامل الإنسان في دائرة الخلق، فكلها متهافتة أمام (ربّ الفلق) و(رب الناس)، فليست سلطات إلهية عليا، لا يجد عنها الإنسان مهرباً أو معاذاً.

علـــى أن الأخطار المجهولة الغامضة هي التي تهول الإنســـان وتربكه ـ فيصرعه ارتباكه ـ ، أما إذا عرف حدودها وخيوطها فيستطيع أن يتخذ منها الحيطة والحذر.

وسميت الأولى: سورة (الفلق)، لأنها تدور على محور واحد، هو الانفتاح، مبشرة بأن الحياة كلها رحاب منفتحة، وأن الجوانب المظلمة فيها زوايا محدودة لا تعتم الحياة، والنور منتصر على الظلام: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً...)(٢٩٤).

وعلى الإنسان أن ينفتح للنور، وأن لا يتعقد بالظلام.

وســـميت الثانية: سورة (الناس)، لأن الناس نقطة ارتكازها، فهي تحاول تصعيد معنوياتهم، واستعلائهم على الوساوس والشكوك. فالإنسان أقوى من مصادرها، حتى ولو كانت هي (الجنة) و (الناس).

لأن الله يساند القوى الخيرة، ولا يساند القوى الشريرة.

ويبدو من الأحاديث التي تعرض ســـبب نزول هاتين الســـورتين: (المعوّذتين)، أنهما مدنيتان، وإن كان المعروف أنهما مكيتان.

الفلق

أمر الله نبيّه بالاستعاذة به من شرور خلقه كافة، ثم سلط الأضواء على الأنواع السابقة من الشرّ، فقال: ـ

(قُـــلْ) أنت ـ يا محمّد! ـ وليقل المســـلمون مـــن وراءك: (أَعُوذُ). فكلما اســـتعملت كلمة (قل) يراد بها الخطاب النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ممثلاً كل المسلمين إلى يوم القيامة.

وعادة يســـتخدم القرآن كلمة (قل) في مجال التحدي أو الحوار، وتأتي بعدها مواضيع إيمانية لا يقرها غير المؤمنين، وتأتي بصورة جازمة صارمة لا تردد فيهما ولا تراجع، ســـواء أقبل الآخرون أم رفضوا، لأنها من الواقع الذي لا يرفضه إلا من ركب رأسه مصراً على موقفه غير مبال بالنتائج.

و(الاستعاذة) هي الالتجاء من سطوة غاشمة، بزيادتين: ـ

الأولى: أن كلمة (الاستعاذة) توحي برهبة أكثر مما يوحي به كلمة (الالتجاء) فالاستعاذة لا تكون إلا عن فزع عميق من خطر داهم لا مهرب منه.

الثانيــة: أن العــوذة تكون مع التصاق وحميمية أكثر بالمســتعاذ إليه من التصــاق اللاجئ بما يلجأ إليه، كالتصاق الطفل بأمه. ولعل (أعوذ) يساوي (الوذ).

وللإعاذة درجات هي: ـ

الأولى: ـ الاســتعاذة الشــفوية، التــي تصدر عن الذين يحاولــون قراءة القرآن، ومســحها بعدد الأجزاء والصفحات.

وهــذه الاعاذة أثيــرة ـ بقدرها ـ فهي لا تعدم أثر الكلمة. والكلمة عندمــا تطلق، تحدث موجة باقية في الفضاء، لها تفاعلاتها الكونية.

وتأثير الكلمة المنسّــقة، من المســلمات التي يحاول العلماء المتخصصون تدجين طاقتها، واستخدامها في أغراض واسعة النطاق.

ويشــهد بها: (السحر) و(الأوراد) و(الرياضات الروحية)، التي تعتمد على أثر: الحرف المفرد، والحروف المركبــة كلمة، والكلمة الوتر، والكلمة الملتحمة مع مناســبتها فــي الجملة. وقد تخصص بهذا الموضوع (علم الحروف).

الثانية: ـ الاستعاذة القلبية. التي توجه كل الأعصاب والخلايا إلى الله ولا شك أن الله ـ تعالى ـ يجيب عباده كلما اتجهوا إليه: (وَإِذا سَــأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ...)(٢٩٥)، وفي الحديث القدسي: (عبدي! اقترب مني شبراً أقترب منك ذراعاً، واقترب مني ذراعاً أقترب منك باعاً)(٢٩٦)...

بالإضافة إلى: أن مجرد توجيه الأعصاب والخلايا إلى أية نقطة خارج الجسم، حركة تمركزية. ومعروف ـ لدى المختصين بتمركز الأفكار ـ أن من يســتطيع تمركز أفكاره أكثر من عشــرة دقائق في نقطة واحدة لا تذبذب، يكتســب قوة هائلة في الإرادة يســتطيع أن ينقل بمجرد إرادته ـ الصخور الجبارة من مراسيها، وأن يخترق جدران الفولاذ، ويعمل الأعاجيب...، في مجال الواقع لا في التصوير المشعوذ.

الثالثــة: الاســتعاذة الروحيــة. التي تتصل فيها الــروح بالمصــادر التنفيذية العليا، فيما يشــبه عملية (الوحي).

وهذه الدرجات الثلاث للإعاذة، هي التي تفرزها الفوارق الإيمانية بين المؤمنين:

فالمؤمنــون العاديون تدور اســتعاذتهم في الدرجة الأولى. فإيمانهم ليس أقدر مــن إنتاج حركات قليلة الصلــة بالعقل القلب، فهي تأثرات بالواقع الإيماني المتأصل في البيئة والمناخ، ويمكن تصنيفها انفعالاً أو رد فعل، وليس فعلاً ولا تفاعلاً.

غيــر أن هذا الانفعال ـ رغم ســلبيته ـ لا يعدو أن يكــون تأثراً، ومجرد التأثر بمصــدر الفيض نوع من الإيجابيــة، لأنه يعبر عــن قابلية في ذات المتأثر، ومجــرد قابلية الذات يكفي دليــلاً للفيض المطلق إلى المخلوق.

ولعل في تأثير الاستعاذة ـ في التعليم القرآني ـ بكلمة (قل) إيحاءاً بأن الاستعاذة تتم بمجرد القول، ولا تتوقف آثارها على الاستعاذة الروحية الكاملة. فمجرد الاستعاذة الشفوية، يكفي لاستدرار الإعاذة بمقدار ما يصون شخص المستعيذ من مصدر الشر الذي يستعيد منه.

والاســتعاذة القلبية التي يتحرك فيها القلب نحو الله ـ ســبحانه ـ وتتبعه المشــاعر والخلايا جميعاً، فهي الحالــة التــي لا تعتري غير المؤمنين الصادقيــن، الذين لم يتبلد الإيمان في عقولهم فكرة مترســبة، وإنما إيمانهم حركة واعية تنشط كل مشاعرهم، فلا يلوح لهم خطر إلا ويبادرون إلى أعلى مصادر الأمن، فتتجه قلوبهم إليه، وتنطلق وراءه مشاعرهم كلها.

وإذا كان الله ـ تعالى ـ يهب عطاياه لمن يســأله ولا يعرفه تحنناً منه ورحمة، فكيف يمكن أن يكف مدده عن الذين عرفوا كيف يطرقون باب فضله، ولم يطرقوا باب سواه؟!

وأمــا الاســتعاذة الروحية، فهي حالة قدســية تختص بالأنبيــاء، لأن أرواحهم تتمتــع بدرجة من القوى يستطيعون بها استلهام المدد المباشر من أوسع أبوابه، فهم يستقبلون من المدد ما يكفي لإنقاذ أممهم.

وهذه... حالة تشبه الوحي، فلا نستطيع تجربتها ولا استيعابها، لأنها فوق مستوى قدراتنا الروحية.

وللاستعاذة فوائد يمكن تلخيصها في أمرين:

الأول: إن الله يلبي نداء عباده، وهو الذي قال: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ؟!)(٢٩٧)، وكيف يمكن أن لا يستجيب الله تعالى لتوجهات عباده ـ وهو مصدر الفيض المطلق ـ وقد سخر مظاهر فيوضاته المادية للتجاوب مع جميع التوجهات البشرية وغير البشـــرية: فالشمس لا تتردد في التجاوب مع جميع التوجهات البشـــرية وغير البشرية: فالشمس لا تتردد في التجاوب مع كل ما يتعرض لشـــعاعها، والجاذبية لا تتقاعس عن إسداء العون لكل ما يستعين بها، والأرض لا تنكفئ عن تمديد كل ما يطلب مددها، والذرات الكونية تواصل إســـعاف كل ما يحتاج إليها مهما تهرب منها...؟!

أو هل يمكن أن تتقلص رحمة الله ـ تعالى ـ عن الخاشـــعين المخلصين، الذي يســـتدرونها رغباً ورهباً، وفي الحديـــث: (إن الله يله نفحات فتعرضوا لها)؟(٢٩٨). ونفحات الله التي أمرنا بالتعرض لها، هي عناياته المعنوية التي وظبها في المناســـبات المتبركة: كليلة القدر، وأيام وليالي الجمعة، وســـائر الساعات والليالي والأيـــام... التي خصصها بأنواع معينة من اتجاهات رحمته. كما وقـــت عناياته المادية بأوقات معينة، فنظم حركـــة: الرياح، والأمطار والأنهار، والبحار، والفصول... بأوقاتها المعروفة فيكون العرض لعناياته المعنوية بأسلوب خاص ـ مذكور في السنن ـ ، كما يكون التعرض لعناياته المادية بأسلوب خاص ـ مذكور في علوم الطبيعة ـ .

الثاني: أن مطلق التوجه إلى الله يثير في الإنســـان قدرات هائلة. وإذا كان تذكر البطولات يحرك المخزون الاحتياطي من البطولة في النفس، وإذا كان مجرد التفاتة إلى شـــاعر يفتح نافذة الشـــعر، وإذا كانت استعادة ذكريات: فيلسوف، أو سياسي، أو أي عبقري... يهيج الموهبة المناسبة، فهل يمكن أن لا تزيد الاستعاذة بالله شـــيئاً في الإنسان؟! إن مجرد تذكر الله ـ نفسياً ـ يرفع معنويات الإنسان، وأما الاستعاذة به فتحرك له مطامح علوية لا تحدّ.

بِرَبِّ الْفَلَقِ

في التعبير عن المستعاذ به بالـ(ربّ) دلالتان:

الأولـــى: أن المربوب تكريس للحاجة المطلقة، فهو الذي لا يســـتطيع الاســـتقلال بشـــؤونه، ولا يمكنه الاستغناء عن ربّه، كالطفل الذي لا يستغني عن مربيه، فالتجاءه إليه عفوي لا تحفظ فيه.

الثانيـــة، إن الربّ تكريس للعطاء المطلق، فهو الذي يعطي: المـــدد، والإدارة، والتوجيه... لمربوبيه، ولا يجعل عطاءه محدوداً ولا مقابل جزاءٍ. فمنحه اللجوء لمربوبيه، عفوي لا تكلف فيه.

هذا... في المربين العاديين ـ كالأم مثلاً ـ . وأما المربي المطلق، الذي ابتدأ بمنح الود بلا استحقاق، فلا يمكن أن يحدد العطاء من جانبه. وإذا وجدنا حدوداً ـ أو سدوداً ـ فهي من جانب المربوبين، لأنهم غير مؤهلين لاستيعاب المزيد.

فالفيض من الله يأتي، ولكن الموجودات ـ بما فيها الإنسان ـ محدودة الاستعداد: فالذبذبات الكونية تتجه إلينا بالمليارات للثانية، ولكن آذاننا لا تستقبل إلا كلمات معدودة منها. وأشعة الشمس تملأ أبعاداً رحيبة من الفضاء، ولكن أجسادنا لا تمتص إلا جزءاً يسيراً منها. والأوكسجين يغلف الأرض، ولكن لا نستنشق منه إلا بقدر رئتنا. والطعام والشراب كثيران، ولكن كل فرد يتزود منهما بمقدار معدته. والمال في الدنيا أكثر من الأرقام، ولكن كل إنسان يأخذ منه بقدر طاقته على الأخذ. والأقمشة في العالم كثيرة، ولكن كل واحد يلبس بقدر قامته. والكراسي في الحياة كثيرة ومتدرجة، ولكن كل ذي طموح يجلس على الكرسي المتناسب معه. والفضاء رحيب، ولكن كل شيء يملأ حيّزه...

فمثلنا مثل إناءٍ مساحته نصف متر مكعب، يوضع في قاع المحيط، فيمتلأ بنصف متر مكعب من الماء. ولكن هذا... لا يعني أن مياه المحيط نصف متر مكعب، وإنما يعني أن مساحة الإناء نصف متر مكعب. هكذا... عطاء الله غير محدود، ومتاح للجميع ولكن كلاً منا يأخذ بقدر ما هو: (الإنسان) لا بقدر ما هو: (عطاء الله).

(الفلق): هو الشق، بمعنى المشقوق. فهو (صفة مشبّهة) بمعنى المفعول، كالقصص بمعنى المقصوص. ويكثر إطلاقه على (فلق الصباح)، و(فلق الحب)، إهتداءاً بقوله تعالى.

(إِنَّ اللهَ فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ. ذلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ؟! فالِقُ الإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)(٢٩٩).

وهو ـ في مجمل أطلاقاته ـ يشبه كلمة (الانفتاح) التي لا تستخدم إلا للتعبير عن الخير، فيعني أعوذ برب الانفتاح: انفتاح الليل بالنور وانفتاح الحب بالنبات، الذي يحول ظلام الليل إلى نور ويحول جمود الحب إلى حركة النبات، من القوى الفاشلة التي لا تجد لها طريقاً في نور الحق والواجب، فتعمل في ظلام الجهل والأنانية، لتجمد الحركة، ولتعطيل الحقوق والواجبات.

وإذا أمكن استنباط مفهوم مطلق الانفتاح (الفلق)، فانفتاح العدم بمطلق موجود يكون فلقاً، فيكون المعنى: أعوذ برب الخلق من شر ما خلق. وهو ـ على أي حال ـ من أروع التعابير القرآنية، لأن فيه إيحاءاً بأن الاستعاذة إنما هي بمصدر النور والخير، فهو المصدر الطبيعي للأمن الذي تكون الاستعاذة به طبيعية

من مصادر الشـــر، لأن من شـــأنه توســـيع الخير وتقليص الشـــر. فهو مربي العباد، الذي يكفل شؤونهم، ويكلأهم من الكوارث والنكبات.

ويروى: أن الفلق جبّ في جهنم(٣٠٠). وعلى هذا... فيكون معنى الآية: أعوذ برب هذا الفلق من شر ذوي الشرور. فتكون استعاذة طبيعية، حيث يلجأ الناس ـ عادة ـ من القوي بالأقوى، ومن القادر بالأقدر.

مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ

١. طبيعة الشر

(الشرّ): هو الألم، كالصداع، وأطلق على كل ما يولّد الألم مجازاً، حتى أصبح كالحقيقة لا يحتاج إلى قرينة. فيطلق على: السمّ، والكفر، والخطيئة... لأنها تولّد الألم في الدنيا أو في الآخرة. وإذا كان بعضها يولّد لذّة عاجلة مؤقتة، فهي ـ عندما تقاس بالألم الناتج منه ـ تتضاءل، لأن الألم أشد وأعمق وأطول أمداً. فيكون كالطعام اللذيذ المسموم، الذي تكون لذته سطحية عابرة، وألمه عميقاً طويلاً.

بالإضافة إلى: أنه لا توجد ـ في الدنيا ـ لذّة لا يخامرها ألم، في إعدادها وفي ممارســـتها. فتصح المعادلة بين حجم اللذّة وحجم الألم، لتقييم ما يولدهما خيراً أو شراً. فإذا أعقب ألماً طويلاً من بلاء الدنيا أو عذاب الآخرة، يتقلص عنه طيف اللذة خيالاً زائفاً.

ولا فـــرق بين ألم الجســـم وألم الروح، فكلاهما ألم، وإذا كان بينهما فـــارق ففي جانب ألم الروح، لأن الإنسان يحتمل ألم الجسم عادة، ولا يحتمل ألم الروح، فيرجح عليه الفناء منتحرا في كثير من الأحيان.

٢. الشر المتوقع والواقع:

والشر نوعان:

الأول: شـــر متوقع تندفع عوامله نحو حيّز الوجود، فيطلب دفعه. كشـــر (النفس) التي تحدّث الإنســـان بالانفلات من الضوابط الفكرية، والتورط في الجرائم والمرديات.

الثاني: شرّ واقع حدث فعلاً، فيطلب رفعه كشر (الذنوب) التي أرتكبها إنسان، وأصبح يعاني نتائجها.

وقد وردت الاســتعاذة من النوعين في دعاء النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث قال: (نعوذ بالله من: شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا)(٣٠١).

٣. مصدر الشرّ:

والشــرّ: قد يصدر من الإنسان ويعود إليه، كشر المخالفات الحياتية والذنوب. وقد يصدر من غيره ويقع عليه، كشر نظيره الإنسان، وشرور الحيوان والنبات والطوارئ الكونية. فكل مصادره من الخلق، وليست من الخلق، ولذلك قال:

(مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ)، لحصر مصادر الشر في المخلوق، وعدم توهم استنادها ـ أو بعضها ـ إلى الخالق.

فالخالق لا يصدر منه سوى الخير، إذ لا توجد لديه عوامل تدفعه إلى ممارسة الشر. وأما مصادر الشرور التي قد يتذمر منها الســطحيون، ويحاولون التخلص من مسؤوليتها بإلقاء لومها على الله، فيمكن تصنيفها في صنفين، هما شرور النظام وشرور الحياة:

٤. شرور النظام:

فأما شــرور النظام: كقتل القاتل، وقطع السارق، وسجن المدين، وســائر العقوبات الجزائية... فهي وإن كانت شروراً بالنسبة إلى المجرمين الذين يتلاحقهم إلا أنها خير:

بالنسبة إلى من يعتبر منها، ويتعلم منها دروساً في الابتعاد عن الجريمة.

وبالنســبة إلى المجتمع ككل ـ بما فيه المجرمون أنفســهم ـ الذي يكون بفعل العقوبات مجتمعاً عادلاً يتوازن فيه الثواب والعقاب من جهة، ومن جهة أخرى لا يكون معرضاً لسيطرتهم عليه. لأن المجتمع إذا لم يكافح الجريمة بحزم، اندفع المجرمون بجرائمهم في خط تصاعدي نحو الســلطة فإذا استولوا عليها، تربع على قمتها أســوأهم ليمارس الجريمة بحق المجتمع كله ابتداءً من الذين التفوا حوله وحملوه على أكتافهم حتــى أوصلوه إلى القمة. فيعيشــون حياة شــقية يموتون فيها كل يوم مائة مــرة، ويتمنون لو كان المجتمع يعاقبهم على جرائمهم البدائية في بواكيرها، ولا يدع طموح السلطة يتولد في أحلامهم.

فالتضحية بأصحاب النفوس المجرمة، في تجاربهم الأولى للجريمة: أيســر على المجرمين أنفســهم، وأحفظ للمجتمع كله، ولعلها هي الحكمة القرآنية حيث يقول:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ ـ يا أُولِي الأَلْبابِ! ـ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(٣٠٢).

وحيث يستنكر على العاطفيين البسطاء، الذين يشفقون لمظاهر الذلّ على المجرمين، حيث يقعون تحت طائلة العقاب:

(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ؟! أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ؟!) (٣٠٣).

ومن هنا... نتبين: أن شرور النظام، ليست ـ في الواقع ـ شرور النظام، وإنما هي شرور المجرمين التي وجهوها إلى المجتمع البريء، فاستقبلها النظام ليعيدها إلى المجرمين أنفسهم.فهي شرورهم عادت إليهم بفاصلة النظام، ليتكون أشبه بالصنف الثالث من الشرور، الصادر من الإنسان إليه، كشر المنتحر.

شرور الحياة

والشر، أحد المحركين الأساسيين المتكاملين لتجربة النمو في الحياة، فلو فقد أي منهما بطلت تجربة النمو، وكان مجيء الإنسان إلى هذه الحياة باطلاً. فلا يأخذ روح الإنسان مداه، ولا تتفتح قابلياته الغامضة، إلا في زحمة الصراع الجادّ القاسي.

كما أن جسم الإنسان لا يبلغ مداه، ولا تنطلق طاقاته الكامنة، إلا في زحمة العمل الجادّ القاسي. فلو لم يكن الشياطين وذيولهم من جهة، والأنبياء وأنصارهم من جهة أخرى، لما نشب صراع، فلم يعترك الإنسان، وخرج من هذه الحياة ـ كما دخلها مبهماً غامضاً، لم ينضج ولم يكتمل.

وإن تجاربنا الحياتية، تكشف هذا الواقع ـ بوضوح ـ :

فالسياسي تتبلور مواهبه السياسية، في ظل الديمقراطية واللعبة البرلمانية الحرّة، حيث تتناقض التيارات وتتشابك، في حوار مرير بمختلف الوسائل، للتنافس على أوسع مساحة من الشعب. لا في ظل ديكتاتورية عسكرية، تجبر كل الشعب على تقديم القدم اليمنى واليد اليسرى، وتأخير القدم اليسرى واليد اليمنى معاً، وترديد كلمة واحدة تتوالى أحرفها من كل الأفواه معاً.

والاقتصادي ينبغ في ظل نظام اقتصادي يأذن بتكافؤ الفرص، والتنافس ولا البوادر الفردية. لا في ظل نظام اشتراكي يفرض على التاجر: أن يشتري بضاعة معينة، من مصدر معين، بسعر معين، ليبيعها على

مستهلكين معينين، بسعر معين.

وهكذا... الفيلسوف، والأديب، والحقوقي، والعالم، وسائر أصناف الناس...

فوجود الشـــياطين والمجرمين ضروري ـ لحفظ المعادلات الروحية ـ إلى جانب وجود الملائكة والأنبياء. تماماً... كما أن وجودالســـموم والجرائم الأوبئة ضروري ـ لحفظ المعادلات الصحية ـ إلى جانب المطهرات وأمصال الدم والفيتامينات.

فأصل (وجود الشـــر) خير، لتأمين، معادلات الحياة، إنما على الإنسان أن يحرك مواهبه في اختيار خطه الروحـــي عبر الحياة، ويكون حكيماً باتخـــاذ قراراته ومواقفه، ومرناً حذراً في خطواته والتفاتاته، بمقدار ما يحـــرك مواهبه في اختيـــار خطه بين بيته ومكتبه، وبمقدار ما يكون مرناً وحـــذراً في خطواته والتفاتاته عبر شارع مزدحم...

فوجود الشـــرّ لا يعني إلا أن الحياة الروحية شـــائكة وملغومة، فيلزم استخدام الذكاء والدقة فيها. كما أن الحياة المادية شائكة وملغومة، فيلزم استخدام الذكاء والدقة فيها.

وأما الحيوانات الســـامة والمفترســـة، والهوام المزعجة...، فوجدها لمصحلة الحياة. فالحيوانات السامة ـ مثلاً ـ تكفّر عن الإنسان، لأن الإنسان يلوث البيئة بلا مبالاته وجهله، وهذه الحيوانات تعقم البيئة، وتحضر ـ للإنســـان ـ كميات كبيرة من الســـموم، التي يســـتفيد منها في مجالات شـــتى... إلى آخر ما تعني به علوم الحيوان.

وأما الطوارئ الطبيعية، فهي ـ أيضاً ـ لمصلحة الحياة. وتفاعيلها في علوم الطبيعة.

(مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ): أي من كل شر صادر من أي مصدر من مصادر الشر من مختلف خلق الله، سواء أكان: من الإنس، أو من الجن، أو من الحيوانات، أو من الشـــيطان، أو من سائر فصائل الخلق الفاعلة في الكون، منظورة كانت أو غير منظورة.

وهذا التعبير لا يعني أن كل خلق الله شرير، وإنما يعني أني أعوذ بالله من مجمل شر صادر من مطلق خلق الله، فهو يساوي ما لو كان التعبير أعوذ بالله من كل شر، بفارق واحد وهو: أن في استخدام كلمة (ما خلق) إيحاءً بأن كل الشر صادر من خلق الله الخاضع لإرادته، فهو أقوى من يمكن الاستعاذة به.

(وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ).

(الغسق): هو السيلان، ومنه (الغسّاق) ـ الذي هو شراب أهل النار ـ ، ويطلق على السائر بالليل. و(الوقوب). هو الدخول أو الخروج، مع العموم والشمول. كدخول السيل والليل. و(الوقب): هو النقرة في الصخرة يجتمع فيها الماء. ويقال: وقب الماء، إذا دخل في وقت. ووقبت الشمس، إذا غربت. فيكون المعنى: وأعوذ من شر المتحرك في الليل إذا دخل متفحصاً متفتشاً.

وجاء التركيز على المتحرك بالليل، لأن أكثر أصحاب النوايا، السود كانوا يستظلون بالليل، حتى قيل: (الليل أخفى والنهار أفضح)، و(الليل أخفى للويل). وحتى بعد تفجير الليل بالكهرباء، بقي مشحوناً بكل الاحتمالات والتوترات، وبقي أفضل مناخ للحركات المشبوهة.

وقيل: الغاسق: كل هاجم بشره، كأئناً من كان. وقيل: الغاسق: هو الليل ذاته، لأنه الأفيون الذي ينوّم الجماهير ويوقظ الخائفين منها، وهو الغطاء الذي تتحرك فيه ظله الهوام والسباع المؤذية، وتشتد الأمراض، وتنشط الجراثيم... فيكون المعنى: ومن شر الليل إذا احترق النهار.

وقيل: الغاسق: هو الليل البارد، لأن الغسق ورد بمعنى البرد، ومنه قوله تعالى:

(هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ)(٣٠٤)، فقد فسّر الغساق بالزمهرير، يحرق ببرده كما يحرق الجحيم بحرّه.

وقيل: الغاسق هو الغمر، لما ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه نظر إلى القمر ثم قال: (هذا هو الغاسق إذا وقب)(٣٠٥).

وقيل: الغاسق الواقب: هو القمر في خسوفه، وما يغشاه في سواد.

وقيل: الغاسق: هو القمر، ووقوبه محاقه في آخر الشهر، وفيه يكثر النحس والشؤم.

وقيل الغاسق: هو الثريا، فإن الأسقام تكثر عند سقوطها وغروبها.

وقيل: الغاسق: هو الحية، لأن السم يغسق ـ أي يسيل ـ من نابها، ووقب نابها: دخل في اللديغ.

(وَمِنْ شَـرِّ) النساء (النَّفَّاثاتِ) الواتي ينفخن سـمومهن (فِي الْعُقَدِ) التي يسحرن بها. فمن أشره أنواع السـحر هو السـحر بتعقيد خيط. والنفخ في عقده لتعقيد قضية معينة. فجعلت العقد رمزاً للسحر. واختار القرآن (النفاثات) مظهراً لهذا النوع من السـحر، لأن اندفاع المرأة إذا لم تكن صالحة نحو السـحر ـ وكل الحيل والخطط الجهنمية ـ أكثر من الرجل، كنتيجة طبيعية لثلاثة عوامل هي:

١ـ الفراغ الواسع. فالمرأة ـ غير الصالحة ـ تجد في بيتها فراغاً ربما لا يجده الرجل في مجتمعه.

٢ـ الغيـرة المفرطة، التي تشـجعها عاطفة المرأة غير الصالحة من جانب، وتحررها من المسـؤولية من جانـب آخر: لتقدير المجتمع انه أقل مناعة من الرجل، فـلا يوقفها إلى جانب الرجل. فكأنها تعيش تحت غطاء فدائي اسمه (الرجل).

٣ـ الشـعور بالضعـف، غير المعقول في المـرأة الطالحة على أثر التركيبة الفيسـيولوجية الألوانية. فلا تسـتطيع مزاحمة الرحـل على دوره، فيكون هو القوة العليا في البيت وتكون هـي القوة الثانية. لأن الرجل عندما يريد شـيئاً يأخذه بهيبته كمسؤول، أو بقوة عضلاته إن أعوزته الوسائل. والمرأة عندما تريد شيئاً ولا تستطيع أن تناله لا بهيمبتها ولا بعضلاتها، ولا تسمح كرامتها بالخضوع لإرادة الرجل، والتنازل عن إرادتها المستقلة، تجد نفسها مضطرة إلى ممارسة وسائل غير مشروعة.

وهذه العوالم تسـحب المرأة غير الصالحة لممارسـة السحر والحيل، للتوسل بالتحرك خلف الكواليس وفي الظلام، ولإستخدام ـ حتى ـ الجنس أن اقتضت الضرورة وأحياناً.

وهذه الظاهرة تكشف أن المرأة غير الصالحة هي اليد العابثة خلف الستار، فيما الرجل هو اليد المنطلقة تحت الأضواء. فقلما توجد مشكلة، ولا معركة صغيرة أو كبيرة، إلا ووراءها عيناً امرأة طالحة. وقلما توجد أزمة عائلية أو دولية، إلا ومقدحتها امرأة غير صالحة ووقودها رجل.

ولعل هذه الظاهرة هي التي أدت إلى استخدام المرأة ـ في التعبير القرآني ـ كمظهر للأعمال الملتوية التي في قمتها السحر، وربما دون أن يكون المقصود من (النفاثات) الساحرات فقط.

و(النفث): هو النفخ المسـموم، كنفث الأفاعي، وتسـتعار هذه الكلمة للأحاديث الهامسـة التي تغري بالانحراف، وتزحلق الأبرياء بالتورط في المشـاكل. والهمس الناعم الذي يفتح أبواب جهنم، من اختصاص المرأة غير الصالحة.

و(العقد): هي عقد الخيط والحبل، وتستعمل في كل العقد الفكرية والاجتماعية والسياسية وغيرها... فدورها ـ في مجالاتها ـ كدور العقد في الخيط، لأنها تخرج الأمور عن استرسالها الطبيعي.

ولعل (أبا مسلم) أراد هذا المعنى عندما قال: (النفاثات: النساء اللائي يعطفن آراء الرجال، ويردونها إلى آرائهـــن، لأن العزم والرأي يعبر عنهما بالعقد، فعبر عـــن حالها بالنفث، فإن العادة جرت أن من حل عقدة نفث فيها).

وعلى ضوء ما سبق، ربما يستعان في تصوير تعميم: (النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ) للموارد التالية:

١ـ كل العاملين في الحقول السحرية: الذين يتوسلون بالأرواح الشريرة المحيطة بنا في عالمنا، أو يقومون بتركيب بعض الأحرف والأشياء بالأشكال تؤدي إلى نتائج سحرية.

٢ـ النساء اللواتي يستخدمن إغرائهن لتوريط الرجال في جرائم، أو لتثبيطهم عن الفضائل.

٣ـ جميع الدساسين والمدلســين الذي يعملون: لفصم الروابط الشرعية، أو لعقد الروابط غير المشروعة بين الأفراد أو الجماعات.

وإذا كان مورد نزول الآية بنات (لبيد بن أعصم)، اللواتي حاولن ســحر رســول الله (صلى الله عليه وآله وســلم)، فإن الآية القرآنية قد تأخذ المورد المعاصر لنزولها مناســبة لنزولها، وتعمم مضمونها على جميع نظراءه.

وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ

فالحســد عقدة نفسية ناتجة من تلاقح الشعور بالنقص مع حب الاستئثار، وهذه العقدة مترسبة في أكثر النفوس، غير أن الواعين يعملون لحل هذه العقدة بإحدى طريقتين:

الأولى: طريقة اســتثمار الشــعور بالنقص للعمل الإيجابي الهادف إلى إزالة النقص، بدلاً من توظيفه في العمل السلبي الهادف إلى تخفيض الآخرين إلى النقص ذاته حتى لا يستعملوا عليه.

الثانية: طريقة مكافحة حب الاســتئثار بممارســة الإيثار، حتى ينطبع بحب الإيثار، الذي هو كمال يعلو على كثير من الكمالات، التي يحسد عليها الآخرون.

ومحاولة حل (عقدة الحسد) من الشرائط الأساسية لكل من يريد استخدام مواهبه للانطلاق بنفسه ـ أو بمجتمعه ـ في الأجواء العالية. لأن الحس سيف ذو حدين، يصيب الحاسد قبل أن يصيب المحسود، ووقعه على الحاسد أشد من وقعه على المحسود، لأسباب:

الأول: أن الحاسد عندما يخصص قسماً من طاقاته لتحطيم الغير، إنما يهدر هذه الكمية من طاقاته، فلا يستطيع الاستفادة الإيجابية منهاس لنفسه فيما لو استهلكه في أي عمل إيجابي ـ مهما كان متواضعاً ـ لتقدم به شوطاً إلى الأمام.

الثاني: ـ إن الحاسد ـ فور ما يسمح لنفسه بهدم غيره ـ إنما يصنف نفسه في مصاف الهدامين، وهو أول الناس شعوراً بتورطه في السلبية. ومتى سيطر على الإنسان شعور بسلبيته، يعجز عن الممارسات الإيجابية بنجاح، لأن الشعور الداخلي بالعافية يمثل القاعدة التي تمدّ كل أعماله بالزخم الكافي لإنجاحها.

إذن: فليس للحاسد شرّ يستعاذ منه، إذا لم تستحوذ عليه عقدة الحسد، ولم تحركه نحو الممارسات السلبية، أما إذا تورط في السلبية، كان له شر مستطير لا يمكن مكافته بالقدرة البشرية، بل يحتاج الإنسان فيها إلى طلب النجدة من القدرة الإلهية للتغلب عليه.

الثالث:ـ ان الحاسد ـ فور ما يسمح لنفسه بالوقوف موقف الهدام ـ إنما يحيل نفسه الى التقاعد ، ويحكم على نفسه بالفشل الدائم لأنه لو كان يجد في أعماقه بقايا همة، لدخل في سباق مع المحسود، وتمنى أن يكون هو السابق، ولكنه تيقن الفشل، فتهيب الاشتراك في المباراة.

الرابع: ـ الحاسد ـ عندما يتطوع للتنكيل بالناجحين ـ إنما يستهلك أعصابه بلا جدوى. فحياته: نفسُ دائم، وحزن لازم، وهمّ مقيم لا يبرح. فمن ناحية: يحاول تعديل القضاء على هواه، وهو لا يملك التأثير فيه. ومن ناحية أخرى: يحاول قيادة الآخري بالسلبية، والناس يترفعون عن السلبيين. وقلما يركع ناجح أمام حاسديه، وإنما يستغلهم: لتصعيد نشاطه، وتحميس جمهوره.

الخامس: ـ الحاسد ـ عندما يغادر ورشة العمل الإيجابي إلى مستنقع السلبية ـ إنما يقضي على إيجابياته السابقة في نفوس المعجبين به. أو ليس في الحديث: (الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب)(٣٠٦)؟!.

والحاسد إذا بقي يغلي ويتوتر دون أن يتجه بشرّ إلى محسوده، فلا ضرر منه إلا على نفسه، فلذلك وردت الاستعاذة منه معلقة على تحركه نحو محسوده: (إِذا حَسَدَ).

وأما إذا لم يسيطر على نفسه، وأنفلت كالوحش الضاري، فلا محيص منه إلا بانهدامه أو انهزام محسوده، كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (الحسد داءٌ عياء لا يزول إلا بهلاك الحاسد أو بموت المحسود)(٣٠٧).

وإذا فشل الحاسد في تسديد ضربة إلى محسوده، فإن روحه الجهنمية تتدفق من نافذة عينه على محسوده، لتركز عليه اشعتها السامة، حتى يصيبه في ما يحسده عليه.ولا يختلف شر الحاسد باختلاف وسائله، فالعائذ ينفس من عقدته إذا عاين شيئاً مستكثراً أو متعجباً، ولم يبطل مفعول معاينته، بالتوسل إلى الله تعالى، بالأدعية المأثورة.

و(الحسد) أول ذنب عصي الله به في السماء والأرض:

ففي السماء حسد (إبليس) (آدم)، فقاده الحسد إلى الكفر، وكان رأس الكافرين بالله.

وفي الأرض حسد (قابيل) (هابيل)، فقاده الحسد إلى القتل، وكان رأس القاتلين.

فإذا شعر الإنسان بالغيرة من نجاح غيره، عليه أن يوجه هذا الشعور إلى زخم يحفزه للدخول معه في سباق، ومن يدري: لعله يكون السابق، أو يكون اسمه في المتسابقين ـ على الأقل ـ . ويكفيه أن يكون قد استجاب لنداء القرآن.

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ)(٣٠٨)، وأن يكون قد بقي في موقف الإيجاب ونال تزكية الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث قال: (المؤمن يغبط، والمنافق يحسد)(٣٠٩).

الناس

حسب تسلسل نزول القرآن، لم تكن هذه السورة أول سورة ولآخر سورة، ولكن الله الذي تولى تنظيم القرآن فقال:

(إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ)(٣١٠)، هو الذي جعلها خاتمة القرآن، لتوجه الأذهان ـ بعد نهاية المطاف في القرآن ـ إلى أن الإنسان، مهما بلغ رشده الفكري والروحي، يبقى بحاجة إلى الله في التخلص من القوى الشريرة، البشرية وغير البشرية.

كما أن سورة (الحمد) لم تكن الأولى ولا الأخيرة، ولكن الله جعلها فاتحة الكتاب، ليبدأ الإنسان جولته في القرآن بحمد الله وطلب الهداية منه. فهو: في اهتداءه يحتاج إلى الله، وفي سلامته يحتاج إلى الله.

يلاحظ في استهلال السورة، تسميتها بسورة (الناس). وتكرار كلمة (الناس) فيما خمس مرات، تركيز أكيد على التذكير بخطورة الناس.

ويلاحظ في الاستعاذة من الجنة والناس (بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلهِ النَّاسِ)، دون (رب الجِنة، ملك الجِنة، إله الجِنة)، مع أن الله رب وملك وإله الجِنة والناس على حد سواء، يلاحظ تركيز أقوى على التذكير بخطورة الناس.

وكأن السورة توحي بأن الشر كله من (الناس). وإذا كان في (الجنة) شرّ يستعاذ منه، فهو شر محدود يكتفي بذكره مرة واحدة وبدون تركيز. مع العلم: بأن رمز الشر هو (الشيطان)، وهو من نوع (الجنة) وليس من نوع (الناس).

ولعل السبب في ذلك أحد أمرين:

١ـ أن نسبة تأثير (النفس الأمارة بالسوء) على الإنسان أكثر من نسبة تأثير (الشيطان) عليه. فالأشرار بفعل طينة السجين (التي حملوها من شاطئ المبتدأ من غير أن يكون ذلك سالباً لاختيارهم)، يؤثرون على بعضهم ـ وعلى الأخيار ـ أكثر من تأثير الشيطان: بما يهيئون من وسائل الإغراء، وبما يوجدون من أجواء، وما يسولون من مفاسد، ويما يشوهون من مصالح. فيوجهوك إلى الأبرياء مضغوطاً ـ قد تصل إلى درجة الإجبار ـ لحملهم على الإنحراف، بينما الشيطان لا يجبر أحداً على معصية. فلو مات الشياطين وبقي الناس لما طهرت الأرض من المعاصي. بل ارتكبوا أكثر ما يرتكبونه وهم تحت إغراء الشياطين.

٢ـ إن الشيطان قلما يؤثر على الإنسان إلا من خلال الناس، فالإنسان لو استوعب كل الشياطين في قلبه واعتزل الناس: لا يستطيع أن يغري غيره إلى معصية، ولا يستطيع أن يمارس على غيره معصية. والفرد الواحد لا يقدر إلا على: المعاصي القلبية، وترك بعض الواجبات. فالشيطان يسيطر على الفرد من خلال الناس، ويغري بعضهم ببعض.

ـ الناشئون ـ عادة ـ يبدأون القرآن من آخره، لأنهم بحاجة إلى: نفس قصير، وألفاظ سهلة مهموسة، ومفاهيم أولية. وهذه العناصر، متوفرة في السور القصار. فسورة (الناس) ـ بالنسبة إليهم ـ فاتحة الكتاب. وبما أنهم أكثر توجساً من المخاوف، لقحتهم هذه السورة بشحنة ضد القلق، ليتمرسوا في الحياة بلا

ارتباك.

وإذا كان القرآن قد صنف في سـورة (الفلق) مصادر الشر الخارجية، وقزمها أمام قدرة الله المطلقة، ففي سورة (الناس) يوجه الانتباه إلى مصدر الشر الداخل، ويعتبره الخطر الأكبر. ويعبر عنه الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسـلم) بأعدى الأعداء، حيث يقول: (أعدى عدوك، نفسـك التي بين جنبيك)(٣١١). ويعتبر الكفـاح ضدها جهاد أكبر، حيث قال: (الآن... رجعتم من الجهـاد الأصغر، فعليكم بالجهاد الأكبر)، قالوا: (وما هو؟ يا رسول الله)! قال: (جهاد النفس)(٣١٢).

ذلك: أن الإنسـان يعرض للإغارة على نفسـه أو ماله أو عرضه، فيقاتل عدوه: فإذا قتله كان (مجاهداً)، وإذا قتل كان (شـهيداً). فأشد أنواع العداء الخارج، أدى إلى أعلى درجات السعادة. ولكنه: يتردد فيقعد عن واجب، فيكون (آثماً). أو تحمله وساوسه على الانتحار، فيكون (قاتلاً). فمحاولة الخلاص الأبدي أدت إلى العذاب الأبدي.

القرآن ـ عندما يوجّه إلى هذا الخطر الكبير ـ لا يتكرر الإنسـان فريسـته، وإنما يضعه على طريق النجاة منه، وهو الاستعاذة بثلاثٍ من صفات الله مضافةالى الناس، للإيحاء إليه، بأنه سينقذك إذا استعذت به. ولئن اكتفى هنا بمجرد الإيماء، فإنه قطع العهد بإنقاذه عباده من هذا الخطر حيث قال للشـيطان (إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ)(٣١٣).

(قُلْ) أنت ـ يا محمّد! ـ وليقل المسـلمون معك: (أَعُوذُ) ـ معتمداً وملتصقاً ـ (بِرَبِّ النَّاسِ)، ومربيهم، ومدبر شؤونهم، وأعوذ بـ(مَلِكِ النَّاسِ)، وصاحب السلطة المطلقة عليهم. وأعوذ بـ(إِلهِ النَّاس)، وخالقهم، ومعبودهم.

فالقوى المسيطرة على الإنسان، التي تملك الهيمنة عليه فكرياً وجسديا، ويلزم الخشية والحذر من سوء استخدامه له، وسوء توجيهها إياه، ثلاثة أصناف:

الأول: القوى التشريعية المربية: ابتداءً من الأبوين، والمرضعة، والمربية... ومروراً بالمعلم، وكل المؤثرين فيه من الزملاء، والمربين والاجتماعيين كالصحفي، والمؤلف، والمسـرحي، والعالم، والشـاعر... وانتهاءاً بالأجهزة التي تتولى التربية العامة، كأجهزة التربية والتعليم، وأجهزة الإعلام... وكل من يعمل للتأثير عليه ـ من قريب أو من بعيد، وبأية وسيلة من الوسائل ـ ويتقمص صفة تشريعية لهندسته وبناءه فكرياً.

الثاني: القوى التنفيذية الحاكمة على الإنسـان: ابتداءاً مـن الأبوين، والمرضعة، والمربية... في جانبهم

الســـلوطي. ومروراً بالفئات التي تمارس ســـلطة معينة، بشكل من الأشكال، وانتهاءاً بأجهزة الحكومات، وكل من يحاول قهره على إنتاج مسلك معين، ويتقمص صفة تنفيذية لهندسته وبناءه ونظامياً.

الثالـــث: القوى العقيدية المتألهة على الإنســـان، التي تخول نفســـها صلاحية التصـــرف العقيدي فيهم، ابتـــداءً من الأبوين، والمرضعـــة، والمربية... في جانبهم العقيدي. ومروراً بأصحاب المبادئ، والفلســـفات، والنظريـــات... وانتهاءاً بالأحـــزاب، والمنظمات، والهيئات العقيدية... وكل مـــن يتصدى للحكومة عليه في عقيدته، ويتقمص صفة عقيدية لهندسيته وبناءه عقيدياً.

هـــذه الأصناف الثلاثـــة من مجاميع القوى الفاعلة فـــي المجتمعات، هي المحركات التي: إن أحســـنت اســـتخدم وتوجيه الإنسان، تجعل منه عنصراً صالحاً. وإن أساءت اســـتخدامه وتوجيهه، تجعل منه عنصراً فاسداً. دون أن يملك تجاهها قدرة للمجابهة والردع، لسببين:

الأول: أنها تتلقف الإنســـان خامة مطواعة، ليس لها ركائز ومســـبقات تنتقد وتناقش القاضي والتصورات والآراء التي تطرح عليها، فيقع تحت تأثيرها المركز بلا مناعة.

الثانـــي: أنها مـــزودة ـ عادة ـ بكميات هائلة مـــن: الخبرات، والتجارب، والمغريـــات، والمرهبات، التي تجعلها أقوى من الأفراد الذين تحاول استدراجهم. فهي ـ بكل حشودها ـ تواجه فرداً واحداً، بينما في الطرف الآخر فرد يواجه كل تلك الحشود. فمن الطبيعي أن تتغلب عليه.

فـــلا بد من عدم الاكتفاء الذاتي في مواجهة تلك القوى، واســـتمداد العون من الله حتى ينصره عليها، أو يصونه من غائلتها على الأقل.

وبما أن القوى التي يلزم الحذر منها تلخص في ثلاثة أصناف، وهي القوى المربية والحاكمة والمتألهة، جاء التعليم القرآني موجهاً إلى الاستعاذة بثلاث صفات مشابهة من صفات الله، هي الرب والملك والإله.

وقيل في بيان الاســـتعاذة بهذه الصفات الثلاث: (من طبع الإنســـان ـ إذا أقبل عليه شـــر يخافه، وأحس بالضعف تجاهه ـ أن يلتجئ بمن يقوى عليه ويكفيه. والذي يراه صالحاً للاعتصام به، أحد ثلاثة:

(إما رب) يلي أمره ويربيه، فيرجع إليه في حوائجه.

وإما (ذو قوة وسلطان) يجيره إذا استجاره.

وإما (إله) لازم معبوديته، وخاصة: إذا كان واحداً لا شريك له، فلا يرجع في حوائجه إلا إليه.

وكان ترتيب الاستعاذة بالرب أولاً ثم بالملك ثم بالإله، لأن من الطبيعي ـ إذا أصاب الإنسان مكروه ـ أن يلجأ إلى: المربي أولاً، لأنه أقرب صلة، وأشد مسؤولية. ثم بالملك، لأنه أوسع سلطة، وأقوى قدرة. ثم ـ وأخيراً ـ بالإله، لأن الاستعاذة بالإله لا تصدر إلا عن من له عمق إيماني، يترفع به عن اللجوء في المكاره إلى مصادر الأمن المادية، الممثلة في المربي والملك.

ولم توصل هذه الصفات الثلاث: (رَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلهِ النَّاسِ) بأحرف العطف، لسببين:

الأول: للإيحاء بأن كل واحدة من هذه الصفات، سبب تام ومستقل في دفع الشر عن من يستعيد به: فمن الطبيعي أن يحمي الرب مربوبيه، ومن الطبيعي أن يحفظ الملك مماليكه، ومن الطبيعي أن يكفي الإله عباده. فيصح الاستعاذة بالله، بذكر أي من هذه الصفات دون ذكر الآخرين.

الثاني: للتأكيد على أن هذه الصفات تعتبر عن موصوف واحد هو (الله) الفرد الأحد، ولا تعبر عن ثلاثة موصوفين. كما كانت الوثنيات السابقة تركز على توزيع الصفات الثبوتية، وتوزيع المخلوقات، بين الآلهة المتعددة، فتجعل: للخير إلهاً، وللشر إلهاً، وللبر إلهاً، وللبحر إلهاً، وللرياح إلهاً، وللشعر إلهاً، وللخمر إلهاً، وللشمس إلهاً وللخصب إلهاً...

وتكرر ذكر (الناس) مع كل واحدة من هذه الصفات لسببين:

الأول: لتكون الاستعاذة بكل واحدة من هذه الصفات، مستقلة كافية، للحذر من شرور مختلف الأصناف الثلاثة.

الثاني: للتأكيد على أن الله ـ تعالى ـ رب جميع الناس، وملك جميع الناس، وإله جميع الناس. فهو ـ بأي من صفاته الثلاث ـ يكفي من يشاء شرورهم جميعاً.

ووردت إضافة صفاته ـ تعالى ـ إلى الناس فقط، وهو رب وملك وإله جميع الخلائق، وليس الناس فقط مصادر كل الشرور، لأسباب:

الأول: لأن الشرور الكبيرة هي الشرور الصادرة من الناس، وأما الشرور الصادرة من الحيوانات، أو من المظاهر الكونية، والبراكين...، فهي شرور ثانوية، والإنسان يملك تدجينها أو الحذر منها بشكل أو

بآخر.

بالإضافة إلى: أنها قد تكون ناتجة من عمل الإنسان نفسه، فلا يصح الاستعاذة منها مباشرة، وإنما يلزم الاستعاذة من شرور النفس مقدمة للتخلص منها. ففي مثل هذه الموارد، لا بد من الاستعاذة من المقدمة لا من النتيجة.

فإذن: هذه الشرور ـ إن صح إطلاق الشرور عليها ـ داخلية، تنبع من عمق الإنسان ـ كشر الانتحار ـ ولها مجال آخر، وليست خارجية تعزو الإنسان من خارجه. وهاتان السورتان، مخصصتان للاستعاذة من الشرور الخارجية.

الثاني: لأن في الناس (أرباباً)، فذكر أنه ـ تعالى ـ ربهم مهما تطاولوا. وأن في الناس (ملوكاً)، فذكر أنه ملكهم مهماً تجبروا. وأن في الناس (متألهين)، فذكر انه إلههم مهما تمردوا. وهؤلاء ـ جميعاً ـ من الناس.

الثالث: لأن المخاطب بهذا الخطاب: (قُلْ)، هو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و من خلاله ـ الناس جميعاً. فحسن تذكيرهم بأن الذي يستعيذون به، ليس بعيداً عنكم، ولا غريباً عنكم، فهو ربهم وملككم وإلهكم...

الرابع: لأن الإنسان أكمل المظاهر التي تتجلى فيها الصفات القدسية:

فتتجلى: (نفحة الله الخاصة) في الإنسان، باعتبار تركيبته الفريدة من الروح والجسد، فهو الحد الذي تلتقي فيه الأرض بالسماء. وباعتبار جماله الجسمي والروحي، فقد فاز ـ في مباريات الخلقة ـ بوشاح: (أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)(٣١٤)، ونال ـ في مسابقة الفضائل ـ تاج: (كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ)(٣١٥).

وتتجلى (ملوكية الله) في الإنسان، باعتباره الخليفة في الأرض، فهو سيد المخلوقات التي لم يطرح القرآن المظاهر الكونية إلا بصفتها جنوداً منقادة له:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الأَرْضِ جَمِيعاً)(٣١٦)، (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ)(٣١٧).

وتتجلى (قدرة الله) في الإنسان: باعتباره أقدر على العبودية والعباد. وباعتباره أوسع في استيعاب المعرفة، فهو الذي نجح في الامتحان الكبير:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها...)(٣١٨).

وباعتباره أبعد مدىً في التحارب مع الأهداف الإلهية، فهو الذي بلغ:

(قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى)(٣١٩)، واستلهم: (لولاك لما خلقت الأفلاك)(٣٢٠).

الخامس: لأن الإنسان ـ رغم مواهبه المتفوقة ـ بحاجة إلى التكرار والتأكيد، حتى تتمكن منه الركائز، فلا بد من التركيز على أن الله (رَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلهِ النَّاسِ)، حتى يتسرب اليقين إلى أعماقه.

السادس: ولعله تكرار توبيخ، فبقية الكائنات لم تتردد في أن الله ربها وملكها وإلهها، والسماوات والأرض (قالَتا: (أَتَيْنا طائِعِينَ))(٣٢١)، ولكن الإنسان ـ وحده ـ هو الذي اتخذ أرباباً، من دون الله، وملوكاً ن دون الله، وآلهة من دون الله.

وفي جامع العلوم النحوي: (وليس قوله: (الناس) تكراراً: لأن المراد بالأول الأجِنّة)، ولهذا قال: (بِرَبِّ النَّاسِ)، لأنه يربيهم، والمراد بالثاني (الأطفال)، ولذلك قال: (مَلِكِ النَّاسِ)، لأنه يملكهم. والمارد بالثالث (البالغون المكلفون)، ولذلك قال: (إِلهِ النَّاسِ)، لأنهم يعبدونه. والمراد بالرابع (العلماء)، لأن الشيطان يوسوس إليهم، ولا يريد الجهال، لأن الجاهل يضل بجهله)(٣٢٢).

واستعملت كلمة: (ملك) في هذه السورة، بينما استعملت كلمة: (مالك) في سورة (الفاتحة)، لأن (الملك) من له الولاية السياسية على مجموعة من البشر وفق مواصفات ومؤهلات معينة، فيما (المالك) من له حق التصرف ـ شبه المطلق ـ في شيءٍ أو أشياء من غير البشر، فيقال: (ملك العرب)، و(مالك الدار)، فكان أحسن هناك لأنه أضيف إلى: (يَوْمُ الدِّينِ).

مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ

(الوسوسة): كالمهمهمة ـ حوار مع النفس في مشتبك المتناقضات. وغالباً ما تستعمل في حديث النفس إذا كان صامتاً، فإذا دخل فيه عنصر الصوت سمي حديث النفس، فإذا غامره الغضب ولم يكن متميز الأحرف سمي همهمة وغمغمة.

و(الوسواس) ـ على وزن (خناس) ـ : هو الذي يثير الوسوسة بإلقاء الشك والتردد في النفس.

وقيل: (الوسواس) حديث النفس ذاته، وليس بصحيح.

أولاً لإضافة (الشر) إليه. ومصدر الشرّ ذات، وليس مصدراً ولا اسم مصدر.

ثانيا: لتوصيفه بـ(الخناس). وهو من صيغ المبالغة، ولا يصح توصيف المصدر بها.

ثالثاً: يظهر من بعض الأحاديث أن (الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ) اسم لغيطان معين، أو لفصيلة من الشياطين(٣٢٣).

و(الْخَنَّاسِ): هو الذي يخنس ويتستر. وقد أطلق (الوسواس) على الشيطان، لأن أهم أعماله إلقاء الشكوك في النفوس، وتشويه الحقائق والمواقف بضباب التردد، وأطلق عليه (الْخَنَّاسِ)، لأنه لا يواجه فريسته بواقعه الشيطاني، وإنما يتستر بوجوه وبراقع مغرية ومطمئنة حتى لا تكشف أوراقه، فيسول الباطل حقاً والخير شراً، كما وسوس لـ(آدم وحواء) قائلاً:

(هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى)(٣٢٤). متستراً بـ(الحية)، باعتبارها حيواناً بريئاً لا مصلحة له في توريط آدم وحواء في الخطيئة، ولم يكن طرفاً في صراع.

وقيل: لـ(الخناس) معنيان متناسبان مع الشيطان.

الأول: كثير التستر، لأن الشيطان ـ أساساً ـ مستور لا يظهر للحواس.

والثاني: كثير التربص، لأن الشيطان يتربص بالإنسان: فإذا حانت منه غفلة عن ذكر الله، قفز عليه ليوسوس إليه. فإذا تذكر الله ولّى عنه، وبقي متربصاً به، حتى إذا أغفل عن ذكر الله ـ مرة أخرى ـ وثب إليه.

وقيل: (الخناس) يشمل جميع المتآمرين. لأنهم يبرزون للمجتمعات من أجل إلقاء أفكارهم وطرح قضاياهم، حتى إذا نفذوا مآربهم خنسوا وتستروا عن الأضواء، كي لا تلاحقهم مغبّة جرائمهم.

ويمكن استنباط أمرين أخلاقيين من استخدام كلمتي:

(الْوَسْواسِ) و(الْخَنَّاسِ) في التعبير عن الشيطان:

١ـ أن انتصار الشـيطان على الإنسـان، يتم عن طريق إلقاء الشك والتردد في الأذهان. فلا ينال مأربه إلا خور الإيمان، ولا يتمكن من أصحاب العزائم.

٢ـ إن الشيطان يطرح فكرته ويخنس، حتى يخيل للإنسان أنهما فكريته. فيتبناها ويتحمس لها، باعتبارها نابعة عنه وليست مطروحة عليه.

فلا بد للإنسان من أن يروض إرادته باستمرار، ويتفحص أفكاره دائماً.

فالوسـواس الخناس (الَّذِي يُوَسْـوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ)، هو كل من يلقي الشـك والشبهة في النفوس، لتشـويه أفكار صحيحة أو تجميل أفكار فاسـدة، سـواء أكان الوجه الذي يتبرقع به: الحق، أو الخير، أو الإنسانية، أو الدين، أو الإصلاح، أو أية لافتة مقبولة لدى فريسته.

والشيطان يلقي وساوسه في (القلب)، الذي هو جهاز لاستقبال الأفكار والعواطف ولبثها، وهو المستودع الذي يختزن المعلومات. وقد تنسب هذه الصفات إلى (الصدر)، باعتبار الصندوق الذي يحتفظ بالقلب.

و(الْوَسْـواسِ الْخَنَّاسِ) قد يكون (مِنَ الْجِنَّةِ): أي من العناصر المسـتترة التي تعايش الناس، ولا يدركها الإنسان بالحواس الخمس. (وَ) ربما يكون من (النَّاسِ): لأن الإنسان الذي يؤدي دور الشيطان، لا يقل خطورة من الشـيطان، بل قد يزيد عليه. لأنه يسـتخدم علاقاته ومؤثراته للضغط على فريسته، فيلزمه بالعدول عن الأفكار الصحيحة وإن لم تكن قناعته تامة. فكلمة: (مِنْ) ـ هنا ـ للتبعيض، ويحتمل أن تكون بيانية للتبيين: (الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ).

المعوذتان ـ أيضاً ـ

ويستحسن هنا إلقاء نظرات عامة على مجمل السورتين:

الأولى: أن السـورتين تقيّمان القدرات الكفاحية في الإنسـان، فهي ـ على العموم ـ تكفي للصراع ضد القوى المعادية التي تعلن حربها على الإنسـان، وتقف في خندق مواجه، للحوار بـ : السـلاح، أو بالمال، أو بالجنس، أو بالسـلطان، أو بالجاه... إذ لا يفترض على الإنسـان غير الصمود حتى ولو رجحت موازين القوى ضده في أسوء الحالات. والصمود أسهل وأدنى ما يفترض القبول به. لمن يعرك الحياة. ولكن القدرات الكفاحيـة في الإنسـان لا تكفي لمواجهة القـوى الخفية الملتوية، لأنه لا يعرف متـى؟ ومن أي؟ وكيف؟ تسـدد ضرباتها إليه، وغالباً تكن له هذه القوى في مأمنه وتأتيه من حيث لم يكن يحتسب، ثم: لا يعرف

الأساليب الناجحة في مقاومتها.

فلا بد من الاستعاذة بالله، لتنويره ـ أولاً ـ بالقوى المتآمرة عليه، وفضح أساليبها وألاعيبها ـ . وثانياً ـ لهدايته إلى أفضل الوسائل والسبل، للتغلب عليها أو التخلص منها.

وهذا التقيم يختصر عمليتين:

العملية الأولى: تصنيف القوى المعادية للإنسان إلى صنفين:

صنف القوى المنظورة الصريحة التي تشتبك مع الإنسان مواجهة، وبأسلحتها التقدليدية المعروفة، من: السلاح، والمال، والجنس، والسلطان، والجاه...

وصنف القوى الخفية الملتوية التي لا تواجه ضحيتها، وإنما تناور حتى تسلبها قدرة المقاومة، ثم توجه إليه ضربة قاضية.

العملية الثانية: إيحاء تربوي إلى الإنسان بأن يعبئ قواه، حتى يكون جاهزاً ـ في كل وقت ـ لمقاومة جميع القوى المعادية له. أقصى ما هنالك: أن في الخندق الآخر أربعة أصناف من القوى لا قبل لها بها إلا مع المدد الإلهي. وأما بقية القوى فهي في مستوى قواه، فعليه الاستقلال بمقاومتها. وإن كانت الاستعانة بالله من الملازمات الإيمانية، التي لا يخلو عنها المؤمن حتى في أعماله الإيجابية اليومية.

الثانية: أن السورتين تلخصان القوى الخفية الملتوية، في أربع مجموعات هي: القوى العاملة في الظلام، والقوى السحرية التي تعقد الأمور، والقوى الأنانية ، والقوى المشككة. وأما بقية القوى المعادية للإنسان، فهي أقل خطورة من هذه:

الثالثة: أن السورتين تصنفان هذه القوى الأربع إلى:

صنف أقل خطورة، ويشمل القوى الثلاث الأول، فجمعتها سورة مؤلفة من خمس آيات، هي سورة (الفلق).

وإلى نصف أكثر خطورة، وهي القوى الرابعة، فخصصت بها سورة مؤلفة من ست آيات، وهي سورة (الناس).

والسبب:

أن القوى الثلاث الأول تحاول هدم الإنسان من خارجه، ولا يفترض في كل من تركز عليه المعاول أن ينهار. فيما القوة الرابعة تهدمه من داخله، حتى لا ينتصب على قدميه، فشخصية الإنسان تحدد بقوة وسرعة إرادته في اتخاذ المواقف، فإذا تذبذبت إرادته بفعل التشكيك فقد شخصيته ومن لم تنعقد له شخصية، لا يكون شيئاً حتى يحاول الآخرون هدمه أو لا يحاولوا. لذلك: كان التردد أخطر الأمراض التي يصاب بها الإنسان، فوضعت (الاستخارة) لترويضه على أن يريد، بتجربة تزويده بالإرادة، بالإضافة إلى: أنها تضع المستقبل غير المنظور تحت تصرفه.

الرابعة: إن الاستعاذة في السورة الأولى من جميع الأشياء الشريرة، ومن قوى الظلام، ومن السحرة، ومن الحاسد، تمت بذكر الله مرة واحدة: (رَبِّ الْفَلَقِ). بينما الاستعاذة في السورة الثانية من الوسواس فقط، لا تتم إلا بذكر الله ثلاث مرات: (رَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلهِ النَّاسِ).

ولعل السبب: أن التردد أخطر مايصيب الإنسان.

ولعله: أن جميع قوى الشرّس تصيب الإنسان في دنياه، فيما الوسواس يصيب الإنسان في آخرته.

الخامسة: أن السورتين سورة واحدة فكرةً، وهي لزوم الاستعاذة بالله في مقاومة تلك القوى الأربع. وهما سورة واحدة أثرا، ففي الحديث: (... فجعل كلما يقرأ آية، انحلت عقدة)(٣٢٥). وإن كانتا: قرآنياً سورتان، لتتوج كل واحدة منهما بالبسملة، وفقهيا سورتان، لكفاية إحداهما عن الأخرى ـ بعد الفاتحة ـ في الصلاة، وفي القرآن موارد عديدة تتكامل فيها سورتان لتكميل فكرة واحدة: مثل سورتي (الضحى) و(الانشراح)، ومثل سورتي (الفيل) و(قريش)...

روايات

(مجمع البيان) للفضل بن الحسن الطبرسي: أن (لبيد بن أعصم) اليهودي سحر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم دسّ في بئر لـ(بني زريق)، فمرض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فبينا هو نائم إذ أتاه ملكان، فقعد أحدهما عند رأسه وآخر عند رجليه. فأخبره بذلك، وأنه في بئر (دروان): في جفّ طلعة ـ والجفّ قشرة الطلع ـ تحت راعوفة ـ والراعوفة حجر في أسفل البئر يقوم عليها الماتح ـ . فانتبه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وبعث علياً (عليه السلام) والزبير وعماراً، فنزحوا ماء تلك البئر، ثم رفعوا الصخرة وأخرجوا الجفّ، فاذا فيه مشاطة رأس وأسنان من مشطة، وإذا فيه معقد في إحدى

عشـــرة عقدة مغروزة بالإبر. فنزلت هاتان الســـورتان، فجعل كلما يقرأ آية انحلّت عقدة. ووجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خفة، فقام، فكأنما أنشط من عقال. وجعل جبرئيل يقول: (بسم الله أرقيك، من شـــرّ كل شـــيءٍ يؤذيك من حاسد وعين، والله ـ تعالى ـ يشفيك(٣٢٦)). وفي نفس المصدر: رواية أخرى عن الفضل بن يسار بن أبي جعفر (عليهم السلام)، ورواية ثالثه عن أبي خديجة عن أبي عبد الله (عليه السلام) باختصار)(٣٢٧).

وعن كتاب (الدرّ المنثور)، أخرج عبد بن حميد عن زيد بن أسلم مثل مضمونه بتعبير آخر)(٣٢٨)

ومن كتاب (طب الأئمة)، بإسناده إلى محمّد بن سنان عن المفضل عن الإمام الصادق مثله(٣٢٩).

وبمثـــل هذا المضمـــون روايات عديدة: من طرق أئمـــة أهل البيت (عليهم الســـلام)، ومن طرق غيرهم باختلاق في نصوصها.

وفي بعض الســـنّة: (أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وســـلم) لما رجع من غزوة (الحديبية) ـ وقد ظهر أمره، واشـــتدت وطأته ـ طلب يهود المدينة من رجل منهم، كان يتعاطى الســـحر هو وبناته، أن يســـحروا الرسول. فأخذوا بعض أثره، ودفنوه في بئر (دوران)...).(٣٣٠).

وناقش بعض العلماء في صحة هذه الروايات. بأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان مصوناً من تأثير السحر، بدليل أن الله استخف بمزاعم من أدعوا أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مسحور، فقال:

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْـــتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْـــتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوى. إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ: (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً) انْظُرْ: كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثالَ؟! فَضَلُّوا، فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً)(٣٣١).

وكان المعتزلة عنيفين في اســـتنكار هذه الرواية، وقالوا: (كيف يمن تأثير الســـحر فيه (عليه السلام) والله يقول في سورة طه:

(...وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى)(٣٣٢).

ويقول للرسول في سورة المائدة قولاً لا يمكن نقضه:

(...وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ...)(٣٣٣)؟!

ويمكن الإجابة على هذه المناقشة بجوابين:

١ـ أن هـذه الروايات، حيث لم تبلغ حـدّ (التواتر اللفظي أو المعنوي) حتى يؤدي إلى القطع بصدورها، لا ملـزم للإلحـاح على صحة مضمونها. إلا أنه ـ بالمقابل لا مبرر للتحفظ تجاهها، إذ لا بد من التفريق بين الجانب الروحي والجسـمي للنبي (صلى الله عليه وآله وسـلم): هو ـ في جانبه الروحي ـ منيع، ومعصوم، ومصون بحراسة الله وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير، فلا ينال ولا يطال ولا يطاول. وأما في جانبه الجسمي، فهو ـ كما أمره الله أن يعرّف نفسه ـ :

(إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ...)(٣٣٤).

فتخلف عليه طوارئ الجسـم البشـري: فيجوع، ويعطش، ويمرض، وينام، ويغتسـل، وتكسر جبهته ورباعيته، ويجرح، ويسـمّ، ويعرض للعاين حسب الأحاديث الواردة في تنزيل آية: (وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَـمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ)(٣٣٥)، من سـورة القلم...، فماذا يمنع من أن يصاب بآلام أو أسـقام، ويشتكي بأثر السـحر؟! والذين قالوا: (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً)(٣٣٦). فبرأه الله مما قالوا، إنما كانوا يقصدون أنه مسحور زايله عقله فترك دين آباءهم، وإن الدعوة الإسلام الكبرى من هذيان مسـحور. فكانت هذه التهمة مثل التهمة التي وجهها إليه نظرائهم حيث قالوا: (إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ)(٣٣٧). فاستحقوا الإشفاق، لأنهم ـ عندما حاولوا إيقاف تلك الدعوة العميقة المركزة، بادعاء أنها هذيان مسحور أو مجنون ـ إنما كشفوا عن أنها صدعتهم حتى أطاشت بهم فقدوا صوابهم تحت وطأتها بحيث لم يملكوا إلا السـباب الرخيص، وإلا فمن غير الناجح ـ في منطق الدعاية المضادة ـ الإسفاف إلى مستوى السباب لإبعاد الناس عن رسول ودين.

واستدلال المعتزلة بالآيتين، غير منطقي:

فقوله تعالى: (...وَلا يُفْلِحُ السَّـاحِرُ حَيْثُ أَتى)(٣٣٨) لا يعني عدم نفاذ سحره، لأن السحر ينفذ بالفعل، وإنما يعني أن السحر ليس وسيلة حياتية. وكل من يعرف (السحرة) يعرفهم أتعس الناس وأقذرهم، رغم أن المفروض أن يكونوا أسعد الناس: بواسطة السحر، أو باستخدام المغررين بهم.

وأمـا قولـه تعالى: (...وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ...)(٣٣٩). فلا يعني أكثر من عصمته في حياته، فتفشـل المؤامرات التي تستهدف حياته الشريفة. فقد بقي معرضاً لسائر الاعتداءات حتى قال:

(ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت)(٣٤٠).

(زاد المعاد) لابن القيم الجوزية: قد أنكر هذا... طائفة من الناس، وقالوا: (لا يجوز هذا... عليه)، وظنوه نقصاً وعيباً. وليس الأمر كما زعموا، بل هو من جنس ما كان يعتريه من الأسقام والأوجاع، وهو مرض من الأمراض، وإصابته به كإصابته بالسم، لا فرق بينهما، وقد ثبت في الصحيحين(٣٤١).

قال القاضي عياض: (والسحر مرض من الأمراض، وعارض من العلل، ويجوز عليه، كأنواع المرض مما لا ينكر ولا يقدح في نبوته...)(٣٤٢). وكان غاية هذا السحر فيه، إنما هو جسده وظاهر جوارحه، لا على عقله وقلبه...

٢ـ إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ في حد ذاته ـ معرض للسحر، ولكن الله يصونه بحاجز من رعايته، فيصطدم بالبحر بالعناية الإلهية وينهار، ويسلم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). كما وجدنا (لبيداً اليهودي)ـ أو بناته على ما روي ـ اجتهد في سحر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فلم يقدر عليه، بدليل أن الله أخبر نبيه فأفسد سحره(٣٤٣).

ولو صح أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ في حد ذاته ـ فوق السحر، لما كانت حاجة: إلى إخبار الله نبيّه بسحر (لبيد)، ولا إلى نزول هاتين السورتين، ولا إلى ترقية (جبريل)، ولما (وجد خفة، فقام، فكأنما أنشط من عقال) بعد قراءة الآيات من السورتين. وإفساد السحر، يدل على نفاذه لو لا إفساده.

(الكشاف) للزمخشري: لا بد من تأويل الاستعاذة من النساء (النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ)، بأحد وجوه ثلاثة: إما أنه يستعاد من عملهن وإثمهن فيه، وإما أنه يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وخداعهن، وإما انه يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن... ويجوز أن يكون المراد بـ(النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ) النساء الكيادات، أخذاً مما جاء عنهن في سورة يوسف: (...إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)(٣٤٤)، تشبيها لكيدهن بالسحر والنفث في العقد، ويجوز أن يكون المراد بهن، النساء اللائي يفتن الرجال بتعرضهن لهم، وعرضهن محاسنهن عليهم، كأنهن يسحرنهم بذلك....

وذهب الشيخ (محمّد عبده) إلى أن السحر خرافة لا أصل لها ولا أثر فقال:

(النفاثات: جمع نفاثة، كعلامة وفهامة. والمراد: النمامون، المقطعون لروابط الإلفة... وإنما جاءت العبارة كما في الآية، لأن الله ـ جل شأنه ـ أراد أن شبههم بأولئك السحرة المشعوذين، الذين إذا أرادوا أن يحلو عقدة المحبة بين المرء وزوجه ـ مثلاً ـ فيما يوهمون به العامة، عقدوا عقدة، ثم نفثوا فيها، وحلوها، ليكون ذلك حلاً للعقدة التي بين الزوجين. والنميمة تشبه أن تكون ضرباً من السحر، لأنها تحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة، بوسيلة خفية كاذبة والنميمة تضلل وجدان الصديقين، كما يضلل الليل من يسير فيه

بظلمته. ولهذا... ذكرها عقب ذرك الغاسق إذا وقت. وقد ظن قوم أن للسحر أصلاً، فقالوا: (إن منه ما يبني على تأثير الكواكب، أو على تأثير الاتصال بالشياطين، أو استحضار الجن بالعزائم والرقي). وفي الحديث النبوي نهي شديد عن السحر، إذ يقول (عليه السلام): (من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك). وما كان الإسلام يبقى على خرافة السحر...)(٣٤٥).

ويظهر مما ذكرنا: أن السحر موجود، وأنه لا مبرر للتكلف في صرف الآية عن ظاهرها.

ولعل الجواب الأول أقرب إلى مستوياتنا، وهو: أن الجانب الجسمي للنبي ((صلى الله عليه وآله وسلم))، معرض للسحر كتعرضه لبقية طوارئ الجسم.

وعدد آيات هاتين السورتين إحدى عشر ـ باستثناء البسملتين ـ بعدد تلك العقد. واختلف في كونهما مكيتين أو مدنيتين: فالذين قالوا بتأثير السحر على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، قالوا بكونهما مدنيتين. والذين قالوا بعدم تأثير السحر على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، قالوا بكونهما مكيتين.

❁❁❁

(الدر المنثور) أخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي، قال: (الفلق: جبٌّ في جهنم مغطى)(٣٤٦).

عن عقبة بن عامر، عن النبي قال: (الفلق: باب في النار، إذا فتح سعرت جهنم)(٣٤٧).

وعن عمرو بن عنسبة، عن النبي قال: (الفلق: بئر في جهنم، إذا سعر جهنم فمنه تسعر)(٣٤٨).

(مجمع البيان) للفضل بن الحسن الطبرسي: عن أبي حمزة الثمالي في تفسيره، وعن علي بن إبراهيم في تفسيره، وعن السدي: (الفلق: جبٌّ في جهنم، يتعوذ أهل جنهم من شدة حرّه)(٣٤٩).

❁❁❁

في تفسير علي بن إبراهيم القمي، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبد الله (عليه السلام): (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): كاد الفقر أن يكون كفراً، وكاد الحسد أن يغلب القدر)(٣٥٠).

(عيون أخبار الرضا (عليه السلام)) لمحمّد بن علي الصدوق. بإسناده عن السلطي، عن الرضا عن أبيه عن آبائه عن النبي (عليهم السلام) : (كاد الحسد أن يسبق القدر)(٣٥١).

(الدر المنثور)، أخرج ابن أبي شـــيبه عن أنس: (قال رسول الله ((صلى الله عليه وآله وسلم)): إن الحسد ليأكل الحسنات كما يأكل النار الحطب)(٣٥٢).

وفي بعض الحديث: (ثلاثة لا يســتجاب دعاؤهم: آكل الحرام، ومكثر الغيبة، ومن كان في قلبه غِلّ أو حسد للمسلمين)(٣٥٣).

وفي حديث آخر: (لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله مالاً، فسلط على هلكته في الحق. ورجل آتاه الله علماً، فهو يعمل به ويعلمه الناس)(٣٥٤).

(مجمع البيان) للفضل بن الحسن الطبرسي، روى أن النبي قال: (من رأى شيئا يعجبه، فقال: (الله... الله... ما شاء الله، لا قوة إلا بالله)، لم يضره شيئاً)(٣٥٥).

❁❁❁

(مجمع البيان) للفضل بن الحسن الطبرسي، عن أنس بن مالك، عن رسول الله (أن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم: فإذا ذكر الله ـ سبحانه ـ خنس، وإذا نسي التقم قلبه. فذلك، الوسواس الخناس)(٣٥٦).

(تفسير العياشي)، بإسناده عن أبان بن تغلب، عن جعفر بن محمّد الصادق: قال رسول الله: (ما من مؤمن إلا ولقلبه ـ في صدره ـ أذنان: أذن ينفث فيها الملك، وأذن ينفث فيها الوسواس الخنّاس... فيؤيد الله المؤمن بالملك، وهو قوله ـ سبحانه ـ (...وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ...)(٣٥٧).)(٣٥٨).

(الأمالي) لمحمّد بن علي الصدوق، بإسناده إلى الصادق عليه السلام:

(لماذا نزلت هذه الآية: (وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَــةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَــهُمْ، ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِــرُ الذُّنُــوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُــونَ)(٣٥٩).، صعد (إبليس) جبلاً بمكة يقال له: (ثوير)، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته، فاجتمعوا إليه، فقالوا: (يا سيدنا! لم دعوتنا)؟ قال: (نزلت هذه الآية، فمن لها)؟ فقام عفريت من الشياطين فقال: (أنا لها كذا... وكذا) قال: (لست لها). فقام آخر، فقال مثل ذلك، فقال: (لســت لها). فقال الوســواس الخناس: (أنا لها). قال: (بماذا)؟ قــال: (أعدهم وأمنيهم حتى يواقعوا

الخطيئة، فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الاستغفار). فقال: (أنت لها). فوكله بها إلى يوم القيامة(٣٦٠). والعفريت: هو المسؤول القيادي من الشياطين.

❁❁❁

(مجمع البيان) للفضل بن الحسن الطبرسي: أن النبي كان كثيراً يما يعوّذ الحسن والحسين (عليهما السلام) بهاتين السورتين(٣٦١).

المصدر ذاته، عن عقبة بن عامر، عن رسول الله: (أنزلت عليّ آيات لم ينزل مثلهن، المعوذتان)(٣٦٢).

ولعل المراد: أنه لم ينزل في مجالهن. والآيات الأخر ـ أيضاً ـ لم ينزل مثلها في مجالاتها، لأن القرآن ـ بكل آياته ـ فوق مستوى بقية كتب السماء. فلم ينزل من السماء شيء في مستوى أية آية من القرآن ومن ضمنه هذه الآيات.

❁❁❁

(الدر المنثور): إن (ابن مسعود) كان يحك المعوذتين من المصحف، ويقول: (لا تخلطوا القرآن بما ليس منه، إنهما ليستا من كتاب الله، إنما أمر النبي أن يتعوذ بهما). وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما.

ثم قال السيوطي: قال البزار: (ولم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة، وقد صح عن النبي أنه قرأ بهما في الصلاة، وقد اثبتتا في المصحف)(٣٦٣).

والذي يبدو: أن ابن مسعود ـ حيث وجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يتعوذ بهما ـ ظن أنهما ليستا من القرآن. بينما التعوذ بالقرآن ـ كله، أو ببعض سوره ـ وارد في روايات تبلغ حدّ (التواتر المعنوي). ولكنه عاصر نزول القرآن وتكامل المفاهيم الإسلامية، فانطلق من التصور الشائع من أن القرآن دستور دين عالمي خالد، وأن التعاويذ أشياء خاصة، فلا تدخل في نطاق القرآن. ولا يهمنا رأيه، بعدما ورد النص على انه مجرد رأي، واستحبت القراءة بهما في الصلاة.

ففي تفسير القمي = عليّ بن إبراهيم، بإسناده عن أبي بكر الحضرمي، قلت لأبي جعفر (عليه السلام): أن ابن مسعود كان يمحو المعوذتين من المصحف، فقال: (كان أبي يقول: إنما فعل ذلك ابن مسعود برأيه، هما من القرآن)(٣٦٤).

(مجمع البيان) للفضل بن الحسن الطبرسي، عن عقبة بن عامر، عن النبي: (يا عقبة! ألا أعلمك سورتين هما أفضل القرآن ـ أو من أفضل القرآن ـ)؟ قلت: (بلى...). فعلمني المعوذتين، ثم قرأ بهما في صلاة الغداة، وقال لي: (إقرأهما كلما قمت ونمت)(٣٦٥).

المصدر ذاته، عن أبي عبيدة الحذّاء، عن أبي جعفر (عليه السلام): (من أوترب المعوذتين وقل هو الله أحد، قيل له: (يا عبد الله! أبشر، فقد قبل الله وترك)(٣٦٦).

خواطر قصيرة

۞ رمي الجمرات الثلاث، هي رموز الشياطين، الكبير والأوسط والصغير، ولعلها هي رموز النفس والأهل والمال.

۞ كل شيء متاح ولكن الإنسان عاجز، كذلك الوحي متاح ولكن الإنسان عاجز.

۞ ديناميكية الإسلام وأوتوماتيكيته، جعلتاه: ينطلق، ويتخذ الحواجز سلماً، والعوارض دوافع... (إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)(٣٦٧). فلا بد من إعادة الديناميكية والأوتوماتيكية إليه، وتنظيره ـ عصرياً ـ لينسجم مع معطيات ومحركات العصر.

۞ الفارق بني العبودية والعبادة: أن العبودية هي تقزم الضعيف أمام استطالة القوي، وأن العبادة هي شموخ القوي حين الاعتراف بالحق الذي يبقى فوق الجميع.

۞ الصراط: الطريق الذي تسقط فيه الأفكار، تنعكس عليه الأعمال.

۞ يحشر المرء ناقصاً أو مشوهاً: ناقصاً بترك الواجبات، ومشوهاً بالمحرمات.

۞ عزة الشيء كونه نادراً. وهذا لا يصطنع بتجميع الطاقات حوله: فالصخرة ـ إن اجتمعت حولها الصخور ـ لا تصبح جوهرة، والشوكة ـ مهما تجمع حولها الأشواك ـ لا تكون وردة، وكذلك: الميكروب، والظلمة...

۞ المنافقون لا يعلمون، لأنهم لا يفهمون الجو الآخر. كما: أن أبناء الدنيا لا يفهمون الآخرة، والطفل لا يفهم الجنس...

۞ النفوس البشـــرية، بقدر ما هي قابلة للشـــموخ والارتفاع، بقدر ما هي قابلة للتقزم والانحدار. فهي تتحمل الامتداد، في جانبي السلب والإيجاب، إلى أكثر مما يتوقعه الإنسان أو يتصوره.

فهنالك: نفوس فاضلة، تشمخ... وتشمخ... حتى ترتفع فوق الخيال، وتعرج فوق كوابح الحياة، وتتحدى قوى: الشهوة، والعاطفة، والسلطة... مجتمعة، فتنتصر عليها جمعاء.

بالمقابل: توجد نفوس حقيرة، تتطاول... وتتطاول... حتى تستهتر بكل الحقائق.

۞ كل شـــيء له كمالان: الكمال الأول والكمال الثاني، أو بالقوة وبالفعل. كل شـــيء الإنسان والحيوان، والنبات، والجماد يتكون صفحة بيضاء، وقد يكون له كمال أول وقد لا يكون. وإذا كان، فإما لا يســـتعمله أو يستعمله: بالحد الأدنى وبالحد الأقصى، في سبيل الخير أو في سبيل الشر.

۞ مشـــيئة الله ليست مجرد مشيئة كمشـــيئة البشر، وإنما هي نتيجة تفاعل العوامل الطبيعية لتلك النتيجة بدقة وواقعية.

۞ الشـــيطان ليس شرا محضاً، وإنما فيه جانبان أو نوعان: نازعان الخير و نازع الشر. بدليل انه ـ في فترة كان تغلب فيه نازع الخير، فأصبح: (طاووس الملائكة). وإن كان الشيطان بالنسبة إلينا مصداق نازع الشر، كما أن جميع المجرمين لمجتمعاتهم هكذا.

۞ إن مشيئة الله علة لوجود الأسباب الكاملة كمتعلق المشيئة، كما في دعاء (يا من تحل به عقد المكاره): (... فهي بمشيئتك دون قولك مؤتمرة، وبإرادتك دون نهيك منزجرة)(٣٦٨).

لا نفسر القرآن، بل نعكس منه، كالكاميرا يعكس الصور.

الهزة الســـلبية ضرورة في شـــحذ الهمم، لأن الهزات الإيجابية لو تكاثرت، تصبح ـ كالنعم ـ ترفاً خانقاً، يخلد إلى الخمول الكسل.

(الأمـــر بالمعروف) ليس تمتمة حائرة مرتجفة، ولا كلاماً هائماً مرتبكا لما يســـمى بـ :(إتمام الحجة)، وإنما هو تنفيذ قوي، فالآمر بالمعروف، الذي يحاول تنفيذ إرادة الله في الأرض، يجب أن لا يقل من الشرطي الذي ينفذ أوامر الدولة بمختلف الأساليب، ابتداءاً من الكلام وانتهاءاً بالسلاح ـ في مقام الدفاع ـ .

الذيــن يدفعون ما فــرض عليهم من الزكاة والخمــس وغيرهما... يلزم أن يدفعــوا صدقةً وإخلاصاً، ولكنهــم ـ فــي الوقت ذاته ـ إنما ينمون أنفســهم، لأن هذه الأموال تحفظ كيانهــم العقيدي: ومن احترمت عقيدتــه، يحترم هو، تحترم مصالحه. ومن لم تحترم عقيدته، لا يحترم هو، فلا تحترم مصالحه. فهو إنما ينمي نفسه ومصلحته بدفعه الزكاة: في الدنيا كما في الدنيا، وخير منه في الآخرة.

الإنسان يغير جوهره بالدعاء، بمقدار ما يغير مظهره بالعمل. ويؤثر في أقدارة بالتوجه إلى الله، بمقدار ما يؤثر على مستقبله بالعلم.

الروح عمق الجسد، والجسد أداة تعبير للروح

الإنســان في أية ممارســة فكرية أو عضلية، قد يتحرك بحماس غيره، وقد يتحرك بحماســه هو. والذين يتحركون بحماس الآخرين، هم المنافقون، الذين لا حماس مستقل له، وإنما هم كالطحالب: فإذا كانوا في أوساط الجماهير المؤمنة، انسابوا في تيارها. وإذا خلوا إلى شياطينهم من الكفار، تسيبوا معهم.

خلق الله الإنسان حفنة من تراب الأرض ونفخة من نور السماء. خلقه مزيجاً من الحيوان والملك. فلا هو من تراب الأرض فقط، ولا هو من نور الســماء فقط. وهــذه التركيبة الخاصة من عنصرين متنافرين، جعلته قادراً على التحرك في كل من الجانبين بتفوق: فإذا أنساب مع شوائب الأرض انحدر أكثر منها، وإذا حلق في سبحات الملائكة ارتفع أكثر منها. ونتيجة للتنافر بين هذين العنصرين، يعاني ـ في داخله ـ صراعاً دائباً، لا يفتر لا يهدأ: فإذا تحكم في هذا الصراع، وسيطر عليه، وقاد كله إلى الحق والخير، كان أعلى من الملك، لأن الملك لا يعيش نوازع الأرض. وإذا تحكم فيه الصراع، وخضع له، وأنقاد لنوازع الأرض، كان أدنى من الحيوان، لأن الحيوان لا يعيش شموخ الملاك.

ليس (البر الحقيقي) بمجرد الصلاة، وإنما الصلاة هي الصلاة التي تأتي عضواً في جسم متكامل. أما إذا بترت الصلاة من الجسم الإيماني الكامل، فإنها تفقد الكمال.

لماذا تكون الفتنة أشد من القتل؟ هنا.. يحتمل تفسيران:

١ـ إن الفتنة ـ بنتائجها ـ أضر من القتل، لأنها تنتهي بقتل آلاف، فهي أضر من قتل نفس واحدة.

٢ـ إن عقاب مثير الفتنة أشد من عقاب القاتل.

مهمات إدارة الدولة

تعيين الحاكم، وعدم إلجاءه إلى الناخب، الذي يقابل انتخابه له بفاتورة حقوق وهمية.

وجوب ممارسة العدالة وعدم التمني.

إقناع الشعب بالواقع المضغوط، الزهد، والتنازل عن دمدمة التورط.

الفرد الواحد من البشر كله، بمثابة العضو الواحد من الجسد كله. فكما أن التوجه إلى العضو الواحد بالإهانة أو بالتكريم. يساوي التوجه به إلى كل الجسد، كذلك: التوجه إلى الفرد الواحد بالقتل أو الإحياء، يساوي التوجه به إلى البشر كله.

(المسجد: رمز الله في الأرض، وأول أعمال الأنبياء هو بناء المسجد: فأول عمل قام به (آدم) هو بناء المسجد، فأول بيت رفع على الأرض كان (الكعبة)، فالكعبة أقدم بيت في الدنيا، قال الله تعالى:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ، لَلَّذِي بِـ(بَكَّةَ) مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ)(٣٦٩).

وأول عمل قام به (إبراهيم) هو بناء الكعبة، حيث تهدمت بعواصف السنين وتيارات السيول المنحدرة من جبال (مكة)، فجدد بنائها: قال الله تعالى:

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ ـ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ـ وَإِسْماعِيلُ: (رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).)(٣٧٠).

وأول عمل قام به النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) هو بناء المسجد، ولكنه طوره، فجعله ـ هو ـ القاعدة والمنطلق، فكانت الأعمال الرئيسية تنطلق من المسجد.

فـ(المسجد) مركز للأعمال الإلهية الحياتية العامة، (والمعمل) كمسجد لعبادة التجارة، والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما فصل المسجد عن الحياة، وما عزل المعمل عن رضوان، وإنما قاد المسجد إلى المعمل الإلهي وقاد المعمل الإلهي إلى المسجد.

(الجهاد) هو المفتاح لكل حق وخير: فبالجهاد تؤخذ الحقوق من الغاصبين، وبالجهاد تسلم النفوس

والأموال والأعراض، وبالجهاد تشاد الأمجال وترفع الحياة...

قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه)(٣٧١). أجل... إنه نصيب الخاصة من أولياء الله.

والجهاد ليس ـ فقط ـ في ضربة (السيف)، وإنما يكون بضربة (الفكر) أيضاً. وقد يكون في استطاعة أي فرد أن يضرب بالسيف، وليس في استطاعة أي فرد أن يضرب بالفكر،

فـ(الرأي قبل شجاعة الشجعان ـ ❁❁❁ هو أول، وهي المحل الثاني).

فكما أن اليد بدون الرأس لا تعمل، كذلك الرأس بدون اليد لا يجدي.

إن صياغة (الحكمة) أصعب بكثير من تأليف (الكتاب)، وإن (القرآن) من نوع الحكمة، بل نوع فوق نوع الحكمة.

سورة (العلق) ـ كأول سورة ـ تحتوي على لمعة الشروق، كما أن جلال المغيب يبدو في الآية الكريم:

(...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ ـ لَكُمْ ـ دِينَكُمْ، وَأَتْمَمْتُ ـ عَلَيْكُمْ ـ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ ـ لَكُمُ ـ الإِسْلامَ دِيناً...)(٣٧٢).

لقد تاب الله، ـ لا توبة دائمية وكلية، وإنما توبة عن سخط أحاط ببعض المسلمين، عندما عارضوا (صلح الحديبية)، رغم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان ينوي عقده. فعارضوه بدون أن يكون لهم الحق في المعارضة:

(وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ ـ إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً ـ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ...)(٣٧٣) فيكف بأمر (الصلح والحرب)، الذي لا يخص أي واحد منهم؟! فسخط الله عليهم عندما عارضوه، حتى قال بعضهم: (ما شككت في نبوة محمّد إلا يوم الحديبية). فلما أذعنوا وانقادوا وأعادوا البيعة للرسول، تاب الله عليم عن هذا السخط.

كلما استنشقت عبير الورد وجدت التسبيح، وكلما سمعت تغريد البلبل وجدت التسبيح، وكلما رأيت الأمواج تلعب على الضفاف وجدت التسبيح، وكلما تساقطت الفاكهة أمامي وجدت التسبيح... فكل شيء يؤدي رسالته التي أوحاها الله إليه، إنما يسبح الله بلغته التي لا نفهمها، ولكنه يعي انه يؤدي رسالته التي

ائتمن عليها.

هنالــك: طريق واحد للالتفاف على إرادة الحياة، هي الاتصال بالله للتغلب على الحياة، لأن الله ـ وحده ـ هو القاهر فوق الحياة. فعليك ـ أيها الإنسان! ـ بسلوك هذا الطريق:

(أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّـمسِ إِلى غَسَـقِ اللَّيْلِ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ، إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْـهُوداً. وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّـدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ، عَسـى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً. وَقُـلْ: (رَبِّ! أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ، وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ، وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً).)(٣٧٤).

المطلــوب مــن (العبادة) مقدار معين: كالتغذية للجسـد، والـدواء للعلاج، وكالمـال لقضاء الحاجة، وكاللباس، كالسكن، والجنس، كالرياضة...

وأكثر من ذلك ليس مطلوباً، إذ ليست العبادة هدفاً ذاتياً يطلب الإكثار منه وإن أدى للملل ورد الفعل.

كما أن المطلوب ليس إلا مقداراً معيناً من (الاستغفار) يزود المستغفر بمناعة عن الحرام، وليس مطلوباً بلا حدود، لأنه ليس شعاراً فارغاً.

بالفعــل: عصى (آدم) ربه، ولكن عصيان أولى لا عصيان تحريم، فمخالفة نهي الأولى عصيان كمخالفة نهي التحريم. و(الصديقون) يعاتبون ـ أو يعاقبون تعلى أي عمل لا يليق بمستواهم، حتى ولو كان ذلك مما يزلــف غيرهم إلى الله: فالصلاة التي تقبل من الفرد العادي، ترفض من الأنبياء والأولياء، وربما يعاتبون ـ أو يعاقبون ـ عليها، لأنها دون مستواهم، فالثقة التي تحلي الطفل تسيء إلى الرجل، ومن هنا... قيل: (حسنات الأبرار، سيئات المقربين)(٣٧٥).

فالمكــروه الذي لا يعنينا يعيب من هم أفضل منا. وعلى الذي يعيش في (الجنة) أن لا يرتكب مكروهاً، وإلا يخرج منها.

إن الله ـ تعالــى ـ كما يختار أصحــاب المواهب والطاقات المتفوقة من (الملائكة) ، فيجعلهم رســله، ويمنحهم الصلاحيات التكوينية أو التشريعية الكبرى. وكما يختار أصحاب المؤهلات والإمكانات المتفوقة من (الناس)، فيجعلهم رســله، ويحملهم المســؤوليات الرســالية والتنفيذية العظمى، على ما نص القرآن الكريم:

(اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)(٣٧٦)، وعلى ما حدث الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): (إن الله أطلع على الأرض إطلاعة فاختارني)(٣٧٧)، هكذا. يختار الله (الأمم) لرسالته، إنسجاماً مع ما آتاهم من قدرات، تختلف نتيجة لتفاعل مكونات الأمة.

فرسالات السماء تنزل على الأمم متوافقة مع الثروات الذاتية للأمم، وبمقدار ما تكون الأمة تتجاوب مع الرسالة التي تهبط عليها وفق معادلة دقيقة لا يمكن أن تخطأ.

فالرسالة تلبية قدية لنداءات الأمة، تسبقها عملية تقييم وعملية اختيار، لا اعتباط وتمحلّ. كما تنظم البرامج التربوية والتعليمية لصفوف الناشيئة والطلاب، متطابقة مع مستوياتهم. وكما توزع المسؤوليات والحقائب على الموظفي في أي جهاز حكيم مقدرة بقدراتهم. وكما تخلع الرواتب والرتب على العاملين في كل الحقول الحياتية، متفاوتة حسب كفاءاتهم...، كذلك: الله ـ تعالى ـ يقسم رسالاته على الأمم. وإن كان تشبيه عمل الله بعمل الناس، ليس إلا لمجرد التقريب إلى الأذهان.

إن الرسالات السابقة كانت رسالات مرحلية، ومرحليتها تجعلها بسيطة يمكن أن يستوعبها الظرف البشري الواحد. فأكثر الأنبياء كانوا يبعثون لتصحيح غلطة واحد ـ أو عدة أغلاط ـ أصيب بها مجتمع بشري معين، كما يظهر من العرض القرآني لرسالات الأنبياء، فكل رسالة كانت تغطي قطاعاً بشرياً معيناً، فكان من الممكن أن يتحملها واحد من البشر.

والرسالات العالمية التي بشر بها (أولوا العزم) من الأنبياء، لم يتحملها (نوح) و (إبراهيم) و(موسى) و(عيسى) (عليهم السلام)، وإنما كان لهم أعوان من الأنبياء كانوا يأتمرون بأوامرهم، فكانوا بمثابة العناصر المكملة لتلك الشخصيات الرسالية، رغم أن مرحليتها وبسطة البشرية تجعلانها أقل ثقلاً من الرسالة الخاتمة. فهي ـ بمقتضى استمرار وتطور البشرية ـ تكون أثقل وأعقد، فهي القمة التي لا قمة فوقها.

تماماً... كالقيادات العسكرية التي كان يجسدها ـ سابقاً ـ رجل واحد، بينما اليوم ـ تجسدها مجموعة مختارة من خيرة الرجال العسكريين الذين تتناسق فيهم المواهب، وينفرد كل واحد فيهم باختصاص يؤهله لإدارة ما يناسب اختصاصه من المهام العسكرية. ومع ذلك: لا تكون لتلك المجموعة من المجموعة من العسكريين الاختصاصيين، قمة واحدة تجمعها، وتتفوق عليها ـ جميعا ـ في القدرة الإدارية ـ مثلاً ـ ، كوزير الدفاع أو القائد الأعلى للقوات المسلحة ـ مثلاً ـ .

فالرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بمثابة القائد الرسالي الأعلى، وأهل البيت (عليهم السلام) بمثابة المجموعة الرسالية القائدة.

حــول مكتبه إلى: صوت يرتفع، وحــق يمارس، وصلات تتفاعل... ولم يحــول مكتبه إلى جهاز من أجهزته. وحول الكرسي إلى إنسان، ولم يحول الكرسي إلى أداة.

(إِنَّ الَّذِينَ قالُوا: (رَبُّنَا اللهُ))(٣٧٨) بكل ما ينبثق يتسلســل من هذه العقيدة. فقول: ربنا الله) يعني: العقلية الواقعية المنفتحة، التي فاجأت الجاهلية بأكثر مما كان متوقعاً في المعادلات الجاهلية.

(قاتِلُوهُمْ: يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)(٣٧٩).

هذه الآية تعرض اتخاذ الموقف، والأمر باتخاذ قرار الحرب:

(قاتِلُوهُمْ)، ثم إثارة العواطف التي تســاعد على إلهاب الصراع، لجعله ضارياً حتى يكون حاســماً لا مجرد اشتباك معطل للطاقات بلا جدوى.

وفي هذا المجال، استخدم القرآن النقاط التالية: ـ

الأولى: الإيحاء بالانتصار: (يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ). فأنتم ـ أيها المســلمون ! ـ المنتصرون، وهم المعذبون بأيديكم، بعد طول عذابكم بأيديهم.

الثانية: ـ كشف صفحة ما بعد الانتصار وتغير المعطيات، فإذا بالجاهليين أصفاراً فخرية، لا ثقل لها ولا حساب: (وَيُخْزِهِمْ) بعد طول استعلاء وغلواء.

الثالثــة: ـ جعل امتداد آخر للصراع، عبر المؤمنين الذين لا زالوا يرزحون تحت حكم الجاهلية ويعانون ألوان العذاب: (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ).

- الأساطير مطامح أمة بدائية لم تجسدها ـ بعد ـ في تاريخ.

- لابد من التعب للجنة أكثر من الدنيا، ذلك: أن الناس لا يدخلون الجنة إلا باستحقاقهم الجزئي كما لا يحظون بالدنيا إلا باســتحقاقهم الجزئي، ولا يدخلون النار إلا باستحقاقهم الكلي كما لا ينالون الحرمان في الدنيا إلا باستحقاقهم الكلي؛ بحيث لا يدعون مجالاً للرحمة. لأن الرحمة ـ أيضاً ـ تحتاج إلى سبب أو مبرر. وإن كانت الرحمة هي التصرف بالرصيد الشخصي من قبل الراحم؛ إلا أنه لا يتطوع بها للمرحوم إلا باستحقاق جزئي، ولا يحرم منها إلا باستحقاق كلي.

• (وَالضُّحى وَاللَّيْلِ إِذا سَجى)(٣٨٠): اليمين بأروع أوقات النهار عندما يضحو ويعلو، وأروع هزيع في الليل عندما يسجو ويهدأ. فعندما يسجو الليل يكون وقت التفكير والتخطيط، وعندما يضحو النهار يكون وقت الانطلاق والتنفيذ.

• (وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدى)(٣٨١): إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ رغم عظمته ـ بالغير وليس بالذات، فكما أن وجوده بالغير كذلك هدايته.

ولكن يمكن القول: إنه حيث كان من نور الله لم يكن وجوده سابقاً على هدايته، وإنما كانت له كالنورانية للنور من دون سلب الاختيار، فسبح قبل الملائكة وبلا تعلم.

ويمكن الجواب: أن هدايته تلك كانت كامنة مستورة، فظهرت وتبلورت فيما بعد، فصح التعبير بأن الله وجده ضالاً أي مستوراً غير ظاهر.

• (أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)(٣٨٢)؟! فجعلناك واسع الصدر حتى تحملت: العلم الهائل، والرسالة العالمية، ومعاناة الأعداء من الجن والإنس والشياطين، والشواغل التي تشغل عن أداء الرسالة...؛ بكل رهاوة وقدرة. وكنت أكبر من كل هذه.. فسيطرت عليها، ولم تجرفك يوماً من الأيام.

• (وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ)(٣٨٣): ذكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مع الله في مجالات: الأذان، الصلاة، والأدعية، والأوراد، والخطب، والقرآن، وسائر المجالات الدينية؛ شيء لم يسبق له مثيل لأي بشر، حتى الأنبياء (صلى الله عليه وآله وسلم). ولآن تعودنا ذلك فألفناه ولم نستوعب أهميته، فإن ثقله على معاصريه وأعدائه هائل مخيف.

• إن الإنسان ـ في الحقيقة ـ لا يملك شيئاً من الموجودات ملكاً حقيقياً، لأن الأشياء كلها ممتلكات حقيقية لله تعالى. نعم: هنالك شيء واحد يملكه الإنسان، وهو سعيه الناتج من إرادته. فسعي الإنسان ليس من نوع سائر الموجودات التي كانت قبل الإنسان ثم جاء فبسط سلطانه عليها، وإنما صدر السعي بإرادته هو، فهو ملكه الحقيقي.

إلا إذا قلنا: أن المملوك لا يملك، والإنسان الذي هو ملك لله لا يملك باستقلال، فطالما هو ملك لغيره فكلما يصدر عنه فهو ملك لذلك الغير.

ونحن نتمسك بهذه القاعدة في تعاملنا مع بقية الموجودات: فنعتبر سعي الحيوانات التي يملكها فرد

ملكاً لذلك الفرد، ونعتبر إنتاج الأرض لمالكها...

(إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)(٣٨٤). نزولا رتبياً من عالم الروح إلى عالم المادة. (تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ): نزولاً من عالم المعنى الخالص الذي هو عالم الملائكة، إلى عالم الجسد الخالص الذي هو علم البشر.

تكن للرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) مسؤوليتان: مسؤولية تلقي الرسالة من السماء، ومسؤولية تفريغها في الأمة، وتكون للأمة مسؤوليتان: مسؤولية تلقي الرسالة من الرسول، ومسؤولية تفريغها في البشر.

فالرسول (محمّد) (صلى الله عليه وآله وسلم) رسول من عند الله ـ مباشرة ـ إلى الأمة ، والأمة وسائط من عند الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ بأمر من الله ـ إلى الناس.

فالأمة أمة وسط ـ في الهرم الرسالي ـ كما هي وسط في كل الأمم، فعليها أن تلقى الدين من الله ـ بواسطة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ وتنشره على الناس.

فالأمة الإسلامية هي الأمة الوسيطة، وكل فرد منها يقوم بدور وسيط، إن لم يكن بين الله والناس فبين الرسول والناس. والرسول ـ من قبل الله ـ رسول إلى الناس، والفاصل بينه وبين الله لا يقطع صلته بالله. فكل رسول إلى الناس يتلقى الرسالة من رسول، كـ(جبرئيل) مثلاً.

وكثير من أنبياء الله كانوا رسل الله بواسطة بعض (أولي العزم)، فالثلاثة الذين تحدث القرآن عنهم:

(إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ)(٣٨٥)، كانوا رسل عيسى (عليه السلام)، ولم يكونوا رسل الله مباشرة.

إنما المهم في شخصية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو التحويل الرسالي من قبل الله، إذ لا يصح لأي فرد التصدي للمناصب القيادية ـ مهما ارتفعت مؤهلاته ـ إلا بقرار التخويل. وقد منح الله كل أفراد الأمة الإسلامية، هذا التخويل.

فكل فرد من الأمة الإسلامية يقوم بدور رسول، فهو ـ إن أحسن تفريغ الرسالة ـ لا يختلف في النتائج عن أي رسول من رسل الله.

وإذا كان هنالك من فارق، فهو في ذات الرسالة: فالرسل السابقون كانوا رسلاً بدائيين إلى الأدوار البدائية للبشرية، فكانت نوعية الرسالات تلائم مستويات تلك الأدوار. والرسول محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ حيث خول الرسالة إلى أرقى الأدوار البشرية ـ كانت رسالته أعلى الرسالات. وأفراد أمته الذين يقومون بدور الرسل السابقين، لهم ما للرسل السابقين، مع علو مستواهم بعلو مستوى رسالتهم.

ومن هنا... يمكن فهم قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل(٣٨٦) بأن الدور الذي يباشره علماء أمة الرسول هو نفس الدور الذي كان يباشره أنبياء بني إسرائيل كما يمكن فهم قول الرسول الآخر: «علماء أمتي أفضل من أنبياء بني إسرائيل»(٣٨٧)، بأن الرسالة التي يؤديها علماء أمة الرسول أرقى من الرسالات التي كان يؤديها أنبياء بني إسرائيل.

فالعلماء كالأنبياء في الدور، وأفضل منهم في الرسالة.

وإن كان (العلماء) ـ في هذا الحديث ـ قد فسر بالأئمة الإثني عشر (عليهم السلام) لأن سائر علماء أمة الرسول لم يبلغوا المستوى النفسي الذي بلغه أنبياء بني إسرائيل، فكان أولئك (معصومين) بالله وعلماء أمة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) غير معومين، فتفوقهم الرسالي يقابل بالتفوق النفسي لأنبياء بني إسرائيل فيرجح التفوق النفسي، لأن الإنسان يقدر بـ (ما هو) قبل أن يقدر بـ (ما أعطى): فثلاث صيعان من الشعير يدفعها أهل البيت (عليهم السلام) في سبيل الله، ترجح بكل نعيم الأرض لو أنفقه في سبيل الله من لا يملك ذلك الإخلاص، فتنزل فهيم سورة، وربما لا يرتفع شيء ممن عمل هذا... عن الأرض.

الفكرة بدون الخيال. جاف باهت.

التقى النبي والإمام في هذه الحياة لا صدفة، بل كأنه

الهوامش

(١) . سورة فصلت: آية١٠

(٢) . سورة الإسراء: الآية ٢٣.

(٣) . سورة فصلت: أية ١٢.

(٤) . سورة سبأ: أية ١٨.

(٥) . نهج البلاغة حكمه ٢٨٧.

(٦) . سورة الإسراء: آية ٢٣.

(٧) . سورة فصلت: أية ١٢.

(٨) . كلمة الله . ص٤٧٨.

(٩) . غرر الحكم ودرر الكلم.

(١٠) . سورة فصلت: أية ٣٠ . ٣٢.

(١١) . سورة الأعراف: أية ١٧٦.

(١٢) . سورة الحجرات: آية ١٤.

(١٣) . سورة البقرة: أية ٢٨٣.

(١٤) . سورة التوبة: أية ٨٧.

(١٥) . المقنع والهداية . الصدوق . ج٢ . باب (١٠) ص ١٢ . حديث (١).

(١٦) . المقنع والهداية . الصدوق . ج٢ . باب (١٠) ص ١٢ . حديث (١).

(١٧) . أنظر: الآمالي . للشيخ الصدوق . ج٢ . ص٥٤٧.

(١٨) . بحار الأنوار ج٦٥ ص٢٩١ ح٥٠.

(١٩) . أنظر المحجة البيضاء ج٥ ص٩٠ والجواهر السنية في الأحاديث القدسية للحر العاملي ص٩٦.

(٢٠) . سورة الشورى: أية ٧.

(٢١) . سورة الإسراء: أية ١٥.

(٢٢) . سورة الشورى: ١٣ . ١٦.

(٢٣) . سورة الحجر: أية ٩.

(٢٤) . سورة الشورى: أية ٢٣.

(٢٥) . سورة الشورى: الآية ٥١.

(٢٦) . سورة الأنفال: أية ١٢.

(٢٧) . سورة القصص: آية ٧.

(٢٨) . سورة النحل: آية ٦٨.

(٢٩) . سورة فصلت: آية ١٢.

(٣٠) . سورة فصلت: آية ١١.

(٣١) . سورة الأحزاب: آية ٧٢.

(٣٢) . سورة الأنعام: آية ١٢١.

(٣٣) . اعتقد الجاهليون أن لكل شـــاعر جنياً يرافقه وان شـــعره ليس من نظمه، وإنما هو كلام ذلك المرافق الذي يهمس في أذن رفيقه الشاعر، وأن شذوذ الشعراء من مس الجن وكان لديهم بئر معطلة في وادٍ موحش، اسمها عبقر، يعتقدون أنها عاصمة الجن، وأن كل من تفوق فقد نجح في مد الجسور بينه وبين كبار الجن من عبقر، فيطلقون عليه لقب العبقري. م.

(٣٤) . وهذه الأمواج أغرت أحد كتاب الوحي بإدعاء النبوة، لأن النبي (صلى الله عليه وآله وســـلم) إذا بدأ بتلاوة آية

أتمها، فظن أنه أصبح في مستوى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلما ابتعد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يستطع أن يعمل آية واحدة، ولما تاب وعاد إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، عاد إلى ما كان عليه، لأن دماغه كان بشكل يمكنه من التقاف موجة الوحي وهي تهبط على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). وقد يشعر المرء بالانقباض دون معرفة سببه، ثم يبلغ موت قريب أو حبيب، أو خسارة في ذلك الوقت. م.

(٣٥) . سورة الزخرف: ٣١ . ٣٢.

(٣٦) . سورة الزخرف: ٣٣ . ٣٥.

(٣٧) . سورة الجاثية: ١٤ . ١٥.

(٣٨) . سورة الأحقاق: آية ٣٥.

(٣٩) . سورة محمّد آية ٤ . ٦.

(٤٠) . الخطأ . في كثير من التعبيرات الدينية . يشمل المخالفة عن عمد... وإصرار... ففي القرآن الكريم: (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ) (سورة القصص: ٨) وفي الإنجيل: (كلكم خطاؤون...) وإذا لم نقل أن المارد هو: الخطأ في تقدير أن شراء الدين بالدين في مصلحتهم . م.

(٤١) . العروى الوثقى، للإمام الطباطبائي اليزدي . الجزء الأول/ ٦١٤.

(٤٢) . ثواب الأعمال للشيخ الصدوق . ١٨.

(٤٣) . ثواب الأعمال للشيخ الصدوق .٣٦.

(٤٤) . ثواب الأعمال للشيخ الصدوق . ٥٥.

(٤٥) . ثواب الأعمال للشيخ الصدوق . ٥٥.

(٤٦) . ثواب الأعمال للشيخ الصدوق . ٤٥.

(٤٧) . ثواب الأعمال للشيخ الصدوق . ٢٤٢.

(٤٨) . عقاب الأعمال للشيخ الصدوق . ٢٦٣

(٤٩) . عقاب الأعمال للشيخ الصدوق . ٢٦٦.

(٥٠) . عقاب الأعمال للشيخ الصدوق . ٢٨٦.

(٥١) . عقاب الأعمال للشيخ الصدوق . ٢٤٣.

(٥٢) . سورة الفتح: آية ١٨.

(٥٣) . الكامل في التاريخ ج٢ ص١٤٠ ومثله في البحار ج٢ ص٣٦٣ والمغازي ج٢ ص٦٢٧ والسيرة الحلبية ج٢ ص٧٢٠ والسيرة النبوية لابن هشام مج ٢ ص٣٢٤ والسيرة النبوية لان كثير ج٣ ص٣٣٥.

(٥٤) . سورة الممتحنة: أية ١٠.

(٥٥) . سورة الفتح: آية ٢٤.

(٥٦) . سورة الفتح: آية ٢٥.

(٥٧) . سورة آل عمران: آية ١٣٥.

(٥٨) . بحار الأنوار ج٧ ص٢٧٠ ح٣٥.

(٥٩) . سورة الفتح: آية ٢٩.

(٦٠) . أعيان الشيعة، للإمام الأمين . الجزء الخامس والثلاثون/ ٢٩٥.

(٦١) . سورة الشعراء: آية ٢١٧ . ٢١٩.

(٦٢) . مفاتيح الجنان، للمحدث القمي . ٤٢٩.

(٦٣) . سورة الحجرات: آية ١٢.

(٦٤) . الأمالي . للصدوق . ص٣٦٢ . باب (٦٨) حديث ٩.

(٦٥) . سورة الحجرات: آية ١٣.

(٦٦) . سورة الحجرات: آية ١٧.

(٦٧) . سورة الأعراف: آية ١٥٧.

(٦٨) . سورة ق: آية ٣١ . ٣٥.

(٦٩) . سورة الحجر: آية ٤٧.

(٧٠) . سورية الذاريات: آية ٧.

(٧١) . سورة الذاريات: آية ١٩.

(٧٢) . سورة البقرة: آية ٢٢٩.

(٧٣) . انظر: بحار الأنوار . ج ٦٨ . ص٣٥٦ . ح ١٧.

(٧٤) . انظر: الوسائل . ج١٢ . ص ١٦.

(٧٥) . سورة الذاريات: آية ٥٦.

(٧٦) . سورة النجم: ٣ . ٥.

(٧٧) . سورة النساء: آية ١٧١.

(٧٨) . سورة الحجر: آية ٢٩.

(٧٩) . بحار الأنوار . ج ١٥ . ص٧.

(٨٠) . بحار الأنوار . ج١٧ . باب (١٣) حديث ٤ و ١٠.

(٨١) . سورة الحج: آية ٣١.

(٨٢) . سورة الشورى: آية ٥١.

(٨٣) . بحار الأنوار ج٥٨ ص١٩١ ح٦١.

(٨٤) . سورة القصص: آية ٧.

(٨٥) . سورة المائدة: آية ١١١.

(٨٦) . سورة النحل: آية ٦٨.

(٨٧) . سورة فصلت: آية ١٢.

(٨٨) . سورة القصص: آية ٧.

(٨٩) . سورة المائدة: آية ١١١.

(٩٠) . سورة النحل: آية ٦٨.

(٩١) . سورة فصلت: آية ١٢.

(٩٢) . سورة النجم: ٣٩ . ٤١.

(٩٣) . سورة التغابن: آية ١٥.

(٩٤) . انظر وسائل الشيعة ج ١١ ص ٥٢٨.

(٩٥) . المقنع والهداية . للصدوق ج ٢ . باب (١٠) ص ١٢ ح١.

(٩٦) . سورة النحل: آية ١٢٠.

(٩٧) . سورة الرحمن: آية ١ . ٤.

(٩٨) . سورة النمل: آية ٨٨.

(٩٩) . تحف العقول للمحدث الحراني . ٤٨٤.

(١٠٠) . سورة الرحمن: آية ٥ . ٩.

(١٠١) . سورة الرحمن: آية ١٣.

(١٠٢) . سورة الرحمن: آية ٤٦.

(١٠٣) . مفاتيح الجنان، للمحدث القمي . ٥٠٢.

(١٠٤) . سورة المطففين: آية ٦.

(١٠٥) . سورة النبأ: آية ٣٨.

(١٠٦) . سورة الأنعام: آية ١٥٨.

(١٠٧) . سورة الفجر: آية ٢٢.

(١٠٨) . سورة الكهف: آية ٤٥.

(١٠٩) . سورة الحديد آية ٢٠.

(١١٠) . انظر المحجة البيضاء ج٥ كتاب ذم الدنيا ص٣٥٥.

(١١١) . الأحادث القدسية . ص٦٩ . حيث (٦٠) ط دار الكتب العلمية . بيروت.

(١١٢) . أنظر بحار الأنوار . ج١ . أبواب العلم . باب (١).

(١١٣) . بحار الأنوار: للعلامة المجلسيت ج٤٤/ ٢٤٢.

(١١٤) . سورة الحديد: آية ٢٢ . ٢٣.

(١١٥) . بحار الأنوار للعلامة المجلس . ج٤٤/ باب ٣٠.

(١١٦) . بحار الأنوار للعلامة المجلس . ج٤٤/ باب ٣٠.

(١١٧) . سورة الكهف: آية ٤٩.

(١١٨) . سورة الرعد: آية ٣٩.

(١١٩) . سورة المجادلة: آية ١١.

(١٢٠) . سورة البقرة: آية ٢٥٣.

(١٢١) . سورة الحشر: آية ٢١.

(١٢٢) . سورة فصلت: آية ١١.

(١٢٣) . سورة الصف: آية ٦.

(١٢٤) . سورة النساء: آية ١٧١.

(١٢٥) . سورة الصف: آية ١٤.

(١٢٦) . سورة الجمعة: ١ . ١١.

(١٢٧) . سورة المنافقين: آية ٨.

(١٢٨) . سورة الطلاق: آية ٣.

(١٢٩) . سورة آل عمران: آية ١٥٩.

(١٣٠) . سورة التوبة: آية ١٢٩.

(١٣١) . سورة الطلاق: آية ٣.

(١٣٢) . سورة النساء: آية ١٢٣.

(١٣٣) . سورة الرعد: آية ١١.

(١٣٤) . سورة الأنعام: آية ١٢٥.

(١٣٥) . سورة الحج: آية ٤٠.

(١٣٦) . بحار الأنوار . ج٤٥ . ص٣ ط مؤسسة الوفاء.

(١٣٧) . سورة النحل: آية ٩٣.

(١٣٨) . سورة القصص: آية ٥٦.

(١٣٩) . سورة الزمر: آية ٣٦ . ٣٧.

(١٤٠) . عوالي اللئالي ج١ ص٧٥ ح١٤٩.

(١٤١) . سورة آل عمران: آية ١٥٩.

(١٤٢) . سورة الطلاق: آية ١٢.

(١٤٣) . سورة الطلاق: آية ١٢.

(١٤٤) . سورة التحريم: آية ٤.

(١٤٥) . سورة الملك: ١ . ٢.

(١٤٦) . الذي أراه . من تتبع موارد استعمال صيغة التفاعل . : أنه لو استعمل فيما له طرفان، يدل على صدور الفعل من طرفيه . كالتضارب . . وإذا استعمل فيما ليس له طرفان، يدل على المبالغة، مثل: تبارك، وتعالى... وذلك: إسراءً من التفاعل الـذي لـه طرفان. لأن الفعـل الذي كان يصدر من جانبين يكون قويـاً ومتتابعاً . كالتضارب . ، بينمـا الفعل الذي يصدر من جانب واحد لا يبلغ ذلك المسـتوى من القوة والتتابع . كالضرب . ،فأسـريت صيغة التفاعل من الفعل الصادر من جانبين إلى الفعل الصادر من جانب واحد ، للدلالة على أنه في مستوى الفعل الجماعي في القوة والتتابع والاستمرار، كما هي أفعال الله سبحانه، فإنها قوية متتابعة مستمرة، كالأفعال الجماعية وفوق الأفعال الجماعية.

(١٤٧) . سورة الواقعة: آية ٦٢ . ٦٣.

(١٤٨) . سورة الملك: ١ . ٢.

(١٤٩) . سورة الجاثية: آية ٢٤.

(١٥٠) . بحار الأنوار . ج٥٨ . باب (٤٣) . حديث (٤) . ص ١٣٢.

(١٥١) . سورة الأعراف: آية ١٧٢.

(١٥٢) . بحار الأنوار ج٤٤ ص١٥١ و١٤٠.

(١٥٣) . عوالم العلوم والمعارف والأحوال للمحدث البحراني الاصفهاني ج١٧ ص٢١٦ والبحار ج٤٤ ص٣٦٦.

(١٥٤) . سورة الملك: آية ١٥.

(١٥٥) . أنظر البحار ج٥٤ ص٣٢٠ باب العوالم.

(١٥٦) . أنظر البحار ج٥٤ باب العوالم.

(١٥٧) . الاختصاص . للمفيد . ص (١٢).

(١٥٨) . انظرحياة الحيوان للدميري ج١ ص٢٠٣.

(١٥٩) . نهج البلاغة ٤ حمة رقم٤٣٣.

(١٦٠) . سورة المزمل: آية ١ . ٩.

(١٦١) . مجمع الزوائد ومنبع الفوائد . ج ص٢٠٧.

(١٦٢) . سورة المدثير: آية ١١ . ٣٠.

(١٦٣) . سورة القيامة: آية ١٦ . ١٩.

(١٦٤) . سورة الدهر: ٥ . ٦.

(١٦٥) . سورة الدهر: آية ٢٠.

(١٦٦) . انظر البحار ج٨ ص١٢٨ ح٢٩.

(١٦٧) . سورة النازعات: آية ١ . ٥.

(١٦٨) . سورة النازعات: ٤٢ . ٤٤.

(١٦٩) . الاحتجاج . للطبرسي . ج١ . ص(٣٥٨).

(١٧٠) . نهج البلاغة . الخطبة (٥).

(١٧١) . الاحتجاج . للطبرسي . ج١ . ص(٢٥٨).

(١٧٢) . انظر: بحار الأنوار . ج٢٦ . باب أن عندهم جميع العلوم.

(١٧٣) . الأصول من الكافي . ج١ . ص٢٤٠ . حديث (٢).

(١٧٤) . سورة الجن: آية ٢٦ . ٢٧.

(١٧٥) . سورة آل عمران: آية ١٧٩.

(١٧٦) . مفاتيح الجنان، للمحدث القمي . ٥٤٥.

(١٧٧) . انظر بحار الأنوار ج٢٥ باب غرائب أفعالهم وأحوالهم ح٢٤ ص٣٧٤.

(١٧٨) . انظر مسند الرسول الأعظم للدارابي الشيرازي ج٧ باب ٦٢ في أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) علمه ألف باب من العلم وبحار الأنوار ج٢٦ ص١٧٣.

(١٧٩) . سورة سبأ: آية ٧ . ٨.

(١٨٠) . سورة بني اسرائيل: آية ٤٩ . ٥٢.

(١٨١) . سورة الإنشقاق: ٦ . ١٥.

(١٨٢) . سورة الغاشية: آية ٢١ . ٢٢.

(١٨٣) . نهج البلاغة(فيض الإسلام) . ٣٣.

(١٨٤) . سورة القصص: آية ٥٦.

(١٨٥) . سورة الشمس: ٥ . ٧.

(١٨٦) . سورة الذاريات: الآية (٤٧).

(١٨٧) . سورة الشمس: آية ٨.

(١٨٨) . الأصول من الكافي . ج ١ . ص١٦ . حديث (١٢).

(١٨٩) . سورة الضحى: آية ١ . ١١.

(١٩٠) . سورة الانشراح: آية ١ . ٨.

(١٩١) . لأن سورة (الضحى) وسورة (الانشراح) تعتبران واحدة، كتب المؤلف حولهما على أساس أنهما واحدة بالفعل، كما صرح بذلك فيما يأتي.

(١٩٢) . في الحديث النبوي: (إن الله أدبني فأحسن تأديبي). م.

(١٩٣) . في الحديث: (حسنات الأبرار، سيئات المقربين). م.

(١٩٤) . سورة المائدة: آية ٣.

(١٩٥) . سورة الضحى: آية ١ . ١١.

(١٩٦) . سورة الانشراح: آية ١ . ٨.

(١٩٧) . سورة الضحى: ٦ . ٧.

(١٩٨) . مصباح الكفعمي الطبعة الحجرية ص١٧٠.

(١٩٩) . سورة طه: آية ١١٤.

(٢٠٠) . بحار الأنورا ج٣٩ ص٥٦.

(٢٠١) . بحار الأنورا ج٢٠ ص٣٨٢ ح٧.

(٢٠٢) . سورة الإنشراح: آية ٤.

(٢٠٣) . سورة النور: آية ٣٥.

(٢٠٤) . سورة الشعراء: آية ٨٤.

(٢٠٥) . سورة الإنشراح: الآية ٥ . ٦.

(٢٠٦) . أعيان الشيعة، للعلامة الأمين . ٢٦ . ٣٣٩.

(٢٠٧) . سورة التين: آية ١ . ٨.

(٢٠٨) . سورة التين: آية ٤ . ٦.

(٢٠٩) . بحار الأنوار . ج١٩ . ص ١٨٢ . حديث (٣١) ط . مؤسسة الوفاء.

(٢١٠) . سورة العلق: ٦ . ٧.

(٢١١) . سورة القدر آية ١ . ٥.

(٢١٢) . البرهان في تفسير القرآن . ج٤ . ص٤٨٦ . ٤٨٨ . ط . مؤسسة الوفاء.

(٢١٣) . البرهان في تفسير القرآن . ج٤ . ص٤٨٥ . ط مؤسسة الوفاء.

(٢١٤) . سورة البقرة: آية ٤٥.

(٢١٥) . سورة البقرة: آية ١٨٦.

(٢١٦) . سورة البينة: الآية ٤ . ٥.

(٢١٧) . سورة العصر: الآية ١ . ٣.

(٢١٨) . كنزل الأعمال . خ (٤٣٦٥٥).

(٢١٩) . نهج البلاغة . خطبة (٥١).

(٢٢٠) . سورة الهمزة: آية ٦ . ٧.

(٢٢١) . نهج البلاغة . خطبة (٢٢٤).

(٢٢٢) . سورة الفيل: الآية ١ . ٥.

(٢٢٣) . سورة قريش، آية ١ . ٤.

(٢٢٤) . سورة الماعون: ١ . ٧.

(٢٢٥) . سورة النصر: آية ١ . ٣.

(٢٢٦) . سورة محمّد: آية ١٣.

(٢٢٧) . سورة الفتح: آية ١.

(٢٢٨) . سورة الأنفال: آية ١٧.

(٢٢٩) . سورة المائدة: آية ٢.

(٢٣٠) . سورة آل عمران: آية ١٨٦.

(٢٣١) . سورة التوبة: آية ٢٤.

(٢٣٢) . سورة آل عمران: آية ١٢٦.

(٢٣٣) . سورة النصر: آية ٣.

(٢٣٤) . سورة تبت: آية ١ . ٥.

(٢٣٥) . سورة الأنعام: آية ٣١.

(٢٣٦) . سورة الدهر: آية ٣.

(٢٣٧) . سورة الأعراف: آية ١٧٦.

(٢٣٨) . سورة الإسراء: آية ١٥.

(٢٣٩) . سورة هود: آية ٢٨.

(٢٤٠) . سورة هود: آية ١١٨.

(٢٤١) . سورة البقرة: آية ٢٦س

(٢٤٢) . السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٩٧ وبحار الأنوار ج١٥ ص٤١٢.

(٢٤٣) . إيمان أبي طالب لشمس الدين فخار بن معد الموسوي سص٢٢١ السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٣٥٢.

(٢٤٤) . سورة الأنبياء: آية ٦٣ . ٦٥ و ٦٨.

(٢٤٥) . فهر: الحجر مقدار ملء الكفّ. م.

(٢٤٦) . كان كفار قريش . بعد بزوغ فجر الإسلام . يطلقون على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): مذمماً)، كراهة تسميته (محمّداً) . م.

(٢٤٧) . سورة الإسراء: آية ٤٥.

(٢٤٨) . مجمع البيان ج١ ص٨٥٣.

(٢٤٩) . سورة التوحيد: الآية ١ . ٤.

(٢٥٠) . سورة النازعات: آية ٥.

(٢٥١) . سورة التحريم: آية ٦.

(٢٥٢) . سورة الأنبياء: آية ٢٩.

(٢٥٣) . سورة الزمر: آية ٣.

(٢٥٤) . نهج البلاغة الخطبة ٦٥.

(٢٥٥) . سورة التوبة: آية ٨٤.

(٢٥٦) . حق اليقين (شبّر) ج١ ص٤٧.

(٢٥٧) . نهج البلاغة حكمة ٤٧٠ عن المعجم الفهرسي لألفاظ نهج البلاغة.

(٢٥٨) . سورة الإسراء: آية ١١٠.

(٢٥٩) . مجمع البيان . ج١٠ . ص٨٥٩.

(٢٦٠) . مجمع البيان . ج١٠ . ص٨٥٩.

(٢٦١) . الكافي . ج١ . ص٩١ باب السنة.

(٢٦٢) . مجمع البيان . ج١٠ . ص٨٥٩.

(٢٦٣) . مجمع البيان . ج١٠ . ص٨٥٩.

(٢٦٤) . الاحتجاج . ج١ . ص٤٢ . ط مؤسسة الاعلمي.

(٢٦٥) . معاني الأخبار . للصدوق.

(٢٦٦) . مجمع البيان . ج١٠ . ص٨٥٤ ط دار المعرفة . بيروت.

(٢٦٧) . علل الشرائع . للصدوق.

(٢٦٨) . مجمع البيان . ج ١٠ . ص٨٦٠.

(٢٦٩) . مجمع البيان . ج ١٠ . ص٨٦٠.

(٢٧٠) . مجمع البيان . ج ١٠ . ص٨٦٠.

(٢٧١) . مجمع البيان . ج ١٠ . ص٨٦٠.

(٢٧٢) . لسان العرب . ج١٣ . ص٤٦٧.

(٢٧٣) . نهج البلاغة . الخطبة (١٥٢).

(٢٧٤) . التوحيد . للصدوق.

(٢٧٥) . مجمع البيان . ج١٠ . ص٨٦١ . ط دار المعرفة . بيروت.

(٢٧٦) . الكافي . ج١ . ص١٢٣ . باب (تأويل الصمد).

(٢٧٧) . البرهان في تفسير القرآن . ج ٤ . ص٥٢٥ . ط مؤسسة الوفاء . بيروت.

(٢٧٨) . مجمع البيان ج ١٠ ص ٨٦١ ط دار المعرفة . بيروت.

(٢٧٩) . مجمع البيان ج ١٠ ص ٨٦١ ط دار المعرفة . بيروت.

(٢٨٠) . مجمع البيان ج ١٠ ص ٨٦١ ط دار المعرفة . بيروت.

(٢٨١) . مجمع البيان ج ١٠ ص ٨٦١ ط دار المعرفة . بيروت.

(٢٨٢) . مجمع البيان ج ١٠ ص ٨٦١ ط دار المعرفة . بيروت.

(٢٨٣) . مجمع البيان ج ١٠ ص ٨٦٢ ط دار المعرفة . بيروت.

(٢٨٤) . البرهان في تفسير القرآن . ج٤ . ص٥٢١ . ط مؤسسة الوفاء . بيروت.

(٢٨٥) . انظر البرهان في تفسير القرآن ج٤ ص٥٢٠ رقم ٩ ط مؤسسة الوفاء.

(٢٨٦) . البرهان في تفسير القرآن ج٤ ص٥٢٠ . ط مؤسسة الوفاء . بيروت.

(٢٨٧) . الدر المنثور . ج٦ . ص٤١٢ . منشورات مكتبة آية الله المرعشي . قم.

(٢٨٨) . مجمع البيان في تفسير القرآن . ج١٠ . ص٨٥٤ . ط دار المعرفة . بيروت.

(٢٨٩) . انظر بحار الأنوار ج٤ باب (٤) جوامع التوحيد.

(٢٩٠) . التوحيد . للشيخ . الصدوق باب (٤) حديث (٢).

(٢٩١) . سورة الفلق: آية ١ . ٥.

(٢٩٢) . سورة الناس: آية ١ . ٦.

(٢٩٣) . لأن سورة (الفلق) وسورة (الناس) تعتبران واحدة . ولو من بعض الوجوه . ، كتب المؤلف حولهما على أساس أنهما واحدة بالفعل، كما صرح بذلك فيما يأتي.

(٢٩٤) . سورة الإسراء: آية ١٢.

(٢٩٥) . سورة البقرة: آية ١٨٦.

(٢٩٦) . أنظر: الجواهر السنية . لمحمّد بن الحسن الحر العاملي . ص ١٦٤.

(٢٩٧) . سورة النمل: آية ٦٢.

(٢٩٨) . انظر النهاية . ج٥ . ص٩ . باب النون مع الفاء.

(٢٩٩) . سورة الأنعام: آية ٩٥ . ٩٦.

(٣٠٠) . تفسير القرآن العظيم . للحافظ ابن كثير الدمشقي . ج٤ . ص٩١٦ ط دار الكتب العلمية . بيروت.

(٣٠١) . انظر بحار الأنوار . ج٩١ . ص ٢١١ . باب (٣٨).

(٣٠٢) . سورة البقرة: آية ١٧٩.

(٣٠٣) . سورة ص: ٢٨.

(٣٠٤) . سورة ص: آية ٥٧.

(٣٠٥) . تفسير القرآن العظيم . للحافظ ابن كثير الدمشقي . ج٤ . ص٩١٦ . ط دار الكتب العلمية . بيروت.

(٣٠٦) . بحار الأنور ج (٧٠) . باب الحسد . ص٢٥٥ . حديث ((٢٦) . ط . مؤسسة الوفاء.

(٣٠٧) . تصنيف غرور الحكم ودرر الكلم ص ٣٠٠ رقم ٦٨١٩.

(٣٠٨) . سورة البقرة، آية ١٤٨ . سورة المائدة: آية ٤٨.

(٣٠٩) . بحار الأنوار . ج(٧٠) . باب الحسد . ص ٢٥٠ . حديث (٧). ط مؤسسة الوفاء.

(٣١٠) . سورة القيامة: آية (١٧).

(٣١١) . كلمة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) . ص ٤٠٣.

(٣١٢) . وسائل الشيعة . ج١١ . (أبواب جهاد النفس) ص١٢٢ . حديث (١).

(٣١٣) . سورة الحجر: آية ٤٢.

(٣١٤) . سورة التين: آية ٤.

(٣١٥) . سورة الإسراء: آية ٧٠.

(٣١٦) . سورة القصص: آية ٢٩.

(٣١٧) . سورة إبراهيم: آية ٣٣.

(٣١٨) . سورة البقرة: آية ٣١ . ٣٣.

(٣١٩) . سروة النجم: آية ٩.

(٣٢٠) . بحار الأنوار ج٥٤ ص ١٩٩.

(٣٢١) . سورة فصلت: آية ١١.

(٣٢٢) . مجمع البيان ج١٠ ص ٨٦٩.

(٣٢٣) . مجمع البيان ج١٠ ص٨٦٩.

(٣٢٤) . سورة طه: آية ١٢٠.

(٣٢٥) . مجمع البيان ج١٠ ص٨٦٥.

(٣٢٦) . مجمع البيان ج١٠ ص٨٦٥.

(٣٢٧) . مجمع البيان ج١٠ ص ٨٦٧.

(٣٢٨) . الدر المنثور ج٦ ص٤١٩.

(٣٢٩) . طب الأئمة ص ١١٣.

(٣٣٠) . مجمع البيان ج١٠ ص٨٦٥ والدر المنثور ج٦ ص٤١٧ و ٤١٨.

(٣٣١) . الإسراء: آية ٤٧ . ٤٨.

(٣٣٢) . سورة طه: آية ٦٩.

(٣٣٣) . سورة المائدة: آية ٦٧.

(٣٣٤) . سورة الكهف: آية ١١٠.

(٣٣٥) . سورة القلم: آية ٥١.

(٣٣٦) . سورة الإسراء: آية ٤٧.

(٣٣٧) . سورة القلم: آية ٥١.

(٣٣٨) . سورة طه: آية ٦٩.

(٣٣٩) . سورة المائدة: آية ٦٧.

(٣٤٠) . بحار الأنوار ج٣٩ ص٥٦.

(٣٤١) . زاد المعاد . ج ٣ . ص ١٠٤ دار الكتاب العربي.

(٣٤٢) . الشفاء . للقاضي عياض . ج٢ . ص ١٨١ . ط دار الكتب العلمية . بيروت.

(٣٤٣) . البرهان في تفسير القرآن . ج٤ . ص٥٢٩ . ط مؤسسة الوفاء . بيروت.

(٣٤٤) . سورة يوسف: آية ٢٨.

(٣٤٥) . الدر المنثور ج٦ ص ٤١٩.

(٣٤٦) . الدر المنثور ج٦ ص٤١٨.

(٣٤٧) . الدر المنثور ج٦ ص٤١٨.

(٣٤٨) . الدر المنثور ج٦ ص٤١٨.

(٣٤٩) . مجمع البيان ج١٠ ص٨٦٦.

(٣٥٠) . البرهان ج٤ ص٥٢٨ ح٤.

(٣٥١) . عيون أخبار الرضا (عليه السلام) ج١ ص١٣٩ ح١٦.

(٣٥٢) . الدر المنثور ج٦ ص٤١٩.

(٣٥٣) . انظر الخصال باب الثلاثة.

(٣٥٤) . المحجة البيضاء ج٥ ص٢٣٢.

(٣٥٥) . مجمع البيان ج١٠ ص٨٦٦.

(٣٥٦) . مجمع البيان: ج١٠ ص٨٦٩.

(٣٥٧) . سورة المجادلة: آية ٢٢.

(٣٥٨) . مجمع البيان ج١٠س ص٨٧٠ نقلاً عن العياشي.

(٣٥٩) . سورة آل عمران: آية ١٣٥.

(٣٦٠) . البرهان ج١ ص٣١٦ ح٥.

(٣٦١) . مجمع اليان ج١٠ ص٨٦٦.

(٣٦٢) . مجمع ابيان ج١٠ ص٨٦٤.

(٣٦٣) . الدر المنثور . ج٦ . ص٤١٦.

(٣٦٤) . تفسير القمي ج٢ ص٤٥٠س

(٣٦٥) . مجمع البيان ج١٠ ص٨٦٤.

(٣٦٦) . مجمع البيان ج١٠ ص٨٦٤.

(٣٦٧) . مجمع الزوائد منبع الفوائد ج٥ ص٣٠٣.

(٣٦٨) . الصحيفة السجادية الدعاء رقم ٧.

(٣٦٩) . سورة آل عمران: آية ٩٦.

(٣٧٠) . سورة البقرة: آية ١٢٧.

(٣٧١) . نهج البلاغة، فيض الإسلام . ٩٤.

(٣٧٢) . سورة المائدة: آية ٣.

(٣٧٣) . سورة الأحزاب: آية ٣٦.

(٣٧٤) . سورة الإسراء: آية ٧٨ . ٧٩ . ٨٠.

(٣٧٥) . بحار الأنوار ج٢٥ باب ٥ ح١٦.

(٣٧٦) . سورة الحج: آية ٧٥.

(٣٧٧) . عيون أخبار الرضا (عليه السلام) ج١ باب ٣١ ص٧٢ ح٢٩٩.

(٣٧٨) . سورة فصلت: آية ٣٠.

(٣٧٩) . سورة التوبة: آية ١٤.

(٣٨٠) . (سورة الضحى: ١ . ٢)

(٣٨١) . (سورة الضحى: آية٧)

(٣٨٢) . (سورة الانشراح: آية ١)

(٣٨٣) . سورة الانشراح: آية ٤.

(٣٨٤) . سورة القدر: آية ١.

(٣٨٥) . سورة يس: آية ١٤.

(٣٨٦) . عوامل العلوم ج٢ ص١٧٠ باب ٢٢.

(٣٨٧) مصابيح الأنوار من شرح مشكلات الأخبار للحجة المرحوم السيد عبد الله ج١ ص٤٣٤ ح٨٣ ط بصيرتي . إيران